مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

مؤلفات الجاحظ مصدراً من مصادر معجم اللغة العربية التاريخي

دراسة في المستويات اللغوية

الحبيب النصراوي

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

مؤلَّفات الجاحظ مصدرًا من مصادر معجم العربية التاريخيّ

دراسة في المستويات اللغويّة*

الحبيب النّصراوي

أستاذ بالمعهد العالي للغات بتونس

ماي ٢٠٠٧

مُقَدِّمَة

هذه دراسة لسانيّة معجميّة لجوانب من مواقف الجاحظ اللغوية؛ ومن آرائه في التطوّر اللغوي، وفي علاقة المنوال بالاستعمال، وبتقاطع التاريخ مع النظام، وأثر كلّ ذلك في واقع اللغة العربية بين الممكن اللغوي ودور المتكلّم في تكييفه مع المقام، وبين الرّصيد المنجز، ودور المعجم في الدفاع عن استقراره أو انغلاقه..

لكنّ الاستقرار الذي يراد للغة ظاهره حماية خصائصها، وباطنه منهج يفرض في النّهاية المعيار على الاستعمال ويجعل وظيفة المتكلّم خارج التّاريخ، ممّا يعمّق الهُوّة بين اللغة ومعجمها. فإنّ من اللغويين من كان يرى أنّ من واجبه أن يحفظ من الانحلال الشّكل اللغوي المتّفق على فصاحته. وهذا ما يؤدّي إلى ظهور عدّة ملاحظات في إطار التّمييز بين اللسانيات الوصفية والنّحو المعياري(1).

وقد ساعدهم ذلك على الفصل بين المستعمل والممكن في اللغة، فعالجوا قضايا التّطوّر في اللغة على أساس الصّلة بين الأصل الفصيح والفرع المحدث. وهذا نحو من التّناول لا يرفع الفواصل بين الدّوالّ ومدلولاتها القديمة وما آلت إليه في الاستعمالات الجديدة. فنتج عن ذلك نفي الميزة الحيويّة للغة العربية. وحاجة العربية إلى التعبير عن مفاهيم حضارية واجتماعية وثقافية مستحدثة. وهو ما أدّى إلى تجاهل التّطوّر في اللغة واعتباره حلقات منفصلة عن مسار اللغة(2).

ولا تزال العربية إلى اليوم تعاني من آثار هذا الفصل بين الواقع والنّموذج

(1) انظر مثلاً: Milner: Intro. à une science du langage, p50

(2) الدّاية فائز: علم الدلالة العربي، ص٢٥٣.

المفروض باسم الفصاحة، وحماية لغة القرآن. ونلاحظ أنّ ذلك قد آل إلى انفصام شديد بين العربية المشتركة، ونعني بها عربية الكتابة والتعليم، والعربية المقولة التي يتحرّر فيها المتكلمون من كلّ قيد، فتطغى لغة جديدة أو تكاد.

لذلك رأينا أن نبحث في هذه القضيّة انطلاقًا من أسس نظريّة تثبت قيام الوحدة المعجمية على مفهوم التّطوّر أساسًا، على رغم الاستقرار الظّاهر في مستوى النّموذج؛ ثمّ نهتمّ بمعالجة معجميّة تاريخية لنماذج من نصوص أساسيّة في تاريخ العربية، مثّلت شكلاً من أشكال القول في أزهى عصور العربية وأكثرها عطاء – أعني مؤلَّفات الجاحظ- قصد البحث في درجة الالتزام بالفصيح أو العدول عنه، لنصل ذلك بمسألة التوليد المعجمي في عربية الإنتاج العلمي والإبداع الفنّي، وكيف تعاملت مع ذلك الواقع بما يتداخل فيه من جديد وقديم وعاميّ وأعجميّ..، عملاً بالمنهج اللغوي التاريخي، فإنّ الاعتماد التاريخيّ، في هذا المجال، يعيننا على معرفة محطات القضية ومفاهيمها المتنوّعة..

ومعنى هذا أنّنا سنهتمّ بالنّواحي البيئية والتاريخية التي يمكن أن تفيدنا في تحديد ملامح التّطوّر اللغوي في العربية. ذلك أنّ وصف التّطوّر اللغوي يمكن إذن أن يتأسّس جزء منه على وصف السّياق التاريخي لتولّد الكلمات الجديدة، وعلى طبيعة المتكلّمين الذين أنتجوها ومجالات التجارب التي ظهرت فيها. وهكذا يكون هذا التّصنيف اجتماعيًا تاريخيًا كما هو في نفس الوقت لغويّ. فهو يستعين بمقارنة المراحل الزمانية المشتركة لتاريخ المجتمع وتاريخ المعجم. ويمكن أن يؤدّي ذلك إلى تحديد حركات المولّدات اللغوية في علاقتها بتقلّبات المرجعية التاريخية. فهناك ضرب من الكلمات يموت وآخر يظهر وثالث يختفي ثمّ

يعود في شكل عملية توليد جديدة إلخ...

لذا ليس من الغريب أن نجد في هذه العربية المولَّدة تغيّرًا كبيرًا. وكان من المفروض أن تظلّ قوائمها منفتحة على التجربة الإنسانية، بما أنّها تعكس مرورًا متواصلاً من البنية الحاصلة في اللغة إلى بنية التجربة غير المنتهية التي للإنسان عن الكون(١).

وعلماء العربية أنفسهم لم يستطيعوا منذ القديم إنكار أهميّة ذلك التوليد في واقع العربية، فتحدّثوا عن اتّساع مفردات اللغة ممّا يتطلّب تقصّي الجديد من المعاني وقدرات الدّلالات الفصيحة على أدائها. وهو ما انعكس أيضًا في المعجم، فسعى في التعريف إلى إيراد أكثر من دلالة، ممّا ينمّ عن معالم تطوّر دلاليّ، لكن دون الانشغال بالبحث في قوانينه العامة.

ومع أنّ متابعة التّطوّر اللغوي والدّلالي أمر ميسور في اللغات الحيّة، فإنّه في العربية ليس كذلك. ونحن نلجأ عند الدرس التاريخي إلى النّصوص القديمة للبحث في مظاهر تطوّر ألفاظ العربية في غياب معجم تاريخيّ نحتكم إليه في تحديد مراحل التطور وعوامله ومظاهره.

وقد أردنا بهذه الدراسة أن نثبت أمرين:

– الأول: الاستناد إلى مصدر من أهمّ مصادر العربية لنثبت أنّ قضايا التطور اللغوي والاستعمال والمستويات اللغوية والاقتراض، وغيرها.. حقائق لغوية لا غنًى للغة عنها.

---

(١) Mounin : Problèmes de Traduction, p. 138.

– والثاني: تأكيد الحاجة إلى معجم تاريخيّ للغة العربية للتخلّص من نزعات التطرّف والتوقّع والتّخمين. وهو ما يخلّص العربية ممّا ران عليها من أزمنة الضعف وأخفى ما قامت عليه حقيقتها من حريّة واستجابة للواقع في نطاق قوانينها وقواعد التوليد فيها.

أمّا اختيار الجاحظ فيعود في نظرنا، إلى أنّه واحد من أكبر ناثري العربية، وأغزرهم إنتاجًا، وأكثرهم إلمامًا بخصائص النّثر العربي فصيحه ومولّده،.. وفي نصوصه إدراك واضح لهذه المستويات سواء من حيث الإشارة المباشرة إليها، أو من حيث الحاجة إلى استعمالها في نصوصه، حسب طبيعة الخطاب.. إضافة إلى ما تميّز به عصره، من تجدّد فكريّ، وتحرّر لغويّ، واختلاف اجتماعيّ، وصراع مذهبيّ... ولذلك انعكاسه المباشر في مستوى اللغة المكتوبة خاصّة بسبب تصدّيها للفكر الجديد وما يتنزّل فيه من قيم ومفاهيم لا عهد للثقافة العربية بها، وليس لها في عربية البدو ما يعبّر به عنها..

لهذه الأسباب رأينا أنّ دراسة مؤلفات الجاحظ مادّة ثريّة تيسّر عمليّة البحث والتحليل، وتفيد في كشف الواقع اللغوي، ومن ثمّ استنباط آراء والوصول ربّما إلى أحكام واستنتاجات..

أمّا من النّاحية العمليّة فقد تميّز الجاحظ بمعالجته للقضية اللغوية في مختلف مؤلفاته، وذلك من زاويتين:

أ– الأولى زاوية نظريّة: فقد بثّ الجاحظ في أغلب ما ألّف، مجموعة كبيرة من الآراء اللغوية بعضها ذو بعد لسانيّ عامّ كقضايا التطوّر اللغوي، ومسألة اللفظ

والمعنى، والمستويات اللغوية..؛ وبعضها خاصّ بالعربية من حيث هي اللغة المدركة بالقول، المستعملة بالفعل في ما يكتب، فبحث في ما طرأ عليها من تغيّرات، وما شهدته أبنيتها من طول تصرّف بحسب المقام والظرف التاريخيّ والاجتماعيّ..؛

ب- الثانية زاوية تطبيقية: فإنّ الجاحظ لم يكتف بالتعبير عن قناعاته ومواقفه اللغوية تنظيرًا بل مارسها فعليًّا في مستوى الكتابة والتّأليف. فقد جاءت لغته قائمة على حقيقة التطور، فلم يقف معجمه على الفصيح وحده، بل آثر لغة الاستعمال، وترك للمتكلِّم حريَّة اختيار المستويات اللغوية المناسبة لكلّ مقام.

وقد أغرانا ذلك بتتبّع آراء الجاحظ وممارساته اللغوية في أهمّ مؤلّفاته لنستخرج منها معجمًاهو الذي أقمنا عليه هذه الدِّراسة. فقد خصّصنا التَّمهيد للجانب النظريّ واهتممنا فيه بدراسة الجوانب اللسانية في فكر الجاحظ التي انطلق منها لبناء مفاهيمه اللسانية العامة: كاختلاف اللغات باختلاف تجارب المتكلمين، ومسألة التطوّر والبلى وفق الحاجة والاستعمال، وقضايا تعدّد المعنى وغموضه ومحدودية الألفاظ، ومسألة الثّابت والمتحول، والحاجة إلى المستويات اللغوية لتنوّع أركان الخطاب..

ثم تناولنا في الفصول الأربعة بالدّرس والتحليل المستويات اللغوية التي قامت عليها مؤلّفات الجاحظ، وهذه في الحقيقة مستويات لغوية لا تخلو منها لغة حيّة، فإنّ جميع اللغات تنطلق من الفصيح باعتباره الأصل، لتتّسع إلى ما يحدثه المتكلمون: إمّا بقواعد التوليد الطبيعية، فهو مولّد، وإمّا بتحريفه صوتيًّا أو صرفيًّا أو تركيبيًّا أو دلاليًّا فهو عاميّ، وإمّا باقتراضه من لغات أخرى فهو مقترض.

وقد عالجنا هذه المستويات من زاويتين كذلك:

أ- الأولى اعتمادًا على آراء الجاحظ في كلّ مستوى من المستويات المدروسة، من حيث أهميّته وضرورته في الخطاب، ومقارنته بغيره من المستويات، وموقفه منه من جهة الفصيح وغير الفصيح..؛

ب- الثانية استنادًا إلى درجة اعتماد الجاحظ على كلّ مستوى بعينه في كتاباته، ولذلك استخرجنا معجمًا معبّرًا عن كلّ مستوى يثبت موقف الجاحظ من ناحية، ويؤكّد ضرورة الاعتماد على هذه المستويات باعتبارها مكوّنات أصيلة في واقع العربية منذ مراحلها المتقدّمة.

وقد قصدنا بذلك بيان أهميّة الإقرار بالواقع اللغوي بعيدًا عن التّصنيفات المعيارية التي تدين جزءًا من مكوّناته وتعتبره هباءً منثورًا، وتدعو إلى التخلّص منه، وكأنّ اللغة يمكن أن تستقيم بإهمال أغلب مكوِّناتها (أي المولّد، والعامي، والأعجميّ)، والاقتصار على مكوّن واحد وهو المعروف بالفصيح. فإنّ ذلك عاجز عن نقل التَّجارب الحادثة في واقع المتكلمين، ولن يستطيع أن يصهر ما تملكه اللغات الأخرى من مفاهيم وأشياء لا وجود لها في اللغة الأصليّة.

إنّ العودة إلى تجربة الجاحظ تدعونا اليوم إلى التأمّل في واقع اللغات جميعًا، وفي سبل نموّها وتجاوز مظاهر ضعفها وتخلّفها، والوقوف على رؤية لسانيّة بلغت بالعربية ما بلغته عصر ازدهارها، فطُوِّعت للتجديد وللتّوليد فاستجابت. فإنّ ما قدّمه الجاحظ على ما فيه من تجاوز لخصائص الفصحى وإقرار بما جدّ في حياة الناس من جديد - فلم يتحرّج من استعماله- لم يُسِئْ إلى العربية، ولم يهدّدْ

بقاءها، بل إنّ ما أنجزه كفيل بأن يكشف أنّ الواقعية اللغوية كما فهمها الجاحظ وسيلة ضروريّة لحماية اللغة وبقائها معبّرةً عن مشاغل الناس حاميةً لأسس الماضي، آخذةً بأسباب الحاضر، قادرةً على التّواصل مع المستقبل.

أمّا اشتراط الصّفاء اللغوي باعتماد مستوى واحد بعينه فهو من آراء اللغويين المتشدّدين فرضوه على النّحو والمعجم، دون أن يكونوا هم أنفسهم قادرين عن الدفاع عنه، فضلاً عن تكريسه في الحياة العامة. ولكنّ المعجم العربيّ يظلّ مع ذلك لا يَنْزِل من عليائه إلا قليلاً، فلم يتجرّأ حتى على أن يكون بجرأة معجم الجاحظ بما حواه من مولّد وعاميّ وأعجميّ، وما استقبح ممّا سمّاه توعّرًا، من فصيح مهجور، أو لغات عفى عليها الزمان، وليس لها من فضل إلا البداوة.. فشرح بعضه ودعا إلى تجاوز بعضه الآخر بسبب انتفاء الحاجة إليه.

وفي هذه الدراسة تحليل لهذه القضايا التي أثرنا بالاعتماد أساسًا على معجم استقيناه عشوائيًّا من مؤلفات الجاحظ، دون أن نجاوز به حدّ النّموذج الممثّل إلى الرصيد الشامل. فإن الحديث عن «معجم الجاحظ» عمل يجاوز حدود هذا البحث وأغراضه.

تمهيد

مثّل النشاط اللغوي في التجربة العربية القديمة مظهرًا مهمًّا من مظاهر ارتباط التطور الفكري بتطوّر الخطاب اللغوي بين ميدان المعرفة ونظام اللغة. ولّما كان التطور الفكري والحضاري في العربية قد قام في جزء منه على الاستفادة من تجارب الشعوب التي انتظمتها الحضارة الإسلامية بأبعادها الثقافية المتنوعة، فإنّ تطوّر العربية لم يكن كذلك ضربًا من النموّ الذاتي التلقائي، بل كان أيضًا شكلاً فنّيًّا قائمًا على توسيع متعمّد لبنية العربية قصد استيعاب نشاط اجتماعيّ ثقافيّ وإنتاج فكريّ علميّ وأدبيّ.

ولهذا لا نعتقد أنّ البحث في تطوّر العربية ممكن بمنأى عن قضايا المعجم العامة سواء في المستوى النظري أو التطبيقي مثل: المستويات اللغوية واستعمالها الفعلي.

في هذا الإطار أردنا معالجة نصوص من أهمّ مؤلفات الجاحظ (البخلاء والحيوان والبيان والرسائل) باعتبارها نموذجًا لعربية الاستعمال في عصر متقدم من تاريخ هذه اللغة في علاقتها بما جاورها من اللغات والثقافات، ففي ذلك تتجلّى وظيفة مزدوجة يكاد يختصّ بها الجاحظ: فهو من ناحية، عالم البيان العارف ببلاغة العرب وفصاحتها؛ وهو من ناحية ثانية، شاهد على عربية عصره يجتهد في تقديمها بلا أحكام معيارية، يستنطق المستعملين لها، وينقّب عنها في الأسواق والدكاكين لدى العرب والعجم، ولدى الباعة والحرفيّين والعامة، ولدى الأدباء والفقهاء والخاصة، ولدى المكدين واللّصوص وغيرهم من متكلمي العربية.. فهو بهذا العمل يقدّم لنا وصفًا يسعى إلى تصوير حركة الواقع اللغوي، والمشاركة فيه بالكشف عن

رصيد من العربية المسكوت عنها، ومن مظاهر التطور الشكلي والدلالي في حالة لغوية معيّنة.

من المعروف أنّ الاعتداد بلغة العامة، ومن ثمّ استعمالها في النصوص المكتوبة العلمية والأدبية كان يعتبر – إلى عهد الجاحظ– عملاً شخصيًّا مرفوضًا، ولم يسبق أن اعتمده عالم من علماء العربية البارزين بالشكل الذي اعتمده الجاحظ حتى تحوّلت مؤلّفاته إلى رمز من رموز هذه الحرية العباسية في شتّى مظاهر الحياة ومنها اللغة.

كان ذلك في زمن نُظر فيه إلى الذين صوّروا الجوع والبؤس ومظاهر التّكدية واللّصوصية.. وغيرها من شواهد الطبقات الفقيرة على أنّهم أدنى درجة من غيرهم، وسُمّوا لذلك بـ «أدباء النزعات الشعبية»؛ وهو نفس الزمن الذي اشتدّت فيه حركة لغوية رافضة لمظاهر التغيير اللغوي تعرف بحركة اللحن اللغوي، اعتدّت بالمستوى الفصيح وحده، وتجاهلت ما عداه وعدّته فسادًا في اللغة وندّدت به وبمن يستعمله.

لكنّ أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أعظم بلغاء العصر العباسي، وأكثر ناثريه تصنيفًا في علوم جمعت بين رواية أهل النقل ودراية أهل العقل، قد امتاز بتغليب الفكر فاختار الإبداع على التقليد، فأعلى من شأن العقل. وكان المعين الثرّ لهذا الاختيار موقفه من لغة الاستعمال. فقد احتفى بالعربية في أصالتها وكذلك في تطوّرها، فابتدع لغة كاشفة لواقع العربية الحديث بين المنوال والاستعمال، فكان حريصًا على خصائص بيانها، أمينًا على نقل حقائق المتكلّمين، وهم يسعون في

سبيل صنع حياتهم بإرادتهم الحرّة، المنفتحة على كل جديدٍ.

لقد أضاف الجاحظ إلى العربية بمقدار ما عبّر عن هذه الحيوية والجدّة، ولا يزيّف الواقعية التي تبدو عنده تثبيتًا للقيم الإنسانية في بيئته. تلك البيئة القائمة في مجتمعه العباسي على هوية شديدة التنوّع تنتظمها مبادئ مشتركة قائمة على تغليب العلوم والفنون بمفهومها الإنساني العام ، دون تعصب أو تحيز. فكانت أعماله تجسيدًا لحقيقة التنوع البشري في هذه البيئة العباسية.

وكان الجاحظ موسوعيًا أفاد من التطور العلمي وانفتاح العلماء على شتى المعارف التي انتقلت إلى اللسان العربي. فحفلت كتبه بما كان يعتمل داخل مجتمعه من تناقض وتسامح، فانعكس فيها التعدّد الإنساني الكوني والتعدّد الفكري والحرفي والطائفي والمذهبي.. فاستوقفته القيم والمبادئ والعادات والأخلاق.. حتى غاص في ثنايا النفس البشرية، فحلّل من خلال نماذج حيّة ما وسِعهُ ظواهرَ البخلِ والحسَد والعِشْق والهَزْل والجِدّ والخمْر والمُجون.. (قد ذكر بعضها في قوله: «قد ذكرنا كلامًا من كلام العقلاء البلغاء، ومذاهب من مذاهب الحكماء العلماء. وقد روينا نوادر من كلام الصبيان والمحَرَّمين من الأعراب، ونوادر كثيرة من كلام المجانين، وأهل المِرّة من الموسوسين، ومن كلام أهل الغفلة من النَّوْكى، وأصحاب التكلّف.. ولكلّ جنس من هذا موضع يصلح له..») [(1)].

ولذلك احتار الدّارسون في تصنيف كتاباته الفنيّة، كما أعيى اللغويين تتبّعُ مَذهَبِه اللغويّ، فهو تارةً ألْحَنُ من العامّة وطورًا أَفْصَحُ من خاصة الخاصة. تلك في

(١) البيان، ٢/ ٢٢٢.

الحقيقة صورة عن العلاقات اللغوية المتشابكة في عصره، والجاحظ لم يُخْف انشغاله بها في بيئة تعدّد إبداعها بتعدّد مكوناتها التي اتّسعت عناصرها، فلم تستثن في اختلافها وتعارض لوازمها، فصيحًا أو مولَّدًا أو عاميًّا أو أعجميًّا.

وهدفنا من هذا البحث هو إذن: الكشف من زاوية لغوية معجمية عن المظهر الحيويِّ لعربية الاستعمال في عصر الجاحظ. وهي عربية بيّن الجاحظ، من خلال آرائه اللغوية النظريّة، وكذلك من خلال مؤلَّفاته، مدى تباينها وتنوُّعها من فئة إلى أخرى..

لكن إذا كان النّظرُ في المصنّفات اللغوية يطلعنا على أنّ العمل اللغوي والمعجميّ العربي القديم كان في الأساس تثبيتًا لأركان الفصحى، فقد كانت كتب النحو والمعاجم وما رافقها وما سبقها من رسائل وكتب في اللحن والتصويب اللغوي ملتزمة بعصور الاحتجاج، تثبّت مادتها وتهمل المولدات الجديدة ناهيك عن الإشارة إلى استحداث أو تطوّر في الاستعمال.

غير أنّ ما شهده النصف الثاني من القرن الثاني، وخاصة القرن الثالث الهجريّ من نموّ فكريّ وثقافيّ واجتماعيّ كبير أظهر عسر الالتزام بعربية البدو الأقحاح، وأملى على المتكلمين والكتاب ضرورة التمييز بين المنوال والاستعمال.

ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا: إنّ الجاحظ كان بلا منازع أشدّ من يمثل هذا الوعي من بين كتاب عصره وحتى العصور اللاحقة. وفي هذا يقول يوهان فك: «أمّا أنّنا أوسعُ درايةً، إلى حدٍّ، بالعلاقات اللغوية لأواخر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، والنصف الأول من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بالقياس إلى

الأزمنة المتقدمة على ذلك، فهذا ما نحن مدينون به قبل كلّ شيء، لكتب الجاحظ (نحو ١٦٥ . ٢٥٥هـ). هذا الأديب المنتمي إلى البصرة، والناشئُ في مدرسة الاعتزال بهذه المدينة، وجّه ملاحظاتِه القويّة، وملكةَ انتباهه الرّاسخة، في أسلوبه الخصيب الأفكار المتعدّد النّواحي، إلى شتّى الظّواهر في الحياة اللغوية، وأفاض الكلام عن ذلك في بحوثه وكتبه التي صنّفها في مختلف الموضوعات، ولاسيما كتابه عن الفصاحة والبلاغة: البيان والتبيين.»[1].

لقد كان هذا الوعيُ بالتغيّر اللغويّ ظاهرًا بالخصوص في طريقة تخريج اللغة وفق طبيعة المتكلمين وبيئاتهم المتنوعة، فتخيّر الألفاظ حسب مستوياتهم اللغوية بين فصيح ومولد وأعجميّ وعاميّ... ذلك أنّ مجرّد استعراض جانب من نصوص الجاحظ يطلعنا على ظهور ألفاظ كثيرة لم تكن معروفة من قبل، إضافة إلى ألفاظ قد تغيّرت دلالاتها مع تطور العصر، ممّا يضطرّ الجاحظ أحيانًا إلى شرحها.

فما هي الأسس اللغوية التي تبنّاها الجاحظ وجعلته لا ينظر إلى الفصيح إلا على أنّه مجرّد مستوى من مستويات اللغة؟ وهل ينطوي هذا الموقف فعلاً على وعي بحقيقة التطور اللغوي أي إدراك الفعل التاريخي في اللغة؟

إذن نحن مطالبون في هذا العمل بالبحث في مظاهر هذه الرؤية اللغوية عند الجاحظ، ثم النظر في خلفيتها المذهبية. فإنّ ذلك إذا ما عولج بمنهج علميّ قد يفيد في فهم حركة التطور اللغويّ في العربية في القديم، وعواملها، وآليات نموّها، وقواعد تولّدها، بما يساعد على تبيّن أسس عمليّة لبناء معجم تاريخيّ للّغة العربيّة.

(١) فك : العربية، ١٢١.

فقد يفتح ذلك آفاقًا جديدة للوقوف على مجالات البحث في التطور اللغوي والدلالي في العربية، ومختلف التحوّلات التي تعتري الدّالّ أو المدلول أو كليهما معًا.

فقد بدا لنا أنّ تتبّع أغلب مؤلفات الجاحظ يمكّن الباحث من الحصول على قدر مهمّ من الإشارات والدلائل تساعد على بلورة تصوّر واضح لقضية التطوّر اللغوي ومظاهره عنده.

لهذه الأسباب نزعم أننا بحاجة إلى قراءة متأنية لكتابات الجاحظ واتّخاذها أصلاً من الأصول المعجمية لعربية العصر العباسي، إذ يبدو في ما ترك الجاحظ من آراء حول الوجهات التاريخية الاجتماعية واللغوية التي يمكن أن تسلكها المفردات في مراحل نموّها، ما يصلح للاعتقاد بأنّه كان صاحب نظرية لغوية في هذا المجال تتّصل خاصة بالمستويات اللغوية وعلاقاتها باحتياجات المتكلمين. فقد أولى الجاحظ المستويات اللغوية عناية كبرى تطبيقًا وتنظيرًا، وعالج حقيقة اللغة في ضوئها.

إنّ النظر في ما تنطوي عليه مؤلّفات الجاحظ من رصيد لغويّ محدث يكشف عن حقيقة هذه المستويات، وصلتها بالتطوّر اللغويّ في عصره، ذلك التّطور الذي آل إلى توليد مفردات لم تكن موجودة من قبل. فإنّ ارتباط الحياة الجاحظية بإيقاع البيئة العباسية وبنسيج المجتمع ذاته قد أكسب هذا المبحث واقعيّة وحيويّة.

والمهمّ هو تنبّهه إلى مبدأ التطور اللغوي. وهذه مسألة كانت مرفوضة في عصره. بل إنّه سعى أحيانًا إلى وضع تصوّر منهجيّ لآليات هذا التطور في العربية. فهاجسه لم يعد أمانة النّقل فحسب، بل الغوص في مظاهر هذا التطور بأبعاده المختلفة، ولذلك يبدو تصوّره اللغويُّ قائمًا على أساسين:

أ . مفهوم التطور اللغوي؛

ب . قيام اللغة على مستويات أربعة؛

١- التطور اللغوي:

نبّه الجاحظ إلى أنّ المعاني ليست مكشوفة مبسوطة، وأنّ فهمها يتطلب تحرّي الكلام من ناحية، ومقاصد المتكلّم من ناحية ثانية.. يقول: «واللغات إنّما تشتدّ وتعسر على المتكلّم بها على قدر جهله بأماكنها التي وضعت فيها، وعلى قدر كثرة العدد وقلّته، وعلى قدر مخارجها وخفّتها، وسلسها وثقلها، وتعقّدها في أنفسها.»(١). وهذا دليل على تنوّع المعاني وفق ظروف الخطاب. فيقول: «ومن الكلام كلام يذهب السامع منه إلى معاني أهله،..»(٢).

وإنّ الجاحظ يثبت هنا تمييزًا ضروريًا بين اللفظ والمعنى، فليس للفظ معنى ثابت لا يتغيّر، بل المعنى من عمل الذّهن بالاستعانة بظروف الخطاب. ويميّز بين مفهومي (اللفظ/ والمعنى)، فلا وجود لعلاقة منطقية أو طبيعية بينهما ويكشف عن حقيقة أصبحت في اللسانيات الحديثة من الأسس التي انبنى عليها مفهوم التطوّر في اللغات عامة، وهو مفهوم (المنتهي وغير المنتهي)، والمنتهي هو الألفاظ، وغير المنتهي هو التجارب الإنسانية أي المعاني. يقول الجاحظ: «اعلم أنّ حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ؛ لأنّ المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدّة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني

(١) الحيوان، ٥/٢٨٧.

(٢) البيان، ٢/ ٢٨١.

مقصورة معدودة ومحصّلة محدودة.» [1]. فكيف يمكن التعبير بالمنتهي عن غير المنتهي؟ أي كيف يمكن للألفاظ المحدودة أن تستوعب المعاني غير المحدودة لأنّ تجربة الجماعة اللغوية متواصلة؟ هذا ما يفسّر اعتباره المعاني كامنة لا تدرك إلا بالفكر، وهي إلى ذلك نامية لا تكاد تتوقف؛ بينما الألفاظ، من ناحية، محدودة مهما اتّسعت، وهو شرط استعمالها، ومن ناحية ثانية خاضعة لتحوّل المعاني باستمرار. يقول الجاحظ: «كان الأصمعيّ يقول: قد كان للعرب كلام على معان. فإذا ابتُدِلت تلك المعاني، لم تتكلم بذاك الكلام. فمن ذلك قول الناس اليوم: ساق إليها صداقها..» [2].

«.. ومنه قولهم: ساق إلى المرأة صداقها. قالوا: وإنّما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون في الصّداق إبلاً، وتلك الإبل يقال لها النافجة. وقال شاعرهم:

وليس تلادي من وراثة والدي ... ولا شاد مالي مُسْتفاد النّوافج

.. ومن ذلك أنّهم كانوا يضربون على العروس البناء، كالقبّة والخيمة والخيام، على قدر الإمكان، فيقال: بنى عليها، اشتقاقًا من البناء، ولا يقال ذلك اليوم..»[3].

هذه الإشارات عند الجاحظ مهمّة لأنّها تكشف خضوع اللفظ للمعنى وليس العكس، كما أنّها تفسّر قناعة الجاحظ بأهمية مبدأ التطور في نظريته اللغوية.

---

(١) البيان، ١/٧٦.

(٢) انظر البقية : البخلاء، ٢/ ١٨٠.

(٣) الحيوان، ١/٣٣٣- ٣٣٤.

لكن إذا كنّا نعتقد أنّ نظرة الجاحظ اللغوية ليست من قبيل المصادفة، وإنّما هي وليدة رؤية متكاملة، فما يطرح الآن هو ما هي مكوّنات هذه الرّؤية؟ هل جسّدها الجاحظ في مستوى التطبيق، أي الممارسة الإبداعية فقط؟ أم تجسّدت في تفكيره اللغوي أُسُسًا نظريّةً ومنهجية تبنّاها والتزم بها؟

مهما بالغنا في التّنظير اللّساني للرؤية اللغوية عند الجاحظ، فإنّ منطلقاتها تبقى اجتماعية لغوية. فإنّ الجاحظ لا يخفي انشغاله بنقل الواقع بمظهريْه الاجتماعي واللغويّ، ولهذا اتّسمت أعماله بنوع من الابتكار، يميّزه حرص على كشف حقائق البيئة، وهو ما تطلب جهدًا لغويًا كان ضروريًا لتبليغ هذه الرسالة. فإنّ ما ميّز الجاحظ باحثًا ولغويًا تَرْكه التقليد إلى الابتكار، فقد اختار الإبداع على التكرار، وانصرف عن التقليد إلى التجديد وأتى التجديد من باب العمق وأتى العمق من باب الواقعية اللغوية والأمانة العلمية. فالمسألة لا تعدو عنده البحث عن تصوّر لغويّ يستوعب لغة الاستعمال، ولكن مع فهم آليات ظهور المفردة وأسباب تمدّد إشعاعاتها الدلالية.

ويمكن أن نكتشف سعة رؤيته من خلال معالجاته النظرية والتطبيقية لنماذج من الوحدات المعجمية في مستوى البنية والدلالة. فربما تميّز الجاحظ عن جيله بانصرافه إلى تعليل ظواهر التطور اللغوي رغم اصطدامه بمفهومي الفصاحة واللحن.. فسوّغ عوامل ظهور بعض المفردات، وظروف تولّد أخرى، ووقف على نماذج من التطور الدلالي في عربية القرآن نفسه.. مستفيدًا من توظيف عوامل من خارج اللغة: تاريخية، اجتماعية..؛ وعوامل داخلية: اشتقاق، مجاز..

فإنّنا نجد في كتابات الجاحظ وعيًا بعدم استقرار العربية، بل إنّه في معالجتها يستند إلى عوامل التغيير المؤثّرة في الظواهر الاجتماعية عامة وهي صنفان: عوامل داخلية، وعوامل خارجية، كما سنرى.

١-١- العوامل الخارجية:

إنّ انتقال المجتمع العربي من بيئته البدوية وقيمه الإسلامية، إلى مفاهيم التمدّن والتّرف والمُجون والتلذّذ بأطايب الحياة، قد عمّق الطبقية داخل المجتمع العباسي المنقسم بطبيعته إلى طبقات وطوائف وفئات متباينة، وقد وجد كلّ ذلك أثره في تنوّع اللغة باعتبارها انعكاسًا للفكر. فإنّ هذا التباين قد ظهر في فارق ما بين عربية البدو أو العربية الفصيحة، واللغات الخاصة، أو اللهجات الاجتماعية(١).

فقد فرض على العربية لغة البدو، واقع من المدنية المستحدثة استدعتها حياة الاستقرار والقصور والثراء.. فتنوّعت أسماء الأطعمة والفواكه(٢)، وأدوات الموسيقا

---

(١) وتعرّف اللغة الخاصة بأنّها «لغة لا تستعملها إلا جماعات توجد في ظروف خاصة» (وافي، اللغة والمجتمع، ١٤٩). فإنّ المجموعات المختلفة اجتماعيًا تستعمل مفردات خاصة بها. وهي لذلك تعدّ خاصة بالنسبة إلى اللغة المشتركة. من هنا نلاحظ ظهور هذا النوع من اللغات في المجتمع العباسي لكن دون فصل تام بينها وبين اللغة الفصحى. وكان ظهورها في كتابات الجاحظ من أوضح مظاهر التأثر بالامتزاج الحضاري في المجتمع العباسي. (عن اللقاني، ص٣٠٤).

(٢) وقد كثرت الأصناف الفارسية في ألوان الأطعمة التي ذكرها الجاحظ في مؤلفاته. وفي البخلاء طائفة من أسماء هذه الأطعمة تعارف عليها المتكلمون وتداولوها بينهم وصقلتها ألسنتهم بالاستعمال حتى أصبحت جزءًا من عربية العصر.وقد قلّد العرب الأعاجمَ في أسباب الترف، وتأثّروا بالفرس. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: «أراد الحجاج أن يولم وليمة احتفالاً بختان ولده فاستحضر بعض الدهاقين ليسألهم عن ولائم الفرس» (المقدمة، ١٢٢).

وأصناف الملابس والحليّ وغيرها.. وأقبل العرب على تغيير مناهج عيشهم، فاستعاروا نظم الإدارة والحياة السياسية ومصطلحاتها من الفرس أساسًا، فقالوا: الوزير والديوان والبريد... كما كان لتطور الحياة الفكرية والثقافية والعلمية عوامل أهمّها تداخل الشعوب وثقافاتها. وقد بدا جميع ذلك جديدًا في حياتهم الاجتماعية؛ ثم في لغتهم المعبّرة عنها، بعد أن شقّ طريقه إلى العربية الحديثة بوسائل التوليد ومنها الاقتراض المباشر. فإنّ ما شهده هذا العصر من تطوّر فكريّ وحضاري قد ولّد ضربًا من الجرأة اللغوية أتاحت له الاستفادة: أولاً من طاقة اللغة التوليدية كالاشتقاق والمجاز لخلق ما يحتاج إليه من ألفاظ ومصطلحات؛ وثانيًا ممّا في اللغات الأخرى من أسماء ومصطلحات ليس لها في العربية مقابلات، من ذلك أسماء المأكل والملبس..

وقد عالج الجاحظ عددًا من مفردات العربية معالجة تاريخية واجتماعية تكشف جوانب من مواقفه اللغوية، وهي مواقف قائمة على اعتبار المفردة نتاج تقاطع اللغة مع التاريخ، فهي وثيقة الصلة بتجارب الناس معبّرة عن واقعهم وما يجدّ في هذا الواقع من أشياء ومفاهيم. فاللغة حينئذ جزء من تجارب الجماعة اللغوية نامية بنموها متطورة بتطورها، فلا مناص حينئذ من التوليد للتعبير عمّا لم يكن له اسم في لغتهم. وممّا ذكره الجاحظ في توليد ألفاظ ظهرت بظهور مفاهيمها، ألفاظ:

- (طفيليّ): «وقول الناس: فلان طفيليّ ليس من كلام العرب: ليس كالراشن واللُّعْموظ، وأهل مكّة يسمّونه البُرَقيّ. وكان بالكوفة رجل من بني عبد الله بن غطفان يسمّى طُفيلاً. كان أبعد الناس نُجعةً في طلب الولائم والأعراس. فقيل له لذلك: طفيل العرائس، وصار ذلك نبزًا له ولقبًا، لا يُعرف بغيره. فصار

كلّ من كانت تلك طِعْمَتَه يقال له: طفيليّ. هذا من قول أبي يقظان»[١].

– (التطيّر): «وأصل التطير إنما كان من جهة الطّيْر إذا مرّ بارحًا وسانحًا، أو رآه يتفلّى وينتتف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس، أو البهائم، أو الأغضب أو الأبتر، زجروا عند ذلك، وتطيروا عندها، كما تطيّروا من الطّير، إذ رأوها على تلك الحال. فكان زجر الطير هو الأصل ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك في كلّ شيء»[٢].

وللتّطيّر سمّت العرب المنهوش بالسّليم، والبريّة بالمفازة، وكنّوْا الأعمى أبا بصير، والأسود أبا البيضاء، وسموا الغراب بحاتم، إذا كان يحتم الزجر به على الأمور، فصار تطيُّرهم من القعيد والنّطيح ومن جرد الجراد ومن أنّ الجراد ذات ألوان، وجميع ذلك دون التطيُّر بالغراب. ولإيمان العرب بباب الطِّيرة عقدوا الرّتائم وعشَّروا، إذا دخلوا القُرى تعشيرَ الحمار.. [٣].

– (شوّال): «وسمعت أعرابيًّا يصف لسان رجل، فقال: «كان يشول بلسانه شَوَلانَ البَروق، ويتخلّل به تخلّل الحيّة». وأظنّ هذا الأعرابيّ أبا الوجيه العُكليّ.» ممّا يضطرّه إلى شرح بعض مفرداتها:

[يشول: يرفع. البَروق: الناقة إذا طلبت الفحل فإنّها حينئذ ترفع ذنبها. وإنّما سمّي شوّال شوّالاً لأنّ النّوق شالت بأذنابها فيه. فإن قال قائل: قد يتّفق أن يكون

(١) البخلاء، ١/١٤٠.

(٢) الحيوان، ٣/٥٦٥.

(٣) نفسه، ٣/٥٦٥-٥٦٦.

شوّال في وقت لا تشول الناقة بذنبها فيه، فلِمَ يبق هذا الاسم عليه..؟ قيل له إنّما جُعل هذا الاسم له سمة حيث اتّفق أن شالت النّوق بأذنابها فيه، فبقي عليه كالسمة، وكذلك رمضان إنّما سمّي لِرَمَض الماء فيه وهو شدّة الحرّ، فبقي عليه في البرد، وكذلك ربيع، إنّما سمّي لرعيهم الربيع فيه، وإن كان قد يتّفق هذا الاسم في وقت البرد والحرّ][1].

- (القواطع): «قال أبو زيد: إذا كان الشتاء قطعت إلينا الغربان، أي جاءت بلادنا، فهي قواطع إلينا. فإذا كان الصيف فهي رواجع، والطير التي تقيم بأرض، شتاءها وصيفها، أبدًا فهي الأوابد.»[2].

-(فلحس): «ويقال للكلب «فلْحَس» وهو من صفات الحرص والإلحاح. ويقال: «فلان أسأل من فلحس». وفلحس رجل من بني شيبان كان حريصًا رغيبًا وملحفًا ملحًّا. وكلّ طفيليّ فهو عندهم فلحس.»[3].

١-٢- العوامل الداخلية:

قال الجاحظ في باب (ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم): «فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية، وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخر؛ فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسّنّة، والشاهد والمثل؛ فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من

(١) البيان، ١/١٦٩.

(٢) الحيوان، ٣/٥٦٣.

(٣) نفسه، ١/٢٥٧.

أهل هذا الشّأْن، هلك وأهلك.»[١].

لذلك لم تغب عن نظرته اللغوية مسألة البحث في الأصول والاشتقاقات، والعلاقات الدلالية ومظاهر تحوّلها، وعوامل تعدّدها.. وتكشف معالجته اللغوية لنماذج من مفردات العربية عن مفهومه لمسألة الاتّساع اللغوي باعتماد قواعد اللغة الداخلية الشكلية كالاشتقاق؛ والدلالية كالمجاز.. وفي ذلك إقرار أيضًا بأحقية اللغة في التطور للتعبير عمّا يستجدّ في حياة المتكلمين من جديد. فهو القائل: «وإنّما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتّساع المعاني»[٢]. وتنقسم هذه المعالجة الداخلية إلى معالجة شكلية ومعالجة دلالية:

١-٢-١- المعالجة الشكلية:

ونعني بالمعالجة الشكلية البحث في ظهور مفردات جديدة بأبنيتها الصرفية المستقلة ودلالاتها الخاصة بها. ويكون ذلك في العربية بطرق: الاشتقاق والنحت والتركيب والمعجمة[٣].. وقد تحدّث الجاحظ عن عدد من هذه المفردات التي ظهرت في العربية، فذكر نماذج ممّا أحدثه الإسلام نفسه، فقال: «وأسماء حدثت ولم تكن، وإنّما اشتقت لهم من أسماء متقدّمة، على التشبيه..». وذلك في فصل بعنوان (كلمات إسلامية محدثة)[٤]. وقال: «فإذا كان العرب يشتقون كلامًا من كلامهم وأسماء من أسمائهم، واللغة عارية في أيديهم ممّن خلقهم ومكّنهم وألهمهم وعلّمهم،

(١) الحيوان، ١/١٥٣.

(٢) البيان، ١/١٤١.

(٣) انظر تفصيل ذلك في : ابن مراد: مسائل في المعجم، ص٤٧-٤٨.

(٤) الحيوان،١/٣٣٠-٣٣٤.

وكان ذلك منهم صوابًا عند جميع الناس»[1]. وقد استشهد على ذلك بأمثلة منها:

	المفردات	قاعدة تولّدها	دلالتها الجديدة	أصلها	دلالتها القديمة
١	منافق	اشتقاق/ مفاعل	الذي يظهر عكس ما يبطن	نافقاء اليربوع:حجرته	الالتواء
٢	كافر	اشتقاق/ فاعل	راءى بالإسلام	الكفر	السّتر والغطء
٣	مشرك	اشتقاق/ مُفْعِلٌ	الذي يجعل لله شريكًا	الشِّرْك	النّصيب
٤	استنجى	اشتقاق/ استفعل	غسل موطن النّجو	النّجو:الارتفاع	التغوّط
٥	تغوّط	اشتقاق/ تفعّل	تبرّز	الغائط	منخفض من الأرض
٦	اغتراب	اشتقاق/افتعال	الفراق	الغراب	رمز البيْن
٧	بانَ	اشتقاق/فَعَلَ	البعد	البانُ	شجر سَبْطُ القَوام ليِّنٌ
٨	تصريد	اشتقاق/مصدر تفعيل	الغربة	الصُّرَد	طائر يُتشاءم منه
٩	صومعة	اشتقاق/ فوْعَلَةٌ	صومعة الراهب لدقّة رأسها	أصمع	صغير الأذنين لاصقتين بالرأس

وهذا تأويل الجاحظ لهذا التطور الشكلي:

- (منافق/مشرك/كافر): «ومن المحدث المشتقّ، اسم منافق لمن راءى بالإسلام واستسرّ بالكفر، أُخذ ذلك من النّافقاء والقاصعاء والدامّاء (هي من أسماء حجرة

(١) الحيوان، ١/٣٣٥.

اليربوع)، ومثل المشرك والكافر»[1].

- (استنجى/ تغوّط): وذلك أنّ الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجة تستّر بنجوة. والنّجو : الارتفاع من الأرض. قالوا من ذلك: ذهب ينجو، كما قالوا : ذهب يتغوّط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر، ثم اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النّجو قد استنجى[2].

نلاحظ أنّ الجاحظ قد أطلق صفتي (محدث، بمعنى مولّد حديثًا في العربية؛ ومشتقّ، إشارة إلى قاعدة الاشتقاق الصرفي) على ألفاظ جاء بها الإسلام منها: (منافق، مشرك، كافر، استنجى، تغوّط..)، لكنّ هذه المشتقّات مع كونها مأخوذةً من ألفاظٍ قديمة ذات دلالات أخرى، فإنّ الاستعمال القديم لم يحتج إلى توليد هذه الصفات (منافق، مشرك، كافر..)؛ ولا تلك الأفعال (استنجى، تغوّط، نافَقَ، أشركَ..) إلا بمجيء الإسلام فأظهرها بأبنيتها الصرفية الجديدة ومعانيها التي أحدثها فيها. فأدّت بذلك وظائف تاريخية دلّت على استجابة العربية لظروف الاستعمال أبنيةً ودلالاتٍ..

كما تحدّث عن نماذج ممّا حدث في المصادر الفصيحة الأخرى شعرًا ونثرًا، فبيّن أهمية الاشتقاق خاصة في فهم حركة التطور اللغوي. فإنّ الجاحظ لم ينظر إلى العربية الفصيحة على أنّها مرحلةٌ واحدة، بل اعتبرها مراحلَ متّصلة من التطور اللغوي بقواعد يسمح بها نظام اللغة. فيقول:

(١) الحيوان، ١/٣٣٢.

(٢) نفسه، ١/٣٣٢-٣٣٣.

– (اغتراب/ بانَ): ويدلّ على أنّهم يشتقون من اسم الشيء الذي يعاينون، ويسمعون، قول بشار بن المضرب:

«تغنّى الطائران ببَين ليلى   على غصنيْن من غَرْبٍ وبانِ

فكان البانُ أن بانت سليمى   وفي الغرْب اغتراب غيرُ دانِ»

فاشتقّ كما ترى الاغترابَ من الغرْب، والبينونة من البَانِ[1].

– (تصريد): ويشتقّ من الصّرد: التّصريد... على ذلك قوله:

دعا صرد يومًا على غصن شوحط   وصاح بذات البين فيها غرابها

فقلت أتصْريد وبيْنٌ وغُرْبَـ . . . ـةٌ   فهذا لعمري نَأْيُها واغْتِرابُها[2]

– (أصمع): ويقال للرّجل إذا كان صغير الأذنين لاصقتين بالرأس: أصمع، والمرأة صمْعاء.. وصوْمعة الرّاهب منه، أنّها دقيقة الرأس، وفلان أصْمَعُ القلب إذا كان ذكيًّا حديدًا.. وقال الشاعر:

وبيض أفقنا بالضحى من متونها   سماوة بيض بالخباء المقوض[3]

يبدو أنّ الجاحظ يميل إلى صهْر الجذور في عائلات اشتقاقية واحدة، فنراه يجمع مثلاً بين (غُراب) ومشتقّات الجذر (غرب)، كالاغتراب والغربة وأغرب.. يقول: «وجرى بينهم الغراب لأنّه غريب..»[4]. ثم يستشهد ببيت لحاتم بن عدي:

(١) الحيوان، ٣/٥٦٥-٥٦٦.

(٢) نفسه، ٣/٥٦٤.

(٣) نفسه، ٤/١٣٢. ١٣٣.

(٤) نفسه، ٣/٦٥٦.

«وليس بهيّاب إذا شدّ رحله يقول عداني اليوم واقٍ وحاتم»

ويعلّق: «فحاتم هو الغراب، والواقي هو الصّرد، كأنّه يرى أنّ الزجر بالغراب إذا اشتق عن اسمه الغرابة، والاغتراب، والغريب، فإنّ ذلك حتْمٌ..» (١).

ويقول: «والغراب كثير المعاني في هذا الباب، فهو المقدَّم في الشُّؤْم.. ولكنّ الأعرابيَّ إن شاء اشتقَّ من الكلمة، وتوهّم فيها الخير، وإن شاء اشتقّ منها الشرّ، وكلّ كلمة تحتمل وجودها.» (٢). وقد طبّق نفس المفهوم على موادَّ أخرى منها (الصُّرَد) وهو طائر يُتشاءم منه، ولذلك عدّ التّصريد مصدر (تفعيل) مشتقًا من (الصُّرد) بمعنى جديد يفيد ما يفيده (الصُّرد) من معاني الفراق والبين..

وقد أغرى هذا البحث أبا عثمان فتوسّع في هذا الباب، وعمّمه على نماذج كثيرة مماثلة منها: (الحَمام والحِمام، والحميم والحمّى؛ والبان، والبين والبيان..)

«وقالوا حمامات فحمّ لقاؤها وطلح فزيرت والمطيّ طليح

..قالوا فهو إذا شاء جعل الحَمام من الحِمام، والحَميم والحُمّى، وإن شاء قال: وقالوا: حمامات فحُمَّ لقاؤها، وإذا شاء اشتقّ البيْن من البَانِ، وإذا شاء اشتقَّ منه البَيان»(٣).

لكنّ الجاحظ ينبّه إلى أنّ مسألة التوليد الشكليّ بالقياس ليست عمليّة آليّة فللعربية خصائصها التي تتحكّم في بنيتها. ومنها خصائصُ التأنيث والتذكير

---

(١) الحيوان، ٥٦٤/٣.

(٢) نفسه، ٥٦٧/٣.

(٣) نفسه، ٥٦٧/٣-٥٦٨.

والجموع.. يقول: «.. ويقال: بعيرٌ وناقةٌ وجملٌ، ولا يقال: جملة، ولا بعيرة.. ويقال من الأرانب: أرنب، ولا يقال: أرنبة. والذّكر خزَر. ويقال للأنثى: عِكْرِشَةٌ، ولولدها: خَرْنَقٌ. ويقال: هذه أرنب، وهذه عُقاب، ولا يقال: هذا الأرنب، ولا هذا العقاب..»[1].

١-٢-٢- المعالجة الدلالية:

ونعني بالمعالجة الدلالية البحث في ظهور دلالات جديدة في اللغة تحملها دوالٌّ قديمة موجودة فيها. ويكون ذلك بالمجاز المرسل والاستعارة والكناية. فتنتقل بموجب ذلك دلالات كلمات من مجال دلاليّ إلى آخر أو تضيّق دلالتها أو تعمّم، أو تنتقل من المحسوس إلى المجرّد أو العكس..[2].

وقد ذكر الجاحظ أمثلة تكشف وعيه بقضايا التطور الدلالي بهذه الوسائل. و لم يبد في كشفه اتّجاه نحو المنع أو اعتبار التغيّر الدلالي ضربًا من اللحن أو خروجًا عن سنن العرب في كلامها. كما كان يقول في كتاب اللحن. ومن أمثلة ذلك ذكر الجاحظ:

	المفردة	الدلالة القديمة	الدلالة الحديثة	قاعدة التغير الدلالي
١	التيمّم	التحرّي والتوخّي	مسح الوجه واليدين	لكثرة المعاشرة والالتباس
٢	العذرة	فناء المنـ ـزل	الفضلات والزّبل	المجاز/ علاقة المكانية
٣	الراوية	الجمل حامل المزادة	حامل الشعر والحديث..	استعارة/علاقة مشابهة

(١) الحيوان، ٣/٣٥٧-٣٥٨.

(٢) انظر تفصيل ذلك في : ابن مراد: مسائل في المعجم، ص (٤٨- ٥٠).

	المفردة	الدلالة القديمة	الدلالة الحديثة	قاعدة التغير الدلالي
٤	الصرورة	أعلى مراتب العبادة	الذي لم يحجّ	نقل مجال الدلالة
٥	قحبت	سعلت	البغيّ المكتسبة بالفجور	الكناية
٦	الجود	ما كان من الله	ما كان من الإنسان	مجاز/ تعميم الدلالة
٧	نُزُل	المترل وما يهيّأ للضيف	العذاب	استعارة
٨	الفرّوج	ما يخرج من بيض الدجاج	ما يخرج من جميع البيض	مجاز/ تعميم الدلالة
٩	المرحاض	المغتسل	مكان قضاء الحاجة	كناية

وهذا تأويل الجاحظ لهذا التحوّل الدلالي:

- (التيمّم): «قال تعالى : ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (المائدة: من الآية٦) أي تحرّوا ذلك وتوخّوْه. وقال: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ (المائدة: من الآية٦). ويعلق الجاحظ: «فكثر هذا في الكلام حتى صار التيمّم هو المسح نفسه». ثمّ يضيف: «وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالت صحبتهم وملابستهم له»[(١)].

- (الغائط): يقول الجاحظ: «وكما سمّوا رجيع الإنسان الغائط، وإنّما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة للسّتر»[(٢)].

- (العَذِرة): «ومنه العذِرة، وإنّما العذرة الفِناء، والأفنية هي العذرات، ولكن لّما طال إلقاؤهم النّجو والزّبل في أفنيتهم، سمّيت تلك الأشياء التي رموا بها باسم

(١) الحيوان، ٣٣٢/١.

(٢) نفسه، ٣٣٢/١.

المكان الذي رميت به. وفي الحديث: «أَنْقُوا عَذِراتكم».. ولكنّهم لكثرة ما كانوا يلقون نجوهم في أفنيتهم سموها باسمها»[1].

– (الملّة): «ومن هذا الباب المَلّة، والملّة موضع الخبزة، فسمّوا الخبزة باسم موضعها. وهذا عند الأصمعيّ خطأ (وهنا ملاحظة الجاحظ هامة، فليس هذا رأيه)»[2].

– (الرّاوية): «ومن هذا الشكل الرّاوية، والراوية هو الجمل نفسه، وهو حامل المزادة، فسمّيت المزادة باسم حامل المزادة. ولهذا المعنى سمّوْا حامل الشّعر والحديث راوية»[3].

– (صرورة): «ومن الأسماء المحدثة التي قامت مقام الأسماء الجاهلية، قولهم في الإسلام لمن لم يحجّ: صرورة. وأنت إذا قرأت أشعار الجاهلية وجدتهم قد وضعوا هذا الاسم على خلاف هذا الموضع. قال ابن مقروم الضبّي:

لو أنّها عرضت لأشمط راهب عبد الإله صرورةٍ متبتّل

لَرَنَا لبهجتها وحسن حديثها ولهمّ من تاموره يتنزّل

والصرورة عندهم إذن كان أرفع الناس في مراتب العبادة، وهو اليوم اسم للذي لم يحجّ إمّا لعجز، وإمّا لتضييع وإمّا لإنكار. فهما مختلفان كما ترى»[4].

---

(١) الحيوان، ١/٣٣٢.

(٢) نفسه، ١/٣٣٣.

(٣) نفسه، ١/٣٣٣.

(٤) نفسه، ١/٣٤٧.

– (قحبت): «ومن ذلك قولهم في البغيّ المكتسبة بالفجور قحبة، وإنّما القُحاب السّعال. وكانوا إذا أرادوا الكناية عن مَن زَنَتْ وتكسّبت بالزّنا، قالوا قحبت أي سعلت، كناية، وقال الشاعر:

«إنّ السّعال هو القُحاب،»

وقال:

«وإذا ما قحبت واحدة جاوب المبعِد منها فخَضَف»[1]

– (الجود): «فلاسم الجود عندهم موضعان: أحدهما حقيقة والآخر مجاز. فالحقيقة ما كان من الله، والمجاز المشتق من هذا الاسم.. فإذا لم تكن العطية من الله ولا لله، فليس يجوز هذا فيما سمّوه جودًا، فما ظنّك بما سمّوْه سرفًا؟»[2]. فقد قسم الجود قسمين: جودًا حقيقيًا، وهو ما كان صادرًا عن الله؛ وجودًا مجازيًا، وهو ما كان مشتقًا أو متفرعًا عن جود الله، أي آتيًا عن طريق الإنسان.

– (نزل): «وقال الله عزّ وجلّ: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الواقعة:٥٦). والعذاب لا يكون نزلاً، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النّعيم لغيرهم، سمّي باسمه»[3].

– (الفرخ / الفَرّوج): «وكلّ بيضة في الأرض فإنّ اسم الذي فيها والذي يخرج منها فرخ، إلا بيض الدجاج، فإنّه يسمى فرّوجًا، ولا يسمّى فرخًا. إلا أنّ

---

(١) الحيوان، ٣٣٤/١.

(٢) البخلاء، ١٢٣/٢.

(٣) البيان، ١٥٣/١.

الشعراء يجعلون الفرّوج فرخًا على التوسّع في الكلام، ويجوّزون في الشعر أشياء لا يجوّزونها في غير الشعر»(١).

– (المرحاض): «ويقال لموضع الغائط: الخلاء والمخرج والمرحاض والمرفق.. وكلّ ذلك كناية واشتقاق. وهذا أيضًا يدلّك على شدّة هربهم من الدناءة والفسولة والفحش..»(٢).

وقد تتحول هذه الآراء أحيانًا إلى ما يشبه دراسة معجمية لجوانب من العلاقات الدلالية، فدرس جوانب منه كالترادف والاشتراك والأضداد.. ويمكن أن نورد نماذج منها:

١-٢-٢-١-الترادف:

يقدّم الجاحظ نماذج من المترادفات أسماءً وأفعالاً، مع بيان مجالات استعمالاتها نذكر منها مثلاً:

المفردة	المرادف
نزا ينـزو: فعل يطلق على عملية سفاد ذوات الحافر	قعا: يقعو قعوًا: فعل السفاد يطلق على الظليم؛ وقاع يقعو قعيًا: يسوون فيه فعل السفاد بين الظليم وبين البعير
الزاجل: ماء الظليم	القُراض: ماء الفحل
القطيع: من نعام = الرعلة: من نعام	السرب: من الظباء؛ الأجل: من الظلف

(١) الحيوان، ٢٠٠/١.

(٢) نفسه، ٢٨٨/٥.

المفردة		المرادف		
الكلب	الضراء:الأحرارللصيد/السلوقية	الخلاسية: الهجن	الرّعاء: الزينيّ	الكرادة: الكردي
الجنّيّ	شيطان: إذا تعدّى وأفسد	مارد: إذا قوي على البنيان والحمل الثقيل	عفريت: إن زاد	عبقريّ: إن زاد
شجاع: إن حارب وأقدم		بطل: إن زاد	بُهْمة: إن زاد	أليس: إن زاد

وهذا تفسيره لذلك:

– ويقال في الحافر: نزا ينـ ـزو، وأمّا الظَّليم: قعا يقعو، مثل البعير. يقال: قاعَ يَقُوعُ قعْيًا وقِياعًا، وقَعَا يَقْعو قَعْوًا، فهذا ما يسوُّون فيه بينه وبين البعير. ويقال خُفّ البعير، والجمع أخفاف، ومَنْسِم البعير والجمع مَناسِم، وكذلك يقال للنَّعامة... قال: والزَّاجِل ماء الظليم، وهو كالقُراض من ماء الفَحْل... قال: ويقال لولد النَّعام الرَّأْل، والجمع رِئالٌ ورِئْلان وحَفَّان وحفَّانَةٌ للواحدة، والجمع حَفَانٍ.[1] ..

– ويقال: قطيع من نَعام، ورِعْلَة من نعام. وقال الأصمعيُّ: الرِّعلة: القطعة من النّعام، والسِّرْب من الظِّباء، والأَجَل من الظِّلَف... [2].

– أصناف الكلاب: «ما كان منها للصيد فهي الضِّراء، وواحدها ضِرْوَة، وهي الجوارح والكواسِب، ونحن لا نعرفها إلا السَّلوقِيَّة؛ وهي من أحرار الكلاب وعِتاقِها، والخُلاسيَّة هُجُنُها ومَقاريفُها. وكلاب الرِّعاء من زِينِيِّها وكُرْدِيِّها فهي

(١) الحيوان، ٤/١٣٢ .١٣٣.

(٢) نفسه، ٤/١٣٢ .١٣٣.

كَرادتُها»[1].

- «.. الجنّيّ إذا كفر وظلم وتعدّى وأفسد، قيل: شيطان؛ وإن قويَ على البُنْيان والحِمْل الثقيل، وعلى استراق السَّمْع، قيل: مَارِد، فإن زاد فهو عِفْريت، فإن زاد فهو عَبْقَرِيٌّ. كما أنّ الرّجل إذا قاتل في الحرب وأقدم ولم يُحجم فهو الشجاع، فإن زاد فهو البطل، فإن زاد قالوا: بُهْمة، فإن زاد قالوا: ألْيَس. فهذا قول أبي عبيدة.»[2].

١-٢-٢-٢- الحقول الدلالية:

كما اعتنى الجاحظ بمسألة الحقول الدلالية، فصنّف عددًا من الحقول حسب مقاييس معيّنة، وسنذكر منها على سبيل المثال:

أ- أسماء الطعام في كتاب البخلاء حسب: ١- المناسبة، و٢- اللحم المعدّ به الطعام، و٣- طبيعة الدعوة، و٤- المستهلكين، كما يلي:

	اسم الطعام حسب:	المناسبة	نوع اللحم	طبيعة الدعوة	نوع المستهلك	تعريف الطعام
١	مأدبة	دعوة عامة				اسم لكلّ طعام دُعيت إليه الجماعات..
٢	وليمة	العرس				العرس هو الوليمة
٣	خُرْس	الولادة				يتّخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء. مأخوذ من الخُرْسة. والخرسة طعام النُّفساء..

(١) الحيوان، ٣١١/١.

(٢) نفسه، ٢٩١/١.

	اسم الطعام حسب:	المناسبة	نوع اللحم	طبيعة الدعوة	نوع المستهلك	تعريف الطعام
٤	إعذار	الختان				يقال: صبيّ معذور، وصبيّ مُعْذَرٌ جميعًا.
٥	وكيرة	البناء				كان الرجل يطعم من بنى له. وإذا فرغ من بنائه تبرّك بإطعام أصحابه ودعائهم.
٦	نقيعة		الإبل			يسمون ما ينحرون من الإبل والجُزُر من عُرض المَغْنَم النقيعة..
٧	عقيقة		الكبش			دعوة على لحم الكبش الذي يُعَقّ عن الصبيّ
٨	نقوى			منتقاة		الذي ينتقي فيه صاحب الدعوة إلى الطعام بعض الناس دون البعض الآخر. وهو المذموم.
٩	جفلى			عامة		وهو أن يدعو صاحب الوليمة جميع الحاضرين فيجعلهم جُفْلَةً واحدة. وهو الممدوح.
١٠	الفثّ				١- طعام المجاوع واللئام والفقراء..	نبت يُختبز حبّه ويؤكل في الجدب.
١١	الدّعاع				-	حبّة سوداء يأكلها فقراء البادية، إذا أجدبوا.

	اسم الطعام حسب:	المناسبة	نوع اللحم	طبيعة الدعوة	نوع المستهلك	تعريف الطعام
١٢	الهبيد				–	الحنظل يكسر ويستخرج حبّه، وينقع لتذهب مرارته، ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة.
١٣	القُرامة				–	نحاتة القرون والأضلاف والمناسم وبرادتها.
١٤	القُرّة				–	الدقيق المختلط بالشعر.
١٥	العُسوم				–	جمع عسم: وهو الخبز اليابس.
١٦	مُنْقَع				–	ثمرة العِضاه .
١٧	قصيد				–	القصد: اللحم اليابس.
١٨	قدّ				–	جلد السخلة. كانوا يأكلونه في الجدب.
١٩	علهز				–	القردان ترضّ وتعجن بالدم.
٢٠	الخزيرة				٢- طعام قبيلة مُشاجع	وهي التي تُعاب بها مشاجع ابن دارِم. وهي أن تُصفى بلالة النخالة ثم تطبخ.
٢١	السخينة				طعام قبيلة قريش	وهي التي تُعاب بها قريش. وهي دقيق يُلقى على ماء أو على لبن فيطبخ، ثم يؤكل بتمر

نلاحظ تصنيفه الطعام حسب المناسبات إلى خمسة أصناف هي: «.. العُرس والخُرس والإعذار، والوكيرة، والمأدبة..» [(١)]:

١- المأدبة: والمأدبة اسم لكلّ طعام دُعيت إليه الجماعات..

٢- الوليمة: وقد زعم ناس أنّ العرس هو الوليمة، لقول النبيّ ﷺ لعبد الرحمن: أَوْلِمْ ولو بشاة. وكان ابن عوف والأصمعي.. يجعلان طعام الإملاك والإعراس والسبوع والختان وليمةً [(٢)].

٣- العرس: معروف. إلا أنّ المفضّل الضبي زعم أنّ هذا الاسم مأخوذ من قولهم: لا عطرَ بعد عروس. وكان الأصمعي يجعل العروس رجلاً بعينه كان بنى على أهله فلم تتعطّر له. فسُمّي بعدُ لذلك كلّ بانٍ على أهله بذلك الاسم. ومثل هذا لا يُثبت إلا بأن يستفيض في الشعر، ويظهر في الخبر [(٣)].

٤- أما الخُرْسُ: فالطعام الذي يتّخذ صبيحة الولادة للرجال والنساء. وزعموا أنّ أصل ذلك مأخوذ من الخُرْسة. والخرسة طعام النُّفساء.. والخَروسُ هي صاحبة الخُرْسة.

٥- الإعذار: طعام الختان [(٤)] .. يقال: صبيّ معذور، وصبيّ مُعْذَرٌ جميعًا. وقال بعض أصحاب النبيّ ﷺ، وهو يريد تقاربهم في الأسنان: كنّا إِعْذَارَ عامٍ واحد..

---

(١) الحيوان، ١٧٧/٢- ١٨٠.

(٢) البخلاء، ١٧٨/٢.

(٣) نفسه، ١٧٨/٢.

(٤) نفسه، ١٧٩/٢.

فزعموا أنّهم سمُّوا طعام الإعذار بالإعذار، للملابسة والمجاورة..

٦- الوكيرة: وهو طعام البناء. كان الرجل يطعم من بنى له. وإذا فرغ من بنائه تبرّك بإطعام أصحابه ودعائهم. ولهذا قال قائلهم:

خير طعامٍ شهد العشيرة العرس والإعذار والوكيرة[١]

ثم يصنفه حسب نوع اللحم المعدّ به إلى ضربين:

١- النّقيعة: «ويسمون ما ينحرون من الإبل والجُزُر من عُرض المَغْنَم النقيعة..» [٢].

٢- العقيقة: «دعوة على لحم الكبش الذي يُعَقّ عن الصبيّ. والعقيقة اسم للشَّعر نفسه. والأشعار هي العقائق. وقولهم: عقّوا عنه، أي أحلقوا عقيقته. ويقولون: عُقَّ عنه، وعُقَّ عليه. فسمي الكبش – لقرب الجوار وسبب المتلبّس- عقيقة. ثم سموا ذلك الطعام باسم الكبش..» [٣].

وتصنيفه حسب نوع الدعوة إليه إلى ضربين:

١- النّقرى: «فأمّا الدعاء إلى هذه الأصناف، فمنه المذموم، وهو النّقرى[٤]»، أي الذي ينتقي فيه صاحب الدعوة إلى الطعام بعض الناس دون البعض الآخر؛

٢- ومنه الممدوح، وهو الجَفَلى. وهو أن يدعو صاحب الوليمة جميع

---

(١) البخلاء، ٢/١٧٧.

(٢) نفسه، ٢/ ١٨١.

(٣) نفسه، ٢/ ١٨١.

(٤) نفسه، ٢/ ١٨١. في تحقيق طه الحاجري ص١٩٧.

الحاضرين فيجعلهم جُفْلةً واحدة، أي مجتمعين[1].

وتصنيفه حسب المستهلكين إلى ضربين:

١- أحدهما: طعام المجاوع والحُطَمات والضّرائك، والسباريت، واللئام والجبناء والفقراء والضعفاء. ويذكر منه عشرة أصناف بحسب مكوناتها وهذه الأصناف العشرة هي:

* الفَثُّ: شرحها المحققان: الفثّ: نبت يُختبز حبّه ويؤكل في الجدب[2]؛

* الدُّعاع: شرحها المحققان: الدّعاع: حبّة سوداء يأكلها فقراء البادية، إذا أجدبوا[3]؛

* الهَبيد: شرحها المحققان: الهبيد: الحنظل يكسر ويستخرج حبّه، وينقع لتذهب مرارته، ويتّخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة[4]؛

* القُرامَة: شرحها الجاحظ: «والقُرامة نحاتة القرون والأضلاف والمناسم وبرادتها»[5]؛

* القُرَّة: شرحها الجاحظ: القرّة: الدقيق المختلط بالشعر[6]؛

(١) البخلاء، ٢/ ١٨١-١٨٢.

(٢) نفسه، ٢/ ١٨٣.

(٣) نفسه، ٢/ ١٨٣.

(٤) نفسه، ٢/ ١٨٣.

(٥) نفسه، ٢/ ١٨٥.

(٦) نفسه، ٢/ ١٨٥.

* العُسوم: شرحها المحققان: جمع عسم: وهو الخبز اليابس[1]؛

* مُنْقَع البَرَم: شرحها المحققان: البرم: جمع برمة: وهي ثمرة العِضاه (كلّ شجر له شوك)[2] ؛

* القَصِيد: شرحها المحققان: القصد: اللحم اليابس[3] ؛

* القِدّ: شرحها المحققان: جلد السخلة. كانوا يأكلون جلد السخلة في الجدب، والسخلة: أولاد الضأن والمعز ساعة تولد[4]؛

* العلهز: شرحها الجاحظ: «العلهز: القردان ترضّ وتعجن بالدم.»[5]؛

٢- وثانيهما: طعام مشاجع وقريش :

* الخزيرة: «والخزيرة التي تُعاب بها مشاجع بن دارم. وقد شرح المحققان (الخزيرة)، بأنها مرقة، وهي أن تُصفى بلالة النخالة ثم تطبخ»[6]؛

---

(١) البخلاء، ٢/ ١٨٣.

(٢) نفسه، ١٨٣/٢.

(٣) نفسه، ٢/ ١٨٣.

(٤) نفسه، ١٨٣/٢.

(٥) نفسه، ٢/ ١٨٥. يقول الجاحظ: «وكانوا إذا خافوا الجدب والأزمة تقدموا في عمل العلهز، والعلهز: قردان تعالج بدم الفصد مع شيء من وبر، فيدّخرون ذلك كما يدّخرون حافر الحمار، والأكارع والجاورس. والشعوبية تهجو العرب بأكل العلهز والعب والزعاع والهبيد والبرير وأشباه ذلك..» (الحيوان، ٣٣٧/٥).

(٦) البخلاء، ٢٠٩/٢. أخطأ المحققان في الشرح، ففي اللسان: اللحم يقطع ثم يطبخ بالماء والملح وقيل: مرقة تُصفى بلالة النخالة ثم تطبخ. (المصحح).

* السخينة: « السخينة التي تُعاب بها قريش. وقد شرح المحققان (السخينة) بأنها دقيق يُلقى على ماء أو على لبن فيطبخ، ثم يؤكل بتمر.»[1].

وتكشف عناية الجاحظ بهذه المسألة الدلالية موقفه من الترادف فهو راجع في نظره إلى عوامل لغوية وأخرى اجتماعية. ولذا رأى من الضروريّ أن يكشف حقيقة هذه المسميات لتتّضح خصائص كل منها واتّصاله بمعطيات تميزه عن غيره. وهو ما ينطبق كذلك على ظاهرة الاشتراك. فهي عنده ليست طبيعية في اللغة وإنّما هي متولّدة عن اختلافات فكرية ومذهبية واجتماعية هي التي تحكمت في توسيع المجال الدلالي إلى ما أصبح يعرف بالمشترك.

ب- أسماء العنـز حسب مراحل العمر، كما يلي:

الاسم	مرحلة العمر
١. سليل:	إذا وضعت العنـز ما في بطنها،
٢. مليط:	إذا وضعت العنـز ما في بطنها،
٣. البهمة:	لا يزال كذلك اسمه ما رضع اللبن،
٤. جفر:	إذا بلغ أربعة أشهر وفصل عن أمّه وأكل من البقل واجترّ،
٥. عريض:	إذا رعى وقوي وأتى عليه حول،
٦. العتود:	نحو منه،
٧. جدي:	وهو في ذلك جدي،
٨. تلو:	إذا تبع أمّه وفطم ،
٩. إمَّر:	ويقال للجدي: إمَّر،

(١) البخلاء، ٢/٢٠٩.

الاسم	مرحلة العمر
١٠. هلع:	ويقال للجدي: هلع،
١١. تيس:	فإذا أتى عليه الحول،
١٢. جذع:	في السنة الثانية،
١٣. ثنيّ:	في السنة الثالثة،
١٤. رباعيّ:	في السنة الرابعة،
١٥. سديس:	ثم يكون سديسًا،
١٦. ضالع:	والضالع بمنزلة البازل من الإبل، والقارح من الخيل.. وليس بعد الضالع شيء.

وهذا تبريره لذلك:

«إذا وضعت العنز ما في بطنها قيل: سليل ومليط..، فلا يزال كذلك اسمه ما رضع اللبن، ثم هي البهمة للذكر والأنثى وجمعها بهم..، وإذا بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمّهاتها وأكلت من البقل واجترّت، فما كان من أولاد المعز فهو جفر، والأنثى جفرة، والجمع جفار،.. فإذا رعى وقوي وأتى عليه حول فهو: عريض، وجمعها عِرضان، والعتود نحو منه، وجمعه: أعتدة وعتدان.. وهو في ذلك جدي، والأنثى: عناق.. ويقال إذا تبع أمّه وفطم تلو، والأنثى تلوة، لأنّه يتلو أمّه. ويقال للجدي: إمَّر، وللأنثى أمَّرة، وهلع وهلعة، .. فإذا أتى عليه الحول، فالذكر تيس، والأنثى عنزة، ثم يكون جذعًا في السنة الثانية، والأنثى جذعة، ثم ثنيًّا في الثالثة، والأنثى ثنية، و ثم يكون رباعيًا في الرابعة والأنثى رباعية، ثم يكون سديسًا والأنثى سديس أيضًا، ثم ضالعًا والأنثى كذلك، والضالع بمنزلة البازل من الإبل، والقارح

من الخيل.. وليس بعد الضالع شيء»[1].

١-٢-٢-٣- الاشتراك الدلالي:

يتحدث الجاحظ عن ظاهرة لغوية معروفة في العربية، تتمثل في إطلاق اسم قديم على مسمّى آخر أو أكثر على سبيل التجوّز، وقد تظلّ هذه الأسماء قائمة في الاستعمال، وقد يشيع بعضها أكثر ويذوي بعضها الآخر أو يندثر تمامًا. لكنّه ينبهّنا إلى أنّ ذلك لا يعني تساوي هذه الأسماء في الدّلالة. وهذا دليل على موقفه من هذه الظاهرة اللغوية. فهو يعدّ المجاز من العوامل الرئيسية في انتشارها. فيقول: «وهذا الباب كثير، وقد ذكرناه في كتاب الاسم والحكم. وقد يشبه الاسم الاسمَ في صورة تقطيع الصوت، وفي الخطّ والقرطاس، وإن اختلفت أماكنه ودلائله. فإذا كان كذلك فإنّما يُعرف فضله بالمتكلمين به، وبالحالات والمقالات، وبالذين عُنُوا بالكلام. وهذه جملة وتفسيرها طويل»[2]. ومن الأمثلة التي ذكرها الجاحظ نورد:

- (النّسك)[3].. لكنّنا نلاحظ أنّ الجاحظ قد حوّل كلمة «النّسك» إلى مركّب إضافي لتيسير تصنيف دلالاتها حسب من يتعاطاه مذهبيًا واجتماعيًا وفكريًا..

ويكشف الجاحظ عن رؤية عميقة لعلاقة اللغة بهذه المكونات المتحكمة في المبادئ والمفاهيم وتنعكس بالضرورة على الدلالة. فلا معنى للفظ «النّسك» إذا

---

(١) الحيوان، ٥/٣٥٤.

(٢) نفسه، ١/٣٠٦.

(٣) نفسه، ١/ ٢١٨-٢٢٠.

أخذناه مطلقًا. ولكنّه ظاهرة تشترك فيها الأديان والمذاهب والمجتمعات والأخلاق والقيم.. وهذه جميعها ليست بنفس التصوّر لدى جميع الناس. ولهذا لا بدّ من النّظر إلى هذه الظاهرة وفق تصنيف محدّد يبيّن في كلّ مرّة اختلاف المفهوم باختلاف المبادئ والأغراض.. فإنّ قيمة النّسك أي دلالته لا تتحدّد إلا بتحديد من يمارسه وسيلةً وغرضًا.

لذلك فإنّ بحث الجاحظ في (النّسك) بحث في اختلاف دلالات اللفظ لا بحسب معانيه التاريخية أو المجازية، ولكن بحسب ما آل إليه مفهوم النّسك ومبادئه، وقيم الإيمان، ومظاهر الاعتقاد لدى عدد من الطّوائف[1] في ظروف اجتماعية وثقافية شديدة التنوّع والتّعقّد. ولا يخفي الجاحظ علاقة هذا الاختلاف الدلاليّ بما ساد المجتمع من رياء ونفاق. ولذلك نسبه إلى «أهل النّقص»، وعدّه وسيلة يعتمدون عليها في «إظهار الطاعة وطلب المثوبة». فهم «يفزعون إليه على قدر فساد طباعهم، .. وخبث منشئهم..»[2].

ولذلك لا نجد لجميع طوائف المجتمع العباسي فهمًا واحدًا للنّسك. وهذا دليل آخر على أنّ من عوامل التّعدد الدلالي ما يكون من خارج اللغة بسبب التأثيرات الاجتماعية والتاريخية.. ولهذا ربط اختلاف الدلالة في كلّ حالة بعوامل البيئة والطائفة.. وغيرها، فإذا هي اثنتا عشرة دلالة نقدمها حسب تناول الجاحظ لها بقوله:

---

(١) الحيوان، ١/ ٢١٨.

(٢) نفسه، ١/ ٢١٨.

أ- دلالات «النّسك» حسب الطوائف والأديان والملل:

المفردة	الدلالة
نُسْك المَريب	أن يتحلّى برمي الناس بالرّيبة، ويتزيّن بإضافة ما يجد في نفسه إلى خصمه خوفًا من أن يكون قد فطن له، فهو يستر ذلك الداء برمي الناس به.
نسك الخارجيّ	إظهار استعظام المعاصي ثم لا يلتفت إلى مجاوزة المقدار وإلى ظلم العباد ولا يقف على أنّ الله تعالى لا يحبّ أن يظلِم أظلمَ الظالمين، وأنّ في الحقّ ما وسع الجميع.
نسك الخراسانيّ	أن يحجّ وينامَ على قفاه، ويعقد الرياسة ويتهيّأ للشهادة، ويبسط لسانه بالحسبة. وقد قالوا: إذا نسك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبّر، وتفسيره قريب واضح.
نسك البنوي والجنديّ	طرح الديوان والزّراية على السلطان.
نسك دهاقين السواد	ترك شرب المطبوخ.
نسك الخصيّ	لزوم طرَسوس وإظهار مجاهدة الرّوم.
نسك الرّافضيّ	ترك النّبيذ.
نسك البستانيّ	ترك سرقة الثّمر.
نسك المغنّي	الصلاة في الجماعة وكثرة التسبيح، والصلاة على النبيّ (ﷺ).
نسك اليهوديّ	التشدّد في السبت وإقامته.
نسك الصوفيّ	إذا كان فسلاً يبغض العمل، تطرّف وأظهر تحريم المكاسب، وعاد سائلاً، وجعل مسألته وسيلةً إلى تعظيم الناس له.
نسك النّصرانيّ	إذا كان فسلاً نذلاً مبغضًا للعمل، ترهّب ولبس الصوف، لأنّه واثق أنّه متى لبس وتزيّى بذلك الزيّ وتحلّى بذلك اللباس، وأظهر تلك السّيما، أنّه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفوه، ثمّ لا يرضى بأنْ رَبحَ الكِفاية باطِلاً حتى استطال بالمرتبة..

ب- دلالات «البيْض»: ينبّهنا الجاحظ إلى أنّه سيبحث في هذا الباب «في ما اشتقّ له من البيْض اسم»(١)، وهذا دليل على اعتباره هذا التنوع الدلالي يشتق بعضه من بعض. أي إنّه يستبعد اعتبار هذه الألفاظ مستقلة أصلاً، فلا بدّ حينئذ من رابط مجازي أو صرفيّ. فيعدّد هذه الألفاظ كما يلي:

المفردة	الدلالة
البَيْض:	وقد يسمون ما في بطون السمك بيضًا، وما في بطون الجراد بيضًا، وإن كانوا لا يرون قشرًا في ما يشتمل عليه، ولا قيضًا يكون لما فيه حضنًا.
باضت البهمي:	أي سقطت نصالها.
باض الصيف وباض القيظ:	أي اشتدّ الحرّ وخرج كلّ ما فيه من ذلك.
بيضة البلد:	وفي المديح قول علي بن أبي طالب..: أنا بيضة البلد، ومنه بيضة الإسلام.
بيضة القبة:	أعلاها.
البيض:	قلانس الحديد.
بيض الجرح والخراج والجبن:	الوعاء الذي يجمع فيه الصديد، إذا خرج برئ وصلح.

ج- دلالات «جمر»: يعالج الجاحظ في باب سمّاه (جمرات العرب) مادة (جمر) معالجة دلالية، فعدّد مختلف دلالاتها كما يلي:

---

(١) الحيوان، ٤/١٢٩-١٣٠.

المفردة	الدلالة
– جمرات العرب:	عبس وضبّة ونمير. يقال لكلّ واحد منهم جمرة،
– سقطت الجمرة:	إذا كان في استقبال زمان من الدّفء،
– الجمار:	رمي الحصى،
– التجمير أيضًا:	أن يرمى بالجند في ثغر من ثغور المسلمين، ثم لا يؤذن لهم في الرّجوع..،
– أجمر الرّجلُ:	إذا أسرع وأعجل مركبه..،
– أجمر:	مأخوذ من الجمر،
– جمرت المرأة شعرها:	إذا ضفرته. ويقال له: الجمير..،
– تجمّر القوم:	إذا هم اجتمعوا حتى لهم بأس، ويكونون كالنار على أعدائهم، فكأنّهم جمروا حتى كأنهم جمير من شعر مضفور، أو حبل موضع القوى، وبه سمّيت تلك القبائل والبطون من تميم (الجمّار)،
– المجمّر مشدّد الميم:	حيث يقع حصى الجمار..،
– خفّ مجمّر:	إذا كان مجتمعًا شديدًا،
-أجمر الرجلُ:	إذا عمد إلى إبله وخيله أو رجاله وكان ذلك جملة واحدة..

وهذا تفسيره لذلك:

– «جمرات العرب: عبس وضبّة ونمير. يقال لكلّ واحد منهم جمرة..»،

– «وعلى هذا المعنى قيل: سقطت الجمرة، إذا كان في استقبال زمان من الدّفء..»،

- «والجمار: رمي الحصى..»،

- «والتجمير أيضًا أن يرمى بالجند في ثغر من ثغور المسلمين، ثم لا يؤذن لهم في الرّجوع..»،

- ويقال: «أجمر الرّجلُ: إذا أسرع وأعجل مركبه..»،

- ويقال: «أجمر، هو مأخوذ من الجمر. ويقال: قد جمرت المرأة شعرها إذا ضفرته. ويقال له: الجمير..»،

- ويقال: «قد تجمّر القوم: إذا هم اجتمعوا حتى لهم بأس، ويكونون كالنار على أعدائهم، فكأنّهم جمروا حتى كأنهم جمير من شعر مضفور، أو حبل موضع القوى، وبه سمّيت تلك القبائل والبطون من تميم (الجمّار)، والمجمّر مشدّد الميم، حيث يقع حصى الجمار..»،

- ويقال: «خفّ مجمّر: إذا كان مجتمعًا شديدًا»،

- ويقال: «عمد إلى إبله وخيله أو رجاله فأجمر: إذا كان ذلك جملة واحدة..»[1].

كما اعتنى الجاحظ بمسائل المجاز والاستعارة والكناية.. في التغيّر الدلالي، ومن ثمّ في التعدّد الدلالي للمفردة الواحدة. لذلك نراه في أماكن كثيرة من مؤلفاته يلتفت إلى هذه الظاهرة المهمّة، فيميز بين مختلف دلالات المفردة الواحدة من سياق إلى آخر، اعتمادًا على أنّ الدلالة ليست واحدة في جميع الحالات.

د- دلالات «الفاسق»: لا يعتبر دلالة (الفاسق) مثلاً، وتسمية الغراب

(١) البخلاء، ٤/١٣٢-١٣٣.

بالفاسق أو الفأرة بالفويسقة أو إبليس بالفاسق شيئًا واحدًا. فقال: «فإن كنتم فقهاء فقد علمتم أنّ تسمية الغراب بالفسق والفأرة بالفويسقة، أنّ ذلك ليس من شكل تسمية الفاسق، ولا من شكل تسمية إبليس. وقد قالوا: ما فجرها إلا فاجر، و لم يجعلوا الفاجر اسمًا له لا يفارقه»(1).

وقال: «وقد يقال للفاسق من الرجال: خبيث. وقد قال (ﷺ): «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقربنّ مصلاّنا»، وهو على غير قوله عزّ وجلّ: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ (النور: من الآية٢٦)». وقال بعض الرّجّاز وذكر ذئبًا:

..والذئب وسط غنمي يعيث وصحت بالغائط يا خبيث»(2)

ثم استشهد بقول للرسول ﷺ: «لا يقولنّ أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقِست نفسي». كأنّه كره أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه(3).

هـ – دلالات «السواد»: كما ميّز بين عدد من دلالات (السّواد). فأرجع تعدّده الدلالي إلى رؤية المتكلم أي تأويله للسواد إيجابًا أو سلبًا: «ولو شاء الأعرابيّ إذا رأى سواد الغراب سواد سؤدد، وسواد الإنسان شخصه، وسواد العراق سعف نخله، والأسودان: الماء والتمر، وأشباه ذلك، لقاله.»(4).

(١) الحيوان، ١/ ٢١٨.

(٢) نفسه، ١/ ٣٠٦.

(٣) نفسه، ٣٣٥/١.

(٤) نفسه، ٣٦٧/٣-٣٦٨.

المفردة	دلالة١	دلالة٢	دلالة٣	دلالة٤
الفسق	* لكلّ ذي قشر: الخروج من القشرة	* للفأرة: الخروج من جحرها	* للإنسان: عصى وجاوز حدود الشرع	* لإبليس: الخروج عن طاعة الله
الخبيث	* للشيء: الرديء	* للشجرة: المكروهة	* للفاسق: الفاسد	* للذئب:السارق
السواد	* للغراب: سؤدد	* للإنسان: شخصه	* للعراق: نخله	* الأسودان:للماء والتمر

إنّ اهتمام الجاحظ بهذه التفاصيل الدلالية هو الذي يفسّر تنبّهه إلى اختلاف المستويات اللغوية، فنظر إليها في نطاق العلاقات الاجتماعية، وأسّس معجمه اللغوي حسب استعمال كلّ طبقة. فهو يقول في مستهلّ كتاب الحيوان: «إنّه كتاب معناه أنبه من اسمه، وحقيقته آنق من لفظه وهو كتاب يحتاج إليه المتوسط العاميّ، كما يحتاج إليه العالم الخاص.» [(١)]. أي إنّ معجمه منفتح، فإذا كتب في العلم أجرى حكم العلماء، وإذا وصف الحرفيّين لم يجاوز مفردات موضوعاتهم وسائر ما يتعلّق بحياتهم الخاصة على بساطتها.. فإنّ القدرة على تصوير ذلك، لا يقلّ عن تصوير المفاهيم الدقيقة المتشعبة. ولكنّه وفّق ربّما في تقديم أعماله على أنّها خطاب لجميع الناس. ولعلّ ذلك ما جعل أحد الباحثين يصفه بأنّه «يعيش في حاضره أكثر ممّا يعيش في ماضيه، لأنّه يحسّ بالحياة حوله إحساسًا قويًا حتى ما يكاد يلتفت وراءه إلا قليلاً.» [(٢)].

(١) الحيوان، ١/١٠.

(٢) الحاجري: الجاحظ، ٢٥٩.

٢- العربية ومستوياتها اللغوية:

ما دامت اللغة كائنًا حيًّا يتعرّض لعوامل الحياة وتنعكس عليه مظاهر التطور حينًا والانحطاط حينًا آخر، بحسب ما يكون عليه المتكلمون بها من رقيّ وانحطاط، فإنّ رصيدهم اللغوي منفتح أبدًا على التجارب الإنسانية في حركة دائبة بين ولادة مفردات واندثار أخرى. أي إنّ عملية اكتساب اللغة نشاط مستمرّ لأنّ اللغة دائمة التطور والنّموّ. وهذه الحقيقة قديمة في الفكر اللغوي العربي، ولدى اللسانيين الغربيين.. ويبدو أنّ الجاحظ من أوائل من عُنوا بكثير من هذه القضايا الدلالية، فعالج نماذج من تطوّر العربية في مرحلة مبكّرة من تاريخها، ممّا كان يعدّ لحنًا، فعالجها معالجة لسانيةً مغلّبًا مفهوم الوصفية على المعيارية والتخطئة... وكانت رؤية الجاحظ تسمح له بأن يبحث في صلة التطور اللغوي بالتطور الحضاري. فأسّس على فكرة التفاعل الاجتماعي بين العرب وغيرهم من شعوب البلاد المفتوحة خاصةً الفرس، ما حصل من تغيّر في مكونات حياتهم الاجتماعية من حيث الأخلاق والعادات والأفكار.. وقد جسّد ذلك في كتاباته وآرائه النظرية حول استيعاب العربية ما كانت تفتقر إليه من مفردات وحتى أساليب من لغات تلك الشعوب. فإنّ سكنى العرب مدنًا متحضّرة انعكس على اللغة فسقط بعض ألفاظها البدوية، وتولّدت أخرى أو تغيّرت مجالاتها، بفضل مقدرة العربية على تغيير معاني ألفاظها بقواعد المجاز والاشتقاق خاصة.

وانطلاقًا ممّا أسلفنا يمكن أن نتصوّر ما انتهى إليه أمر اللغة بالفعل على أيام

=

الجاحظ. ونعني بذلك ظهور مستويات عدّة للأداء وللدلالة فيها، فاللهجات كانت ثمرة اختلاط العرب الوافدين بالسكان الأصليين، وأما العربية الفصحى فقد أخذت في التبلور بالمستوى الثقافي لتصبح لغة التعبير في المجالات العلمية والأدبية فحسب(١).

والجاحظ لم يكن بمنأى عن هذا الواقع اللغوي الذي باتت تأتلفه أربعة مستويات هي: الفصيح، والمولد، والعاميّ، والأعجميّ. فلم يكتف بتجسيده على ألسنة أبطاله، بل نجده يحلّله في مواطن عدّة من كتبه تحليلاً فيه الكثير من الرضا وأحيانًا التّبرير.

إنّ سيطرة مبدأ المعياريّة الفصاحية على جهود الدارسين والمفكرين من ناثرين وباحثين وشعراء ومبدعين.. حدّدت وظيفة اللغة وعلاقتها بالعلوم والمجالات التي تصف: فأمّا وظيفتها فهي حماية العربية المتخيّرة، ممّا قد يفسد صفاءها بفعل تطوّر الاستعمال واتّساع رقعة متكلّمي العربية. إلى جانب ما أصابوه من رقيّ فكريّ وحضاريّ وما اتّصلوا به من شعوب وثقافات؛ وأمّا علاقتها بالعلوم والمجالات التي تصف فهناك تصنيف للغة الاستعمال إلى فصحى وغير فصحى. وغير الفصحى ليست من اهتمامات اللغويين ولا تعدّ جزءاً من رصيد العربية الذي انبنى عليه نحوها وصرفها ومعجمها..

لكن المتأمّل في الألفاظ التي تكوّن رصيد الاستعمال اللغوي الحقيقيّ يرى أنّها لا تنتمي جميعها إلى المستوى الفصيح بشروطه المكانية والزمانية المعروفة، بل يمكن

(١) حجازي: اللغة العربية عبر القرون، ص (٨ .١٤ .٥٣).

أن تصنّف بحسب درجتها من الفصاحة إلى أربعة مستويات هي: الفصيح، والمولّد، والعامي، والأعجمي:

فالمستوى الفصيح: تمثله الألفاظ المأخوذة من متن اللغة العربية الفصحى المحدّدة بعصور الاحتجاج، دون أن يلحقها تغيير في الأصوات أو في الأبنية أو في الدّلالة(١). ويصنّف الفصيح نفسه إلى مراتب: فصيح وأفصح ونادر وضعيف ومنكر ومتروك(٢). وعند تأمّل هذا المستوى الفصيح نرى أنّه اعتمد دليلاً نقليًّا صرفًا يستند إلى أرقى درجات الفصاحة: وهي كما رأينا الشعر الجاهلي والنصّ القرآني والشعر الإسلامي الأوّل. فهو من هذه الناحية مستوى خاضع لحدود نقلية صارمة، لكنّ تلك الصرامة لم تمنع من ظهور مستويات أخرى للتعبير عن احتياجات المتكلمين اللغوية.

والمستوى المولّد: هو ما أُحدث في العربية من ألفاظ عامة أو مصطلحات بعد عصر الاحتجاج اللغوي إلى اليوم(٣). أي المرحلة التي تجاوز فيها متكلمو العربية ألفاظ البداوة واحتياجاتها للتعبير عن واقع حضاريّ جديد تداخلت فيه الأجناس والثقافات والحضارات فضاقت اللغة بما ظهر فيها من ألفاظ ومصطلحات دالّة على نمط عيش وتفكير جديدين وطُوّعت للتّوليد، فظهرت فيها بداية من القرن الثاني الهجري آلاف الألفاظ والاصطلاحات المستحدثة، وقد شمل الاستحداث ألفاظ الحياة العامة ومصطلحات العلوم الإسلامية (كاللغة والفقه والكلام..) وما كان

(١) ابن مراد: المعجم العلمي العربي المختصّ، ص٨٩.

(٢) السيوطي: المزهر، ٢١٢/١.

(٣) ابن مراد: المعجم العلمي العربي المختصّ، ص٩٢.

يعرف بعلوم العجم أو العلوم الصحيحة (كالطب والرياضيات والفيزياء..) لكنّ المعجم وإن اعترف بفصاحة مفردات العلوم الإسلامية، فإنّه لم يعترف بفصاحة المولّدات الأدبية والعلوم الصحيحة رغم ظهورها جميعًا قبل نهاية القرن الرّابع الهجري، فهي عربية لكنّها في منزلة وسطى فلم يُعترف بفصاحتها ولم يُسمح لها بدخول المعجم.

والمستوى العاميّ: هو مستوى قديم في العربية، يعود الاهتمام به إلى القرن الثاني الهجري، عندما وضع الباحثون العرب القدامى كتبًا في مسألة العامية، وهي الكتب المعروفة بكتب لحن العامة. وهذا المستوى يهتمّ بما حرّفه العامة عن العربيّ الفصيح أو المولّد سواء في الأصوات أو في الأبنية أو في الدلالة، حتى تُنُوسي أصله. وهو الغالب في الاستعمال على المستوى المقول، وقد أدّت سيطرته إلى استقلال الأقاليم العربية بمميّزات لهجية وخصائص في النّطق والاستنباط.

والحقيقة أنّ إطلاق صفة العامي على هذا المستوى من اللغة يشمل اللغات الخاصة واللهجات الإقليمية أو اللغة المحكية أيضًا. فكلّ المجموعات الخاصة والمهن لها عامياتها. وما يميّز العامي هو تنوّعه الشديد، فهو لا يكاد يعرف حدودًا. وهو متطوّر بلا توقّف حسب الظروف والأماكن. وقد يسّر انتشاره دخول الأعجميّ واستقراره في اللهجات العربية بسبب ضعف العاميّ في توفير رصيد ثابت من المفردات الجديدة.

والمستوى الأعجميّ: هو ناتج عن اقتراض لغة مورد عن لغة مصدر وحدات معجمية أجنبية عنها تتّخذ لها حيّزًا في النّظام اللغوي الجديد الذي انتقلت إليه، وهو

قديم في العربية، ولا يمكن لأيّ لغة أن تخلص منه. ولقد ظهر أثر اللغات الأعجمية في العربية المدوّنة منذ العصر الجاهلي وتواصل بعد مجيء الإسلام. وصعوبة دراسته تتأتّى من غموض في المفاهيم والحدود خاصة، بعد أن ورد بكثرة في النصّ القرآني المتّفق على عربيته[1].

وكان القدامى يطلقون عليه تارةً مصطلح (دخيل) وتارةً مصطلح (معرّب). لكنّ الباحثين اليوم يخصّصون مصطلح (معرّب) لما خضع من الدّخيل لمقاييس العربية وأوزانها؛ ومصطلح (دخيل) لما ظلّ منه محافظًا على مظاهر عجمته مستعصيًا على مقاييس العربية وأوزانها.

إنّ هذه المستويات قائمة إذن في العربية منذ القديم. وهي من طبيعة جميع اللغات الحضارية التي تعتمد من جهة على الفصيح لتثبيت دعائم فكرها، وعلى

---

(١) يؤكّد بعض الدّارسين أنّ عدد المفردات الأعجمية في القرآن يصل إلى ١٥٧ مفردة تتوزّع على عشر لغات هي: الحبشية٣٧ مفردة كالملائكة وجهنّم ومشكاة..، السريانية٢٥ مفردة كاليمّ وعدْن وسريّا..، والعبرية١٧ مفردة كأخلد وكفلين ومرقوم..، والنبطية١١ مفردة كمناص، تتبيرا، أكواب..، واليونانية١٠ مفردات كقنطار وفردوس والقسطاس..، الفارسية٢٠ مفردة ككنز وتنّور وبرزخ ومسك وسندس..، إلى جانب: الهندية مفردتان، والبربرية٣ مفردات وهي: إناه (أي نضجه) ويصهر (أي ينضج) والمهل (وهو عكر الزيت)، والقبطية ٦ مفردات، ومن التركية مفردة واحدة. إلى جانب هذا يصف علماء اللغة ألفاظًا أخرى بأنها غير عربية وعددها ٣١ منها: الرسّ (البئر) وسقر (من أسماء النّار) وقرطاس، وسلسبيل. أمّا ما ورد من ألفاظ العجم في الشعر الجاهلي فأضعاف ما جاء في القرآن. كالناي والنارجيلة والنرجس والنرد والند والنفير والنموذج..إلخ. انظر: نور الدّين صمّود: المعرب، ندوة تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، تونس ١٩٨٧، ص (٨٩-١٠٦).

المستويات الأخرى لتعايش حاجات التطوّر. على أنّ المستويات الثلاثة الأخيرة هي التي باتت طاغية في مستوى المقول حتى تحوّلت إلى مشكل لغويّ عبّرت عنه بوضوح كتب لحن العامة.

وإذا كان النظر إلى اللغة من زاوية المستويات اللغوية مناقضًا لمواقف الصفويين التي تأخذ الفصحى قضية مسلّمًا بها. فإنّ هذه المستويات تقوم على أساس هامّ هو استحالة الفصل بين مستويات النّشاط اللغوي. فإنّ الانتقال من مستوى ثقافيّ أو اجتماعيّ أو جغرافيّ إلى آخر يشعر بهذا الانتقال اللغوي كذلك. وتعكس صورته وضع العربية الحيّة في استعمالاتها اليومية التي ترتبط بالثقافة وتتدرّج تدرّجها. وتبدو علاقة المتكلّم بهذه المستويات اللغوية نتيجة قدر هائل من هذه العوامل المتشابكة، فإضافة إلى عوامل الزمان والمكان والثقافة إلخ.. نرى أنّ المتكلمين لا يحتلّون جميعًا نفس المواقع اللغوية بل يعرضون لتطوّرات تضعهم في درجة معيّنة من السلّم اللغوي. وهو ما ينعكس بوضوح في مستوى المنطوق، وفيه تتداخل المستويات الأربعة لغرض التطابق مع المنوال الثقافي السائد.

لكنّ هذه الصورة الواقعية في مستوى المنطوق ليست كذلك في مستوى المكتوب، وهو قائم في الغالب على المستوى الفصيح وحده. فكان للفصاحة دور مهمّ في تصوّر اللغة العربية ووضع معجمها. وتمثّل ذلك بالخصوص في تقييد مفهومها عند اللغويين بهذا التّحديد الذي ذكرنا وقد اتّخذوه مبرّرًا لرفض ما لا يعتقدون أنّه من العربية الفصيحة. وهم بذلك يظهرون العربية بمظهر الثابت غير القابل للتطوّر. مع أنّ المصادر المعتدّ بها نفسها تنطوي على حلقات من التطوّر لا

تنكر؛ والمصادر الإسلامية تؤكّد هذا التطوّر. فالقرآن ثم الشعر الإسلامي والعلوم الإسلامية قد أمدّت جميعًا العربية بألفاظ واستعمالات لغوية لم تكن معروفة من قبل، وهي مشتقة من ألفاظ العرب.

على أنّ هذا التشدّد قد يصحّ في مستوى الأصوات والأبنية الصرفية والتراكيب، لكنّه لا يصحّ في مستوى المعجم. فقد تولّد في اللغة ما لا يكاد يُحصى من الألفاظ بطريق القياس، وقد أشار إلى ذلك ابن جنّي بقوله: «ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كلّ فاعل ولا مفعول، وإنّما سمعت بعضه فقست عليه غيره، فإذا سمعت «قام زيد» أجزت ظرف بشر، وكرم خالد»[1] .

والحقيقة أنّ الإشكال الذي تطرحه هذه المستويات اللغوية هو في مدى أحقّيّة المتكلّم العربي قديمًا وحديثًا في أن يضيف إلى اللغة ما ليس فيها قياسًا على ما فيها؟ هذه إذن القضية الجوهرية التي تدور حولها إشكالية جمع اللغة في واقع لغوي متعدّد المستويات. وإذا كانت هذه المستويات هي ما حدا بالخليل[2] إلى وضع نظريّة تسعى إلى حلّ هذه المعضلة عن طريق تجاوز مصاعب التّوفيق بين شرط الفصاحة من ناحية والتطوّر اللغوي وما يفرضه من مستويات لغوية متجدّدة من ناحية ثانية، فهل وفّق الجاحظ بطريقته الخاصة في تأصيل هذه الحقيقة اللغوية تنظيرًا؟ وهل يمكن اعتبار مؤلفاته مصدرًا لإثراء معجم العربية التاريخي تطبيقًا؟

(١) ابن جنّي: الخصائص، ٣٥٧/١.

(٢)حول نظرية الخليل ينظر: الحمزاوي: المعجم العربي، ص (٢٢١-٢٢٧)؛ وابن مراد: مسائل في المعجم، ص (٥-٢٩).

الفصل الأول

الفصيح

١- الفصيح والمستويات اللغوية:

إنّ قيام العربية في عصر الجاحظ على أربعة مستويات، ذُكِرت في أكثر مؤلّفاته، فبيّن عوامل انتشارها، وميّز بين خصائصها ومجالات استعمالها، هو ما جعله لا يرى في الفصيح هدفًا لذاته، فقد نظر إليه على أنّه في واقع الاستعمال، مستوى من مستويات العربية الحديثة، ووسيلة من وسائل تأدية المعنى حسب مقتضى الحال. لذلك لا نجد في كتابات الجاحظ مجرّد وصف للواقع اللغوي في عصره، ولكن التزامًا برؤية لغوية واقعية، تدعو إلى ملاءمة المقال مع المقام وعدم التضحية بالواقعية اللغوية في سبيل حماية لغة البدو باسم الفصاحة. يقول الجاحظ: «والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضح بأن يكون من معاني العامة. وإنّما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال..»(١).

ويبدو مدارُ الأمر عنده حينئذ قائمًا على مسألة التّبليغ أكثر من الشّكل، أي قيام رسالة اللّغة على ثنائيّة «البيان والتبيّن والإفهام والتَّفهُّم. وكلّما كان اللّسان أبين كان أحمد، كما أنّه كلّما كان القلب أشدّ استبانةً كان أحمد. والمُفْهِم لك والمُتَفَهِّم عنك شريكان في الفضل، إلا أنّ المُفْهِمَ أفضلُ من المُتفهِّمِ، وكذلك المُعَلِّمُ والمُتَعَلِّمُ. هكذا ظاهر هذه القضية، وجُمْهورُ هذه الحكومة، إلاّ في الخاصّ الذي لا

(١) البيان، ١/١٦٣.

يُذْكَر، والقليل الذي يُشْهَرُ..»[1].

على أن مسألة البيان والتبيُّن والإفهام والتفهّم خاضعة لطبيعة المقال، وليس للفصيح وحده مهما كان مقتضى الحال. يقول الجاحظ: «..وإن كان موضع الحديث على أنّه مُضْحك ومُلْهٍ، وداخل في باب المزاح والطيِّب، فاستعملت فيه الإعراب، انقلب عن جهته. وإن كان فيه لفظة سُخْف، وأُبدلت السخافة بالجزالة، صار الحديث الذي وُضِع على أن يُسرَّ النفوس، يَكْرُبُها، ويأخذ بأكظامها.»[2] .

أمّا إذا كان الغرض تطلّبَ مراتب البلاغة، فالأمر يجاوز حينئذ مجرّد الإفهام إلى توفّر الفصيح. فليس «كلّ من أفهمنا من معاشر المولَّدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون المعدول عن جهته، والمصروف عن حقّه أنّه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه.»[3] .. حتى ليتحوّل مفهوم البلاغة عنده أحيانًا إلى تشدّد مبنيّ على أصول الفصيح وحده «إذا أعطيْتَ كلّ مقام حقَّه، وقمتَ بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيتَ من يعرف حقوق الكلام..»[4]. أي إنّ الفصاحة ركن من أركان البلاغة، والبلاغة عنده لا تتحقّق إلا بتحقّق المستوى الفصيح.. أي خلوّ الكلام من الانغلاق واللحن وغير ذلك من العيوب[5].

---

(١) البيان، ١/١١ ـ١٢.

(٢) الحيوان، ٣/٤١٥.

(٣) البيان، ١/١٦١.

(٤) نفسه، ١/ ١١٦.

(٥) المقاييس البلاغية، ص٢٠٠.

٢- مفهوم الفصيح عند الجاحظ:

لا يعني المستوى الفصيح عند الجاحظ الإغراق في لغة البدو أيًّا كان المقام. فلذلك نجده قد حدّد شروط استعماله كما يلي:

٢-١- مطابقة المقال للمقام:

كأن يكون المتكلم بدويًا، والكلام غريبًا، والمتلقي أعرابيًا. يقول: «وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًا وساقطًا وسوقيًا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًّا؛ إلا أن يكون المتكلم بدويًّا أعرابيًا؛ فإنّ الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشيّ من الناس، كما يفهم السوقيُّ رطانةَ السوقيّ. وكلام الناس في طبقات كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات...»[1].

وامتدح المستوى الفصيح لأنّه أفتق للسان وأقوم للبيان. فيقول: «وأنا أقول: إنّه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنق، ولا ألذّ في الأسماع، ولا أشدّ اتّصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويمًا للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء. وقد أصاب القوم في عامة ما وصفوا، إلاّ أنّي أزعم أنّ سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني. وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل في الفخم من الألفاظ..»[2].

وهكذا فإنّ مستعمل اللغة في نظر الجاحظ مطالب بأن يكيّف لغته بحسب

(١) البيان ١/١٤٥.

(٢) نفسه، ١/١٤٥.

طبيعة مخاطبيه خدمة للمعنى وموازنة بين الخطاب ومتلقيه. يقول: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلامًا، ولكلّ حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المقامات على أقدار تلك الحالات»(١)..

ويضرب على ذلك أمثلة: «ومتى سمعت - حفظك الله- بنادرة من كلام العرب، فإيّاك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنّك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولّدين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ومُلْحة من مُلح الحُشَوة والطَّغام، فإيّاك وأن تستعمل فيها الإعراب، وأن تتخيّر لها لفظًا حسنًا أو تجعل لها من فيك مخرجًا سريًّا فإنّ ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها.»(٢).

ويقول: في باب (إفساد الإعراب لنوادر المولّدين): «وأنا أقول إنّ الإعراب يفسد نوادر المولَّدين، كما أنّ اللحن يفسد كلام الأعراب؛ لأنّ سامع ذلك الكلام إنّما أعجبته تلك الصورة، وذلك المخرج، وتلك اللغة وتلك العادة؛ فإذا دخّلتَ على هذا الأمر - الذي إنّما أضحك بسخفه، وبعض كلام العجميّة التي فيه- حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل، وحوّلته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء،

(١) البيان، ٢/١٣٩.
(٢) نفسه، ١/١٤٥ .١٤٦.

وأهل المروءة والنّجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدّلت صورته.»[1].

ولذلك نجده ينتقد من لا يلائم بين المقام والمقال، فسخر مثلاً، ممّن يعبّر عن الأشياء المعتادة بمصطلحات فنيّة. كتسمية الطّبيب للبحح المصحوب بالمخاط باللفظ اليوناني الدخيل: بلغم[2]. ويقول: «وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلّمين في خطبة أو رسالة، أو في مخاطبة العوام أو الجار، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته، أو في حديثه إذا حدّث، أو خبره إذا أخبر، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام، وهو في صناعة الكلام داخل، ولكلّ مقام مقال، ولكلّ صناعة شكل.»[3].

٢-٢- تجنّب التوعّر: والتوعّر يكون إمّا بتوخّي:

٢-٢-١- التعقيد:

يقول الجاحظ: «.. وإيّاك والتوعّر، فإنّ التوعّر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراغ معنىً كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا، فإنّ حقّ المعنى الشريف اللفظُ الشريف، ومن حقّهما أن تصونهما عمّا يفسدهما ويهجّنهما.. فكن في ثلاث منازل: فإنّ أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا، وفخمًا سهلاً، ويكون معناك زاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا، إمّا عند الخاصة، إن كنت للخاصة قصدتَ وإمّا عند العامة، إن كنتَ للعامة أردتَ. والمعنى

(١) الحيوان، ٢٨٢/١.

(٢) البيان، ٤/٢.

(٣) الحيوان، ٥٣٩/٣.

ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضح بأن يكون من معاني العامة. وإنّما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامي والخاصّيّ.. فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك.. إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام.»(١).

ويضيف: «قال أبو عثمان: أمّا أنا فلم أر قطّ أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب؛ فإنّهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّرًا وحشيًّا، ولا ساقطًا سوقيًّا..»(٢).

٢-٢-٢- الغريب:

وقد ضرب الجاحظ أمثلة على قبح الغريب واستهجانه له، نذكر منها قوله: «كان غلام يتقعّر في كلامه، فأتى أبا الأسود الدّؤلي يلتمس بعض ما عنده، فقال له أبو الأسود: «ما فعل أبوك؟ قال: أخذته الحمّى فطبخته طبخًا، وفَنَخَتْه فَنْخًا، وفَضَخَتْه فضْخًا، فتركته فَرْخًا». فَنَخَتْه: أضعفته، والفَنِيخُ: الرِّخْو الضَّعيف. وفَضَختْه: دَقّته. فقال أبو الأسود: فما فعلتْ امرأتُه التي كانت تُهارُّه وتُشارُّه وتجارُّه وتُزارُّه؟ قال: طلّقها فتزوّجت غيرَه، فرضيت وحَظِيت وبَظِيَت. قال أبو الأسود: قد عرفنا رضيت وحظيت، فما بظيت؟ قال: حرف من الغريب لم يبلغك. قال أبو الأسود: يا بنيّ كلّ كلمة لا يعرفها عمُّك فاسترها كما تستر

---

(١) البيان، ١/ ١٣٦.

(٢) نفسه، ١/ ١٣٧.

السّنّور خُرْءَها.

تزارّه: تعاضّه، والزّرّ: العضّ، وحظيت: من الحظوة، وبظيت: إتباع لحظيت»[1].

وقوله: «رأيتهم يديرون في كتبهم أنّ امرأة خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر. فانتهرها مرارًا. فقال له يحيى بن يعمر: أَئِنْ سألتْكَ ثَمَنَ شَكْرِها وشَبْرِكَ أَنْشأتَ تَطُلُّها وتَضْهَلُها. قالوا: الضّهيل: التقليل، والشّكر: الفَرْج، والشَّبْر: النّكاح، وتُطِلُّها: تذهب بحقّها، يقال: دمٌ مطلولٌ. ويقال: بئر ضَهول: أي قليلة الماء.»[2] .

و لم يُخْفِ الجاحظ استهجانه لهذا الكلام لغرابته فهو بحاجة إلى تفسير ألفاظه حتى يصبح في متناول الناس. ويقول: «فإن كانوا إنّما رَوَوْا هذا الكلام لأنّه يدلّ على فصاحة، فقد باعَدَه الله من صفة البلاغة والفصاحة. وإنْ كانوا إنّما دوّنوه في الكتب وتذاكروه في المجالس لأنّه غريب، فأبياتٌ من شعر العجّاج وشعر الطّرماح وأشعار هذيل، تأتي لهم من حسن الوصف على أكثر من ذلك. ولو خاطب بقوله: «أئن سألتك شكرها وشبرك أنشأت تطلّها وتضهلها» الأصمعيَّ، لظننتُ أنّه سيجهل بعضَ ذلك. وهذا ليس من أخلاق الكتّاب، ولا من آدابهم»[3].

إنّ في هذا التعليق دليلاً على تسامح الجاحظ اللغوي وتغليبه مبدأ اليُسر والوضوح على مبدأ الفصاحة والغرابة، لما لذلك من أثر سلبيٍّ على الفصاحة

(١) البيان، ١/ ٣٧٩.

(٢) نفسه، ١/ ٣٧٨.

(٣) نفسه، ١/٣٧٨-٣٧٩.

نفسها. ولذلك فهو يعتبر الكُتّاب الحقيقيّين هم الذين يتحاشَوْن هذه الألفاظ الغريبة، واعتبر ذلك جزءاً من أخلاقهم.[1].

وقد أورد في كتبه أمثلة كثيرة لإثبات مصاعب الغريب. ولعلّ تخوّف الجاحظ من انتشار هذا العَيْب بين المتكلّمين على سبيل التّقليد ظنًّا منهم بأنّه من ظواهر الفصاحة، يعود إلى إدراكه المبكّر لأهمّيّة العامل النفسيّ في قبول الغريب وغير العاديّ. فيقول: «اللفظ الغريب والمستكره الذي يأتي عن تكلّف وتشدّد، يكون أعلق باللسان، وآلَفَ للسّمع، وأشدّ التحامًا بالقلب من اللّفظ النّبيه الشّريف.»[2]. فاللسان يتعلّق باللفظ الغريب ربّما لجدّته على الأسماع وتعبيريته، فهو أوقع في القلوب وفي النفوس. وهذه ملاحظة مهمّة يعتمدها في الغالب دارسو التطور اللغوي وبها يفسّرون عوامل التغيّر المستمرّ في اللغات.

٢-٢-٣- التصنّع:

يرفض الجاحظ التصنّع، ويورد هذا المثال: قال رجل من بني عذرة: «خرجت زائرًا لأخوال لي بهَجَرَ. فإذا هم في بَرْثٍ أحمرَ بأقصى هَجَر في طلوع القمر. فذكروا أنّ أتانًا تعتاد نخلة فترفع يديها، وتعطو بفيها، وتأخذ الحُلْقان والمُنْسَبِتَة والمُنَصِّفَة والمَعْوَة. فتنكّبتُ قوسي وتقلّدتُ جَفيري. فإذا هي قد أقبلت. فرميتها.. فقوّرتُ سرّتها ومَعْرَفَتَها.. ثم كشفتُ عنها فإذا لها غطيط من الوَدَك.. ثم قمت إلى الرّطب وقد ضربه برد السّحر. فجنيتُ المَعْوَة والحُلْقان، فجعلت أضع الشّحمة بين

(١) المقاييس البلاغية عند الجاحظ، ١٧٥.

(٢) نفسه، ١٧٧. وذكر البيان، ٧٦/١.

الرّطبتين.. فأظنّ الشّحمة سمنةً ثم سِلاءةً، وأحسبها من حلاوتها شُهدةً أحدُرُها من الطُّور». ويعلق الجاحظ: «وأنا أتّهم هذا الحديث، لأنّ فيه ما لا يجوز أن يتكلّم به عربيّ يعرف مذاهب العرب. وهو من أحاديث الهيثم.»[(1)].

ولعلّ اتّهامَ الجاحظ هذا الحديث راجع إلى ما فيه من تكلّف وصنعة، ومن تعمّد الإتيان بالغريب. إضافة إلى أنّ الجاحظ ذكّر براوية هذا الحديث، وهو المعروف برواية الضعيف والمصنوع.

وفي ذلك تحدّث عن طبقة المولعين بالتنوّق والمبالغة في مضاهاة كلام البدو باستعمال لغة مُصْطَنَعَة مُسْتَكرَهَة. وهذا الشُّذوذ يطلق عليه الجاحظ اصطلاحات فنّيّة كثيرة: فالتّقعير نوع من التّعبير كأنّما يُستخرَج من قَعْر بئر؛ والتّقْعيب: يكاد يكون مرادفًا له، وهو نوع من التعبير يأخذ فيه الفم صورة القَعْب[(2)]؛ والتّفخيم: يصوّر تأكيد التّعبير والتّنصيص عليه؛ والّتشديق والتّشداق: من كلمة (شَدَق) بمعنى زاوية الفم ومعناهما: التكلم مع اتّساع زاوية الفم. وكانا يستعملان على سبيل المجاز للتعبير عن البلاغة دون معنى آخر من العيوب. ولكنّهما نقلا بعد ذلك إلى

(١) البخلاء، ٢/ ١٩١– ١٩٢. جاء في شرح المحقق: هجر: اسم لجميع أرض البحرين، البرث: الأرض اللينة، تعطو: تتناول، الحلقان: البسر إذا بلغ الإرطاب ثلثيه، المنسبتة: الرطبة جرى فيها كلّها الإرطاب، المنصفة: البسرة نصفها أحمر ونصفها أخضر، المعو: الرطب، الجفر: الجعبة، المعرفة: اللحم الذي ينبت عليه العرف، غطيط: صوت تردد نفس النائم، الودك: ما يتحلب من الشحم من دسم، سلاءة: سلأ السمن سِلاء: طبخه وعالجه، الطور: الجبل..

(٢) البيان، ٢/٤.

التصنّع في الكلام الذي يُحتمل من الأعراب وحدهم(١).

٢-٢-٤- اللحن:

لا يأتي الجاحظ على ذكر اللحن إلا عند حديثه عن الفصيح. فالجاحظ بدعوته إلى أن نلتزم لكلّ مقام مقالاً، لم يجعل اللحنَ عيْبًا في مقام العامة، ولكن عدّه أقبحَ لحنٍ إذا كان في مقام الخاصّة. ولذلك نجده يقول: «ثم اعلمْ أنّ أقبح اللّحن لحن أصحاب التّقعير والتّقعيب، والتّشديق والتّمطيط والتّفخيم، وأقبحُ من ذلك لحنُ الأعاريب النازلين على طرق السّابلة، وبقرب مجامع الأسواق. ولأهل المدينة ألسنٌ ذَلِقة ، وألفاظ حسنة، وعبارة جيّدة. واللحن في عوامّهم فاشٍ، وعلى من لم ينظر في النّحو منهم غالبٌ»(٢).

فاللّحن في هذا المجال خرْق للعربية لأنّه يخلط بين المستويات اللغوية، ولا يبقي على خصائص العربية في علاقتها بمستوياتها الأخرى. فانتقال لغة العامة بما يعتريها من لحن إلى الاستعمال الفصيح خطر على العربية. ويدلّل على ذلك بقوله: «إنّ العامة ربّما استخفّت أقلّ اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقلّ في أصل اللغة استعمالاً، وتدع ما هو أظهر وأكثر..»(٣). وأهمية ملاحظة الجاحظ تكمن في حقيقة لسانية هي اليوم من البديهيات، وهي ميْلُ المتكلمين إلى اليُسر والمجهود الأدنى بقطع النّظر عن درجة ذلك المجهود من الفصاحة.

---

(١) البيان، ٢٠/١.

(٢) نفسه، ١٤٦/١.

(٣) نفسه، ١٣/٤.

٣- شرح الفصيح في مؤلفات الجاحظ:

نظرًا إلى كثافة المستوى الفصيح على اختلاف درجاته، فإنّ معالجته في مستوى مؤلفات الجاحظ أمر يتجاوز هذا البحث الموجز، وسنكتفي في الجانب التحليلي بإيراد نماذج من مفردات وأحيانًا مركّبات فصيحة عمد الجاحظ إلى شرحها لما رأى فيها من غرابة أو لَبْسٍ على متكلّمي عصره، فبعضها ألفاظ بدويّة وبعضها متلازمات أو أمثال، أو أقوال مأثورة.. انقطع عهد المتكلّمين بها لانشغالهم بحياة المدنية وتوقُّف حاجاتهم على مفردات العصر.

فقد لاحظنا أنّ الجاحظ احتاج في سياق روايةٍ أو وصفٍ أو تحليلٍ إلى الاستطراد بُغْيَةَ تفسير ما غمُض. وقد يُنْهي الخبرَ ثمّ يُخصّص في نهايته قسمًا للشرح. وهذا دليل على وعْيه بأهمية مسألة الوضوح والفهْم، فذاك هو جوهر اللغة. فالغاية ليست في الإغراب أو التّرصيع، بل في البيان الذي من شرطه الوضوح وسهولة مفردات الخطاب. ولعلّه في هذه المهمّة يشبّه نفسه بابن عباس عندما قال: «إنّ أوّل من عرّف بالبصرة ابن عباس، صَعِد المنبر فقرأ سورة البَقَرة، ففسّرها حرفًا حرفًا، وكان مِثَجًّا يَسيل غَرْبًا». ويعلّق الجاحظ: «المثجّ: السائل الكثير، وهو من الثجّاج»(١). فهو بقدر حاجته إلى استعمال العربية الفصيحة، لا يشعر بأنّ بقيّة المتكلمين يشاطرونه الفهم. فيعود ليشرح ما غمض: «وأنا أعلم أنّي لو فسّرت لك معاني هذه الأشعار وغريبها لكان أتمّ للكتاب وأنفع لمن قرأ هذه الأبواب، ولكنّي أعرف ملالة الناس للكتاب إذا طال.» (٢).

(١) البيان، ١/ ٨٥.

(٢) الحيوان، ٦٦٢/٧.

وهذه الوظيفة التي جمع فيها بين الباحث المصنّف والمعجميّ الحريص على تبليغ رسالة اللغة بمختلف دقائقها، تناسب هوى في نفسه، فكثيرًا ما تحوّل إلى معجميّ يبني نصّ التعريف على قواعد أساسية ومرحلية مثل:

(١) التأليف الصوتي: فقد كان الجاحظ يشير في مناسبات عديدة إلى طريقة النّطق تدقيقًا لبعض الأصوات التي ربما غلط فيها الناس. كقوله: «الكشيش والقشيش: الفحيح صوت الحيّة مِنْ فيها، والكشيش والقشيش صوت جِلْدها إذا حكّت بعضه ببعض..» [(١)]؛ أو التمييز بين الحركات كقوله: «اللَّوْح بالفتح: العطش. يقال: لاح الرجل يلوح لوْحًا، والْتاح يلتاح التياحًا: إذا عطش. واللَّوْح بالفتح أيضًا: الذي يُكتب فيه. واللُّوح بالضمّ: الهواء»[(٢)]؛ أو تبادل الأصوات المتقاربة المخارج كقوله: «لازب ولازم واحد، واللازب في مكان آخر: اليابس. قال الله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ (الصافات: من الآية١١)؛ أو الهمز والتخفيف كقوله: والجأب: الحمار الغليظ الشديد، والجأبة: الأتان الغليظة. والجأب أيضًا مهموز: المغرة.» [(٣)]؛ أو القلب المكاني كقوله: «تُشيف: تشرف، يقال: أشاف وأشفى بمعنى واحد، أي أشرف»[(٤)]..

(٢) البنية الصرفية: فقد وجّه القارئ بملاحظاته الصرفية إلى ما غمض من

(١) الحيوان، ٤/٩٣.

(٢) البيان، ١/ ٢٨٠.

(٣) الحيوان، ٦/٤١٧.

(٤) البيان، ١/ ٣٨١.

اشتقاق كقوله: «اقتمّ: افتعل من القُمامة.» [1]؛ أو جموع: «الآكال: جمع أُكل، وهو ما يؤكل»[2]؛ «النجم: واحد وجمع. والنجم: الثريّا في كلام العرب.»[3]؛ تأسو: تداوي، أسوًا وأسى، مصدران. والآسي: الطبيب. [4]؛ أو تأنيث : «ويقال لولد الكلب: جرو، والأنثى: جروة،.. ويقال: كبش ونعجة ولا يقال: كبشة، كما لا يقال: أسدة، ويقال: أسد ولبوة... [5]»؛ أو تصغير: «وربما صغّروا الشيء عن طريق الشفقة والرقة، كما قال عمر: «أخاف على هذا العُرَيْب..» ويقال: كلّ (فُعَيْل) في أسماء العرب فإنّما هو على هذا المعنى.. وطريق التّحقير إنّما كقولهم: نُذَيْل.. وربّما كان التصغير خلقة وبنية لا يتغيّر كنحو الحُمَيَّا والسُّكَيْت والمُرَيْطاء، والسُمَيْراء،..»[6].

(٣) الدلالة المعجمية: كقوله: «مُعْتبطة: منحورة من غير داء. يقال: اعتُبط الإبل والغنم: إذا ذُبحت من غير داء. ولهذا قيل للدم الخالص: عبيط. والعبيط: ما ذبح بغير علة»[7]؛ «الأَلْيَس: من اللّيْس بمعنى الشجاعة»[8]؛ «أعكى: العُكْوَة: مغرز

---

(١) البيان، ١/ ١١٠.

(٢) نفسه، ١/ ١٨٣.

(٣) نفسه، ١/ ٢٢٩.

(٤) نفسه، ١/ ١٨٢.

(٥) الحيوان، ٢/٣٥٧-٣٥٨.

(٦) نفسه، ٣٣٧/١.

(٧) البيان، ١/ ٢٨٦.

(٨) الحيوان، ٢٩١/١.

الوركين في المؤخر»[1]..

(٤) وأحيانًا ما تولّد عنها من مجازات واشتقاقات: كقوله: «الأَيْم: الحيّة الذّكر يشبّهون به الزّمام، وربّما شبّهوا الجارية المجدولة الخصيصة الخواصر في مشيها بالأيم، لأنّ الحية الذكر ليس له غَبَبٌ، وموضع بطنه مجدول غير متراخ.»[2]؛ «تشكّت: مأخوذ من الشُّكوة، وجمع الشُّكوة شِكَاءٌ. والشكوة: مِسْك السَّخْلَة ما دامت ترضع. والشِّكاء أصغر من الوِطاب..»[3]؛ ويقال في السباع: قد وضعت وولدت، ورمضت مثلما يقال للناس والغنم[4].

لكنّ الجاحظ لا يسترسل في دقائق هذه الوظيفة المعجمية إلا لمامًا، لأنّه لا يرى فيها إلا رسالة تكميلية لتمام البيان. فيقول: «وليس يمنعني من تفسير كلّ ما يمرّ إلا اتّكالي على معرفتك. وليس هذا الكتاب نفعه إلا لمن روى الشعر والكلام، وذهب مذاهب القوم، أو يكون قد شدا منه شدوًا حسنًا.»[5].

ولعلّ من أسباب هذا الحرص اللغويّ المعجميّ ما يمكن تسميته بواقعية الجاحظ اللغوية الهادفة إلى تبليغ رسالة المعرفة إلى جميع المتكلمين. ولذلك نجده

(١) البيان، ١/ ٣٢٤.

(٢) الحيوان، ٩٦/٤. قال الجاحظ: وقال ابن ميادة: «قعدت على السعلاة تنفض مسحها وتجذب مثل الأيم في بلد قفر».

(٣) البيان، ١٦٠/٢-١٦١.

(٤) الحيوان، ٣٥٧/٢-٣٥٨.

(٥) البخلاء، ٢٢٠/٢. (جاء في الشرح: الكلام: كلام العرب وأحاديثهم وخطبهم. شدا: أخذ طرفًا من الأدب).

يقول في مستهلّ كتاب الحيوان: «إنّه كتاب معناه أنبه من اسمه، وحقيقته آنق من لفظه وهو كتاب يحتاج إليه المتوسط العاميّ، كما يحتاج إليه العالم الخاص.»(١). أي إنّ معجمه منفتح، فإذا كتب في العلم أجرى حكم العلماء، وإذا وصف الحرفيّين لم يجاوز مفردات موضوعاتهم وسائر ما يتعلّق بحياتهم الخاصة على بساطتها.. فإنّ القدرة على تصوير ذلك، لا يقلّ عن تصوير المفاهيم الدقيقة المتشعّبة. ولكنّه وفّق ربّما في تقديم أعماله على أنّها خطاب لجميع الناس.

ولذلك كان يَعُدّ الغرابة والتوعّر واللَّبْس من أهمّ العيوب التي تلحق المفردة، فلا يدرك القارئ معنى الكلمة إلا بالشّرح والتفسير، كما فعل هو نفسه عند رواية بعض الأخبار، فقد احتاج إلى شرح عدد كبير من معانيها كما سيأتي. لذلك قال: «إيّاك والتوعّر، فإنّ التوعّر يسلمك إلى التعقيد»(٢). وفعلاً فقد قاوم الجاحظ التوعّر عندما شرح أكثر ما بدا له غامضًا أو ملتبسًا غير مفهوم.

٣-١- الجاحظ المعجميّ:

لا يهدف الجاحظ بهذا العمل المعجميّ إلى ما تسعى إليه المعاجم عادة من حماية لغة مفترضة، أو تمجيد الفصيح الجميل.. بل إنّه يؤسّس لحقيقة الوظيفة المعجمية النّفعية فعمل على تكريس المشترك المتعارف عليه، ورفع اللَّبْس في ما لم يعد جماعيًّا من تجارب المتكلمين جميعًا. وهو ما يجعل الغموض ممكنًا، وسوء الفهم غير مؤتَمَن.

---

(١) الحيوان، ١/١٠.

(٢) البيان، ١/١٣٧.

لكنّ الطريف في جهد الجاحظ اقتران العمل المعجميّ بالاستعمال في أدق مظاهره. فإنّ الوحدة المعجمية المشروحة عنده ليست كيانًا ثابتًا خارج السياق محافظًا على هويّة أبدية، بل هي عنده حدث حيويّ شديد التّقلّب وفق ظروف الخطاب، خاصة إذا تعمّد المتكلّم المبالغة باسم التفاصح، فلا بدّ حينئذ من مساعدة المعجميّ لتجاوز مصاعب الخطاب. ولهذا وجد الجاحظ نفسه في خضمّ رسالته البيانيّة ألاّ يكتفي برسالة المبدع النّاثر، بل عليه أن يوسّع النص الأدبيّ أو العلميّ إلى نصوص داخليّة معجميّة لضمان وضوح الرسالة. وتلك وظيفة الأدب الأساسية.

ومن ثمّ لم ينصبَّ اهتمامه على الوحدات المعجميّة البسيطة فحسب، بل عالج الوحدات المعجمية المركبة والمعقّدة أيضًا، وعيًا منه بأنّها من الوحدات الضرورية لفهم الخطاب، فشرح المتلازمات والأمثال والتراكيب، كما اعتنى بتواردات المفردة في استعمالات شتى وأساليب متنوعة وحقول مختلفة..

ونحن نورد هذا الرّصيد المستخرج عفويًّا من مؤلفات الجاحظ، وفيه ميّزنا بين ضربين من الوحدات: وحدات معجمية بسيطة شرحها الجاحظ في ذاتها لتيسير الفهم؛ ووحدات معجميّة مركّبة أو معقّدة (أمثال ومتلازمات وعبارات، واستعمالات خاصة..) عدّها الجاحظ وحدات معجميّة تامة، لاستقلالها بدلالة خاصة بها لا ترتبط بدلالات مكوّناتها المباشرة.

٣-١-١- وحدات معجميّة بسيطة:

١. أحزم: «أحزم: منتفخ المحزم». * «قال الخُسُّ لابنته: أريد شراء فحل لإبلي. قالت: إن اشتريته فاشتره أسجح الخدّين، غائر العينين، أرقب، أحزم أعكى،

أكوم. إن عُصي غَشَم، وإن أُطيح تَجَرْثَمَ..» [1].

٢. أرِبٌ: «أرب: يقال: رجل أرب وأريب، وله إرب، إذا كان عاقلاً أديبًا حازمًا» [2].

٣. أرقب: «أرقب: غليظ الرقبة..» * «.. قالت إن اشتريته فاشتره أسجح الخدّين، غائر العينين، أرقب،..» [3].

٤. أرمى: «أرمى وأربى: سواء، يقال: فلان قد أرمى على المئة وأربى.» [4].

٥. أرمى : «الأرمى: التي قد أُرمت، فليس فيها أصل شجر.» * «قال أبو مجيب: إذا أجدب الرائدُ قال: وجدتُ أرضًا أرمى، وأرضًا عشْمى.» [5].

٦. أسجاع: «الأسجاع: الكلام المزدوج على غير وزن».

* «لساني بالنّثير وبالقوافي وبالأسجاع أمهر في الغواص» [6]

٧. أسجح: «أسجح: سهل واسع..». يقال: ملكت فأَسْجِح. [7]. * «قالت: إن اشتريته فاشتره أسجح الخدّين،..».

---

(١) البيان، ١/ ٣٢٤.

(٢) نفسه، ١/ ١٨٢.

(٣) نفسه، ١/ ٣٢٤.

(٤) نفسه، ١/ ١٣٤.

(٥) البيان، ٢/ ١٥٩.

(٦) نفسه، ١/ ١٧٩.

(٧) نفسه، ١/ ٣٢٤.

٨. أشجاع: «الأشاجع: عروق ظاهر الكفّ، وهي مغرز الأصابع»[١].

٩. أشوس: «الأشوس: الذي ينظر بمؤخر عينه»[٢].

١٠. أضلع: «أضلعته: يقال: ضلع الرجل: إذا خمع في مشيه»[٣].

١١. «أطرقت الأرض»: ويقال: * «أطرقت الأرض: إذا ركب التراب بعضه بعضا، فصار كطراق النعال طبقًا طبقًا.. والطّرْق بإسكان الراء : الضرب بالحصا، وهو من عمل أهل الزجر. وقال لبيد بن ربيعة[٤]:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع»[٥]

١٢. أعراق:«الأعراق: الأصول».[٦]..

١٣. أعصم: «الأعصم: الذي في عصمته بياض وفي المعصم منه سواد ولون يخالف لون جسده، والأنثى عصماء.»[٧]. * «وقال بشر:

والصدع الأعصم في شاهق وجأبة مسكنها الوعر»

١٤. أعكى: «أعكى: العُكْوَة: مغرز الوركين في المؤخر». * «قال الخُسُّ لابنته: أريد شراء فحل لإبلي. قالت: إن اشتريته فاشتره أسجح الخدّين، غائر العينين،

(١) البيان، ١/ ٢٣٢.

(٢) نفسه، ١٨٣/١.

(٣) نفسه، ١٨٣/١.

(٤) الشعر والشعراء ٢٣٨/١.

(٥) الحيوان، ٥/ ٣٧٩-٣٨٠.

(٦) البيان، ١/ ١٨٥.

(٧) الحيوان، ٤١٧/٦.

أرقب، أحزم أعكى،..»[١].

١٥. أفلج: «أفلجت: أظهرت»[٢].

١٦. اقتمّ: «اقتمّ: افتعل من القُمامة.»[٣]. * قال أبو الأسود الدؤلي:

«وشاعرِ سوْءٍ يُهْضِب القولَ ظالما كما اقتمَّ أعشى مُظْلِمُ الليل حاطبُ»

١٧. اقدعوا: «اقدعوا: انهوا.» * قيل: سمعنا الحسن يقول: «اقدعوا هذه النفوس فإنّها طلعة، واعصوها فإنّكم إن أطعتموها تنـزع بكم إلى شرّ غاية، وحادثوها بالذكر فإنّها سريعة الدُّثور.»[٤].

١٨. الآكال: جمع أُكل، وهو ما يؤكل[٥].

١٩. أكرم: «أكرم: عظيم السّنام.» * «قال الخُسُّ لابنته: أريد شراء فحل لإبلي. قالت: إن اشتريته فاشتره أسجح الخدّين، غائر العينين، أرقب، أحزم أعكى، أكوم..»[٦].

٢٠. أليس: «الأَلْيَس: من الليْس بمعنى الشجاعة». * «أَلْيَس: ..إنّ الرجل إذا قاتل في الحرب وأقدم ولم يحجم فهو الشجاع، فإن زاد فهو البطل، فإن زاد قالوا:

(١) البيان، ١/ ٣٢٤.

(٢) نفسه، ١/ ٢٢٣.

(٣) نفسه، ١/ ١١٠.

(٤) نفسه، ١/ ٢٩٨.

(٥) نفسه، ١/ ١٨٣.

(٦) نفسه، ١/ ٣٢٤.

بُهْمة، فإن زاد قالوا: ألْيَس. فهذا قول أبي عبيدة.» [1].

٢١. امتناء: «الامتناء: انتظارك الناقة، إذا ضُربت، ألاقح هي أم لا؟» [2] .

٢٢. أمكن: «أمكنت الجرادة فهي تمكن إمكانًا: إذا جمعت البيض في جوفها، واسم البيض: المَكَن... فإذا باضت قيل: سرأت تسرأ سرْءًا حين تلقي بيضها»[3].

٢٣. أناة: «الأناة: المرأة التي فيها فتور عند القيام.» [4].

٢٤. انشمر: «انشمر: جدّ في الهرب.» [5].* «وقال آخر: خطوَ الظليم رِيع مُمْسًى فانشمر».

٢٥. أنشر: «أنشرت الأرض إنشارًا، إذا بُذرت فخرج منها بذرها. فعند ذلك يقال: ما أحسن يشرة الأرض»[6].

٢٦. أيم: «الأيم: الحية الذكر يشبهون به الزمام، وربما شبهوا الجارية المجدولة الخصيصة الخواصر في مشيها بالأيم، لأنّ الحية الذكر ليس له غبب، وموضع بطنه مجدول غير متراخ.» [7]؛ *وقال الأصمعي: «يقال للحية: أيّم، وأيْم، مثقل

(١) الحيوان، ١/٢٩١.

(٢) نفسه، ٥/٣٧٨.

(٣) نفسه، ٦/٣٤٠.

(٤) البيان، ١/ ٢٢٣.

(٥) نفسه، ١/ ١٢٦.

(٦) الحيوان، ٥/٣٧٣.

(٧) نفسه، ٤/٩٦. قال الجاحظ: وقال ابن ميادة:

«قعدت على السعلاة تنفض مسحها   وتجذب مثل الأيم في بلد قفر».

ومخفف نحو ليّن ولين، وهيّن وهين..» [1].

٢٧. أين: الأيْن: الإعياء. [2]. * ممّا مدح به العمانيّ هارون الرشيد:

«جهير العُطاس شديد النـ ـياط جهيرُ الرّواء جهيرُ النّغمْ

ويخطو على الأيْن خطوَ الظليم ويعلو الرجالَ بجسمٍ عَمَمْ»

٢٨. أيهم: «الأيهم من الرجال: الحائر..» [3].

٢٩. باهل: «باهل: الرجل إذا لم يكن معه عصا فهو باهل. وناقة باهل وباهلة، إذا كانت بغير صرار» [4].

٣٠. براث: «البِراث: الأماكن الليّنة السهلة واحدها بَرْث».

* قال أعرابيّ يصف أرضًا: «هضاب حمرٌ وبِراثٌ عُفْرٌ..» [5].

٣١. البظراء: * «والبظراء تجد من اللذة ما لا تجده المختونة..» [6].

٣٢. تأسو: «تأسو: تداوي، أسوًا وأسىً، مصدران. والآسي: الطبيب.

*قال شُتيْم بن خويلد:

وقلت لسيّدنا يا حليـ . . . . . . ـمُ إنّك لم تأسُ أسْوًا رفيقا» [7]

---

(١) الحيوان، ٤/ ١٠٠.

(٢) البيان، ١/ ١٢٦.

(٣) نفسه، ١/١٧٧.

(٤) نفسه، ٣/٧٤. الصرار: خيط يشدّ فوق خلف الناقة لئلا يرضعها ولدها.

(٥) نفسه، ١/٣٣٤.

(٦) الحيوان، ٧/٥٩٥.

(٧) البيان، ١/ ١٨١- ١٨٢.

٣٣. تأطر: «تأطّر: تتثّنى»[1].

٣٤. تترّع: «تترّع: تسرّع، والمترّع: الشرير المسارع إلى ما لا ينبغي له. يقول: فهؤلاء أصحاب تحنّ وتترّع»[2]. وهذه من المفردات التي زالت من الاستعمال. وربما كان من أهداف المعجم التاريخي البحث في عوامل ذلك.

٣٥. التتفل: «التتفل: هو الثعلب..»[3].

*وقال بشر:

«والحية الصماء في جحرها والتتفل الزائغ والذر»

٣٦. تجرثم: «تجرثم: أي بقي، مأخوذ من الجرثومة، وهي الطين والتراب يُجمع حول النخلة ليقويها.»[4].

*«..إن عُصي غَشَم، وإن أُطيح تَجَرْثَم.»..

٣٧. تريع: «تريع: ترجع إليه.»

* قال طحلاء يمدح معاوية:

«رَكوب المنابر وثّابها مِعَنٌّ بخطبته مِجهـَر
تَريع إليه هوادي الكلام إذا ضلّ خطبتَه المِهذَرُ»[5].

(١) البيان، ١/ ١٩٨.

(٢) البخلاء، ١/١٤٦.

(٣) الحيوان، ٦/٤٩٨.

(٤) البيان، ١/ ٣٢٤.

(٥) نفسه، ١/ ١٢٧.

٣٨. تزاره: «تزارّه: تعاضّه، والزرّ: العضّ».

* قال أبو الأسود: «فما فعلت امرأته التي كانت تُهارُّه وتُشارُّه وتجارُّه وتُزارُّه؟ قال: طلّقها فتزوّجت غيره، فرضيت وحظيت وبظيت..» [1].

٣٩. تشكت: «تشكّت: مأخوذ من الشّكوة، وجمع الشكوة شِكاء. والشكوة: مسك السَّخْلَة ما دامت ترضع. والشِّكاء أصغر من الوطاب..» [2].

٤٠. تشيف: «تُشيف: تشرف، يقال: أشاف وأشفى بمعنى واحد، أي أشرف» [3]. * قال أبو يعقوب الأعور:

وخلجة ظنٍّ يسبق الطرفَ حزمُها تُشيفُ على غُنْمٍ وتُمْكِنُ من ذَحْلِ
صدعتُ بها والقومُ فوضى كأنّهـ ـم بِكارةُ مِرْباعٍ تُبصْبِص للفحـ ـلِ

٤١. تطلّ: «تطُلُّها: تذهب بحقّها، يقال: دم مطلول..» * «رأيتهم يديرون في كتبهم أنّ امرأة خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر. فانتهرها مرارًا. فقال له يحيى بن يعمر: أئن سألتك ثمن شَكْرِها وشَبْرِكَ أنشأتَ تَطُلُّها وتَضْهَلُها.» [4].

٤٢. تعذّر: «تعذّر: تمنّع.» [5].

٤٣. تعفير: «التعفير: وهو أن ترضع البهيمة أو اللبؤة ولدها، وتمنعه حتى يجوع،

(١) البيان، ١/ ٣٧٩.
(٢) نفسه، ٢/ ١٦٠-١٦١.
(٣) نفسه، ١/ ٣٨١.
(٤) نفسه، ١/ ٣٧٨.
(٥) نفسه، ١/ ١٨٣.

ويطلب اللحم إن كان سبعًا، والعشب إن كان بهيمة..»[1].

٤٤. تلاد: «التِّلاد: القديم من المال».

الواهب المال التِّلاد ندًى ويكفينا العظيمه

ويكون مِدرَهَنَا إذا نزلت مُجَلِّحَةٌ عظيمه ..[2]

٤٥. تلألأ: «تلألأ: التلألؤ: ظهور البرق في سرعة».

* «أرقتُ بضوء برق في نَشاص تلألأ في مُملأة غِصاص»[3]

٤٦. تناه: التّناهى: واحدها تَنْهية، وهي مستقرّ السيْل وحيث ينتهي الماء».

* «ووصف أعرابيّ أرضًا أحمدها فقال: .. وعمِد ثراها، وعَقَدت تناهيها، وأماهت ثِمادُها، ووثق الناسُ بصائرتها.»[4].

٤٧. تنبال: «التِّنْبال: القصير الدنيء..»

* «شُمْسٌ إذا خَطِل الحديثُ أوانسٌ يرقُبْن كلَّ مُجَذَّر تِنْبال»[5]

٤٨. تنتخ: «تنتخ: أي تنزع وتستخرج. والعرب تسمي المنقاش المنتاخ..».

* وقال زهير:

«تنبذ أفلاذها في كلّ منزلة تنتخ أعينها العقبان والرّخم»[6]

---

(١) الحيوان، ٢/١٩٩.

(٢) البيان، ١/ ١٨٣.

(٣) نفسه، ١/ ١٧٨.

(٤) نفسه، ٢/ ١٥٥.

(٥) نفسه، ١/ ١١٠.

(٦) الحيوان، ٦/٥١١.

٤٩. تيتل: «التيتل: شبيه بالوعل..» *قال بشر بن المعتمر:

« من خلقه في رزقه كلهم الذيخ والتيتل والعفر»(١)

٥٠. ثلّة: «الثلّة: الضّأن الكثيرة، ولا يقال للمِعزى ثلة ولكن حَيْلة..» (٢).

٥١. جأب: «الجأب: الحمار الغليظ الشديد، والجأبة: الأتان الغليظة. والجأب أيضًا مهموز: المغرة.» (٣).

*وقال بشر:

والصدع الأعصم في شاهق وجأبة مسكنها الوعر

٥٢. جادة: «الجادة والحَرَجة والمحبّة معناه كلّه: وسط الطريق ومعظمه ومنهجه.». *«وصف رائد أرضًا جدبة فقال: اغبرّت جادتُها، ودُرِّعَ مرتعُها، وقَضِمَ شجرُها،..»(٤).

٥٣. جُحام: «الجُحام: فأما المكلب الذي يصيب كلابه داء في رؤوسها يسمى الجُحام فتكوى بين أعينها. والجحام: داء يصيب الإنسان في عينه فترم. وقيل هو داء يصيب الكلب..» (٥).

٥٤. جُدف: «الجدف: وقيل لرجل: ما شرابهم؟ قال: الجدف، وهو كلّ شراب

---

(١) الحيوان، ٦/٤٩٧.

(٢) البيان، ١/ ١٨٤.

(٣) الحيوان، ٦/٤١٧.

(٤) البيان، ٢/ ١٥٣.

(٥) الحيوان، ٢/١٥.

لا يخمّر..» [1].

٥٥. جِرار: «الجِرار: عود يُعرض في فم الفصيل، أو يشقّ به لسانه لئلاّ يرضع..»[2].

٥٦. الجلس: * «الجلس: هو ما ارتفع، والغور: ما انخفض»[3].

٥٧. جمة: «الجمة: الجماعة يمشون في الصلح:

*وجمة أقوام حملت ولم تكن لتوقد نارًا إثرهم للتندّم»[4]

٥٨. جُناجا: «الجناجن: عظام الصدر».

* رأت رجلاً أودى السِّفار بجسمه فلم يبق إلا منطق وجناجن[5]

٥٩. جوى: «الجوى: شدّة الحبّ حتى يمرض صاحبه..»

* «حديث كطعم القطر في المحل به من جوى في داخل القلب لاطفِ»[6]

٦٠. حادثوا: «حادثوا: أي اجعلوا واشحذوا» [7].

٦١. حاصن: «الحاصن: العفيف.» * وقال العجاج:

(١) الحيوان، ٤/١٠١.

(٢) البيان، ١/ ٢١٤.

(٣) الحيوان، ٢/٣٤١.

(٤) نفسه، ٤/ ١٧٢.

(٥) البيان، ١/ ٢٢٧.

(٦) نفسه، ١/ ٢٨١.

(٧) نفسه، ١/ ٢٩٨.

«وحاصنٍ من حاصناتٍ مُلْسٍ من الأذى ومن قِراف الوقْسِ»[1]

٦٢. حبلات: «الحُبُلات: كلّ ما تزيّنت به المرأة من حسن الحليّ، والواحدة: حُبْلة».

*قال النّمر بن تولب:

«وكلّ خليل عليه الرّعا ث والحُبُلات ضعف مَلِقْ»[2]

٦٣. الحرقوص: * «وأما الحرقوص فزعموا أنّه دويبة أكبر من البرغوث»[3].

٦٤. حشرجة: «الحشرجة: صوت الصدر.»

*قال رؤبة يصف حمارًا:

«حشرج في الجوف سحيلاً وشهق حتى يُقال ناهق وما نهق»[4]

٦٥. حِظاء: «حظاء: .. وإذا كانت قناةً فكلّ شِقّة منها قوسُ بُنْدُق، فإن فُرّقت الشُّقةُ صارت حِظاءً، وهي سهام صغار. قال الطرماح: «أَكَلْبٌ كحِظاءِ الغلامْ». والواحدة حَظْوة وسِرْوة، فإن فُرّقت الحِظاء صارت مغازلَ، فإن فُرّق المغزل شَعَبَ به الشَّعَّابُ أقداحه المصدوعةَ، وقِصاعه المشقوقة..»[5].

٦٦. حظيت: «حظيت : من الحظوة. وبظيت: إتباع لحظيت.»

(١) البيان، ١/ ٢٣٢.

(٢) نفسه، ١٢/١.

(٣) الحيوان، ٥٥٨/٦.

(٤) البيان ١٥١/١.

(٥) نفسه، ٤٩/٣-٥٠.

* قال أبو الأسود: «فما فعلت امرأته التي كانت تُهارُّه وتُشارُّه وتجارُّه وتُزارُّه؟» قال: «طلّقها فتزوّجت غيره، فرضيت وحظيت وبظيت.»[(١)].

٦٧. حُلاحلا: «الحُلاحل: السيد».

*قالت الجُهينة:

« ألا هلك الحلوُ الحلال الحُلاحل ومن عنده حلم وعلم ونائـ . ـل
بصير بعورات الكلام إذا التقى شريجان بين القوم حقٌّ وباطلُ»[(٢)].

٦٨. حِلال: «الحِلال: الجماعات، ويقال: حيّ حِلال: إذا كانوا متجاورين مقيمين..».

* «طباقاء لم يشهد خصومًا ولم يعشْ حميدًا ولم يشهد حِلالاً ولا عِطْرا»[(٣)]

٦٩. حُلّة: «الحلّة: لا تكون إلا ثوبين.»

* وقال العمانيّ:

«إذ هنّ في الرَّيْطِ وفي الموادع تُرْمَى إليْهنّ كبذْرِ الزّارِع»[(٤)]

٧٠. حِلف: «الحلف: أصل الحلف والتحالف إنما هو من الحلف والأيمان..»[(٥)].

٧١. حنفقيق: «حنفقيق: داهية أيضًا»[(٦)].

---

(١) البيان، ١/ ٣٧٩.

(٢) نفسه، ١/ ٢١٥.

(٣) نفسه، ١٧٦/١.

(٤) نفسه، ١٥٨/١.

(٥) الحيوان، ١٧٢/٤.

(٦) البيان، ١/ ١٨٢.

٧٢. ختارم: «الختارم: هو المتكبر من الرجال..» * وأنشد لحاتم بن علي:

«ولكنه يمضي على ذاك مقدمًا إذا   صدّ عن تلك الهناة الختارم»[١]

٧٣. خَرْش: «الخَرْش: أن يضرب الجمل بمحجنه».

* جاء في حديث أنّ أبا بكر رحمه الله أفاض من جمع وهو يَخْرِشُ بعيره بمحجنه[٢].

٧٤. خرشاء: «الخرشاء: القشرة الغليظة بعد أن تنقب، فيخرج ما فيها، وجماعة الخراش غير مهموز. قال: وخرشاء الحية: سلخها حين تسلخ..»..

*وقال مرقّش: «إن يغضبوا يغضب لذاكم كما ينسلّ عن خرشائه الأرقم»[٣]

٧٥. خصاص: «الخصاص هاهنا: خلل السحاب».

* «لواقح دُلّحٍ بالماء سُحْمٍ   تمجّ الغيْثَ من خلل الخصاص»[٤]

٧٦. خطيف: «الخطيف: السريع، أي يخطف كما يخطف البرق. وخَيْطَف: من الخطف، والياء في خيطف زائدة، كما قالوا رجل جَيْدَرٌ من الجَدَر وهو القِصَر. وأصل الخطف: الأخذ في سرعة ثم استعير لكلّ سريع.»[٥]. *قال الخطفيّ:

يرفَعْن بالليل إذا ما أسْدَفا   أعناقَ جِنَانٍ وهامًا رُجّفا

(١) الحيوان، ٣ /٥٦٤.

(٢) البيان، ٣/ ٨٥. جاء في حديث أنّ أبا بكر رحمه الله أفاض من جمع وهو يَخْرِشُ بعيره بمحجنه.

(٣) الحيوان، ٤/ ٩٨.

(٤) البيان، ١/١٧٨.

(٥) نفسه، ١/٣٦٦. ثم شرح عددًا من المفردات. (وانظر: البيان، ١/ ٣٣٤).

وعَنَقًا باقي الرّسيم خَطيف

٧٧. خفرات: «الخفرات: الحييات..» [١].

٧٨. خوْد: «الخَوْد: الحسنة الخَلْق.» [٢].

٧٩. خون: «الخون : الخيانة.» *قال الحارث بن حِلّزة: ..

«حذرَ الخَوْن والتّعدّي وهل تنْ . . قُصُ ما في المهارق الأهواءُ» [٣]

٨٠. دُثور: «الدُّثور: الدروس. يقال: دثر أثر فلان: إذا ذهب، كما يقال: درس وعفا.»...

*قال الجاحظ: قيل: سمعنا الحسن يقول: «اقدعوا هذه النفوس فإنّها طلعة، واعصوها فإنّكم إن أطعتموها تنـزع بكم إلى شرّ غاية، وحادثوها بالذكر فإنّها سريعة الدُّثور.» [٤].

٨١. دلّح: «الدّلّح: الدانية الظاهرة المثقلة بالماء.» [٥].

*لواقح دُلّح بالماء سُحْمٍ تمجّ الغيْثَ من خَلل الخصاص

٨٢. دلف: «دلفت: أي نهضت نهوضًا رويدًا. والدليف: المشي الرّويد.»

* قال نافع بن خليفة الغنويّ:

(١) البيان، ١/ ٢٢٣.

(٢) نفسه، ١/ ١٩٨.

(٣) نفسه، ٣/ ٧.

(٤) نفسه، ١/٢٩٨.

(٥) نفسه، ١/١٧٨.

وخصمٍ لدى باب الأمير كأنّهم قُرومٌ فشا فيها الزوائر والهدرُ
دلفت لهم دون المنى بملمّ ـة من الدُّرّ في أعقاب جوهرها شَذْر.. [1]

٨٣. ديمة: «ديمة: واحدة الديم، وهي الأمطار الدائمة مع سكون.» [2].

٨٤. ذفر: «الذّفر: الكثير العرق. » *قال العمانيّ:

لا ذفرٌ هشٌّ ولا بكابي ولا بلجلاج ولا هيّاب[3]

٨٥. ذيخ: «الذيخ: ذكر الضبع.» *قال بشر بن المعتمر:

من خلقه في رزقه كلهم الذيخ والتيتل والعفر[4]

٨٦. رباح: «الرباح: ولد القردة»،

* وقال بشر:

وإلقة تُرعث رُبّاحها والسَّهل والنَّوفل والنضرُ[5]

٨٧. رَتبة: «الرَّتَبَة: واحدة الرَّتَب والرَتبات، وهي الدّرج.» [6].

٨٨. رذمة: «رذمة: سائلة من امتلائها.» [7].

---

(١) البيان، ١٧٦/١.

(٢) نفسه، ١/ ١٨٣.

(٣) نفسه، ١/ ١٣٤.

(٤) الحيوان، ٤٩٧/٦.

(٥) الحيوان، ٥٠٢/٦.

(٦) البيان، ١٨٣/١.

(٧) نفسه، ١/ ٢٨٦.

٨٩. رعاث: «الرّعاث: القِرَطة.» * قال النّمر بن تولب:

وكلّ خليل عليه الرِّعا ث والحُبُلات ضعيف مَلِقْ[١]

٩٠. رعث: «رعث: ترعث: ترضع.» *وقال بشر:

وإلقة تُرعث ربّاحها والسهل والنوفل والنضر[٢]

٩١. ركاب: «الركاب: ما ركب من الإبل..»[٣].

٩٢. رمة: «الرمة : قيل لرجل: ما كان طعامهم؟ قال: الرمة، يريد: العظم البالي.»[٤] .

٩٣. رواب: «الرّوابي: البيوت الشريفة. وأصل الرابية والرّباوة: ما ارتفع من الأرض.»[٥].

٩٤. روق: «الرّوَق: ركوب السّنّ الشفة.». «ومن الخطباء من كان أضغى وأشدق، وأروق..»[٦].

٩٥. ريْط: «الرَّيْط: الثياب، واحدها رَيْطَة، والريطة: كلّ مُلاءة لم تكن لِفقيْن.» * وقال العمانيّ:

---

(١) البيان، ١٢/١.

(٢) الحيوان، ٥٠٢/٦.

(٣) البيان، ١/ ٢٨٨.

(٤) الحيوان، ١٠١/٤.

(٥) البيان، ١/ ٢٢٣.

(٦) نفسه، ١/ ٥٥.

«إذ هنّ في الرَّيْطِ وفي الموادع تُرْمَى إليْهنّ كبذْرِ الزّارِعِ»[1]

٩٦. ريع: «ريع: فُزِع.»[2].

* «خطوَ الظليم رِيع مُمْسًى فانتشر».

٩٧. زعامة: «الزعامة : مصدر الزعيم الذي يسود قومه..»[3].

٩٨. الزّفّان: * «تكلم عمر بن ذرّ فصاح بعض الزّفّانين صيحة، فلطمه رجل فقال عمر بن ذرّ: ما رأيت ظلمًا أوفق لي من هذا.»[4]. «والزّفّانون هنا هم الذين يزفُنون، أي يرقصون»، ويقال: «هم زفّانة حفّانة يرقصون ويجرفون الطعام».[5].

٩٩. زُهاء: «الزهاء: الكثرة ههنا.»

* وقال الأسلع بن قِصاف:

فداء لقومي كُلُّ معشر جارم طريد ومخذول بما جرّ مُسْلَم..

همُ أفحموا الخصم الذي يستقيدُني وهم فصموا حِجلي وهم حقنوا دمي

بأيد يفرِّجْن المضيق وألسُن سِلاطٍ وجمعٍ ذي زُهاء عرمرم[6]

---

(١) البيان، ١/١٥٨.

(٢) نفسه، ١/ ١٢٦.

(٣) نفسه، ١/ ٢٣٢.

(٤) نفسه، ٢/٢٩٤.

(٥) نفسه، ٢/٢٩٤.

(٦) نفسه، ١/١٧٧.

١٠٠. زوائر: «الزوائر : الذين يزأرون.» *قال نافع بن خليفة الغنويّ:

وخصمٍ لدى باب الأمير كأنّهم قُرومٌ فشا فيها الزوائر والهدرُ

دلفت له دون المنى بملمة من الدُّرِّ في أعقاب جوهرها شَذر.. [1]

١٠١. سحاة: «السّحاة مقصورة: اسم الخفافيش ، والجمع سحا..» [2].

١٠٢. سُحْم: «سُحْم: سود».

*«لواقح دُلّح بالماء سُحْم تمجّ الغيْثَ من خلل الخَصاص» [3]

١٠٣. سحيل: «السحيل: صوت الحمار إذا مدّه.»

*وقال رؤبة يصف حمارًا:

«حشرج في الجوف سحيلاً وشهق حتى يُقال ناهق وما نهق» [4]

١٠٤. سرأ: * «فإذا باضت قيل: سرأت تسرأ سرْءًا حين تلقي بيضها» [5].

١٠٥. سريح: «سريح: عَجِل، مُريح: أي مريح من كدّ الطلب.»

*وصف أعرابيّ رجلاً فقال:«إنّ رِفْدكَ لَنَجيح، وإنّ خيرَك لَسَريح، وإنّ منعَكَ لَمُريح» [6].

---

(١) البيان، ١/١٧٦.

(٢) الحيوان، ٣/٦٠٤.

(٣) البيان، ١/١٧٨.

(٤) نفسه، ١/١٥١.

(٥) الحيوان، ٦/٣٤٠.

(٦) البيان، ١/ ٢٩٨.

١٠٦. سِعْلاة: «السّعلاة اسم لواحدة من نساء الجنّ تتغوّل لتفتن السفار.» [١].

١٠٧. سهل: «السهل: الغراب..»

* وقال بشر:

وإلقة ترفث رُبّاحها والسهلُ والنوفل والنضر[٢]

١٠٨. سواجير: «العصا تقطّع ساجورًا، وتفطع عصا الساجور فتصير أوتادًا، ويفرّق الوتد فيصير كلّ قطعة شِظاظًا، والسواجير تكون للكلاب والأسرى من الناس». وقال النبيّ ﷺ: «يُؤتى بناس من هنا هنا يُقادون إلى حظوظهم بالسواجير» [٣].

١٠٩. شأو: «الشأو: الغَلْوة لركض الفرس.»..

*قال شتيم بن خويلد:

أعنتَ عديًّا على شأوها تعادي فريقًا وتبقي فريقا[٤]

والشأو أيضًا: الروث. *قال الشماخ:

وأن يلقيا شأوًا بأرض هوىً له معرّف أطراف الذراعين أفلح

ويقول الجاحظ: كأنّه كثر حتى ألحقه بالشأو الذي يخرج من البئر.. أي التراب الذي قد سقط فيها؛ وهو شيء كهيئة الزنبيل الصغير؛ والشأو: الطلق؛ والشأو:

(١) الحيوان، ٦/٤٤٢.

(٢) نفسه، ٦/٥٠٢.

(٣) البيان، ٣/٤٩-٥٠.

(٤) نفسه، ١/ ١٨٢.

القوت..[1].

١١٠. شبر: «الشبر: النكاح.» * «رأيتهم يديرون في كتبهم أنّ امرأة خاصمت زوجها إلى يحي بن يعمر. فانتهرها مرارًا. فقال له يحي بن يعمر: أئن سألتك ثمن شَكْرِها وشَبْرِكَ أنشأتَ تَطُلُّها وتَضْهَلُها.»[2].

١١١. شبر: «الشَّبْر: قدر القامة. نقول: كم شبر قميصك؟ أي كم عدد أشباره؟» *ووصف أعرابي رجلاً فقال: «صغير القدر، قصير الشَّبْر، .. لئيم النَّجْر»[3].

١١٢. شبمة: «شبمة: باردة. الشَّبَم: البرد.»[4].

١١٣. شرم: «الشرم: العشب الضخم...» .*«وجدتُ خُشْبًا هَرْمى وعُشْبًا شَرْما»[5].

١١٤. شريجان: «شريجان: جنسان مختلفان من كلّ شيء.»[6].

١١٥. شكْر: «الشكر: الفرج.» * «..أئن سألتك ثمن شَكْرِها وشَبْرِكَ أنشأتَ تَطُلُّها وتَضْهَلُها.»[7].

---

(١) الحيوان، ٥٩٢/٧.

(٢) البيان، ١/ ٣٧٨.

(٣) نفسه، ١/ ٢٨٤.

(٤) نفسه، ١/ ٢٨٧.

(٥) نفسه، ٢/ ١٥٨.

(٦) نفسه، ١/ ٢١٥.

(٧) نفسه، ١/ ٣٧٨.

١١٦. شُمْس: «الشُّمس، مأخوذ من الخيل، وهي الخيل المرحة الضاربة بأذنابها من النشاط.»

*«شُمْسٌ إذا خَطِل الحديثُ أوانسٌ   يرقُبْن كلَّ مُجَذَّر تِنْبال»(١)

١١٧. شهيق: «الشهيق: أن يقطّع الصوت» .

*وقال رؤبة يصف حمارًا:

«حشرج في الجوف سحيلاً وشهق   حتى يُقال ناهق وما نهق»(٢)

١١٨. شَوْل: «الشّول: جمع شائلة، وهي الناقة التي قد جفّ لبنها. وإذا شالت بذنبها للقاح فهي شائل، وجمعها شُوَلٌ«. *قال العُجَيْر السلولي:

وإنّ ابن زيد لابنُ عمّي وإنّه   لبلاّل أيدي جِلّة الشَوْل بالدم

طَلوع الثنايا بالمطايا وإنّ ه   غداةَ المُرادي لَلْخَطيب المقدّم(٣)

١١٩. صائرة: «الصائرة: الكلأ والماء..»

* «ووصف أعرابيّ أرضًا أحمدها فقال: «.. وسمنت قَتُوبتُها، وعمِد ثراها، وعَقَدت تناهيها، وأماهت ثِمادُها، ووثق الناسُ بصائرتها..» (٤).

١٢٠. صاد: «الصادي: العطشان، والاسم الصدى..» (٥).

(١) البيان، ١/ ١١٠.

(٢) نفسه، ١٥١/١.

(٣) نفسه، ١/ ٢١٢.

(٤) نفسه، ٢/ ١٥٥.

(٥) نفسه، ٢٧٩/١.

١٢١. صدع: «الصدع: الشاب من الأوعال.» *وقال بشر:

والصدع الأعصم في شاهق وجأبة مسكنها الوعر[1]

١٢٢. صرد: «صرد: مكان مطمئنّ..». * قال مالك بن مرداس:

أخاف أن تكون مثل هرّ أو ثعلب أضيع بعد حُرّ

هاجت به مخيلة الأظفر عسراء في يوم شمال قرّ

يجول منها لثق الذعر بصرد ليس بذي محجر[2]

١٢٣. صفا: «الصّفا: جمع صفاة وهي الصخرة.». * أنشد محمد بن زياد:

«وسبٍّ يودّ المرْءُ لو مات قبله كصدع الصّفا فلّقْتَه بالمعاول»[3]

١٢٤. ضجم: «الضَّجَم: اعوجاج في الفم..».

* قال النّمر بن تولب في شُنْعة أشداق الجمل:

كم ضربةٍ لك تحكي فاقراسيةٍ من المصاعب في أشداقه شنعُ[4]

١٢٥. ضرّة: «الضّرّة: أصل الضّرع.» .

* «ويقال ضرّة شكرى، إذا امتلأت من اللبن»..[5].

١٢٦. ضمنة: «ضمنة: مريضة.»[6].

---

(١) الحيوان، ٦/٤١٧.

(٢) نفسه، ٦/٥٠١.

(٣) البيان، ١/١٥٧.

(٤) نفسه، ١/ ٥٥.

(٥) نفسه، ٢/ ١٥٥.

(٦) نفسه، ١/ ٢٨٦.

١٢٧. ضهل: «الضّهل: التقليل. يقال: بئر ضَهول: أي قليلة الماء..».

١٢٨. طارف: «الطارف: المستفاد.» [١].

١٢٩. طباقاء: «طباقاء: يقال للبعير إذا لم يحسن الضراب: جمل عَياياء، وجمل طباقاء. وهو هنا للرجل الذي لا يتّجه للحجّة.»

١٣٠. «طرقت القطاة بيضها: إذا حان خروجه وتعطلت به شيئًا..» [٢].

١٣١. طلعة: «طُلعة: أي تطّلع إلى كلّ شيء.» * قيل: سمعنا الحسن يقول: «اقدعوا هذه النفوس فإنّها طلعة، واعصوها فإنّكم إن أطعتموها تن ـزع بكم إلى شرّ غاية، وحادثوها بالذكر فإنّها سريعة الدُّثور.» [٣].

١٣٢. طمش: «الطمش: الخلق.».

* قال الكردوس المرادي:

تسألني عن نارها ونتاجها وذلك علم لا يحيط به الطمش[٤]

١٣٣. طملال: «الطملال: الفقير..». *وقال أوس بن حجر:

أبا دُليجةَ من يُوصَى بأرملة

أم مَنْ لأشْعَثَ ذي طِمْرَيْن (أي هدمين) طِمْلال[٥]

(١) البيان، ١/ ١٨٣.

(٢) الحيوان، ٥/ ٣٧٩-٣٨٠.

(٣) البيان، ١/٢٩٨.

(٤) الحيوان، ١٨٠/٤.

(٥) البيان، ١/ ١٨١.

١٣٤. طواعين: «الطواعين: هي عند العرب رماح الجنّ». * وفي الحديث: «إنّ الطّاعون وخز من الشيطان».(١).

١٣٥. ظبات: «الظُّبات: جمع ظُبّة، وهي حدّ السيف والسنان وغيرهما»..

* قال الراجز:

صفراءُ فرعٍ خطَموها بوتر لأْمٍ مُمَرٍّ مثل حُلْقوم النُّغَرْ

حدتْ ظُبات أسهمٍ مثل الشَرَرْ فَصَرَّعتْهنَّ بأكناف الحُفَرْ(٢)

١٣٦. ظليم: «الظليم: ذكر النّعام.»

* ممّا مدح به العمانيّ هارون الرشيد:

ويخطو على الأيْن خطوَ الظليم ويعلو الرجالَ بجسمٍ عَمَمْ(٣)

١٣٧. عاصب: «عاصبه: يابسه.»

* «وإن خطرت أيدي الكماة وجدتني نَصورًا إذا ما استيْبَسَ الريقَ عاصِبُهْ»(٤)

١٣٨. عبقريّ: «عبقريّ: قال حاتم:

عليهنّ فتيان كجنّة عبقرا يهزون بالأيدي الوشيج المقوما

ولذلك قيل لكلّ شيء فائق أو شديد: عبقريّ..». قال أعرابيّ: «ظلمني والله ظلمًا

(١) الحيوان، ٣٥١/١.

(٢) البيان، ١/ ٢٨٣.

(٣) البيان، ١/ ١٢٦.

(٤) نفسه، ١٨٠/١.

عبقريًا». [1].

١٣٩. عِداد: «العداد: الوقت، يقال إنّ تلك اللسعة لتعتاده إذا عاد الوجع في الوقت الذي لسع فيه».. وذكر النبي ﷺ.. السم الذي كان في الحمل المصلي الذي كانت اليهود قدمته إليه فنال منه، فقال: «إنّ تلك الأكلة لتعتادني»..

* وأنشد العبدي:

«تلاقى من تذكر آل ليلى كما يلقى السليم من العداد» [2]

١٤٠. عَرْم: «العَرْم: بيض القطا، لأنّها منقطعة».

* وقال أبو وجزة:

مازلن ينبسن وهنًا كلّ صادقة باتت تباشر عَرْمًا غير أزواج [3]

١٤١. عرمرم: «العرمرم: من العرامة، وهي الشراسة والشدة..».

* وقال الأسلع بن قِصاف:

فداء لقومي كُلُّ معشر جارم طريد ومخذول بما جرّ مُسْلَم..
بأيد يفرِّجْن المضيق وألسُن سِلاطٍ وجمعٍ ذي زُهاء عرمرم [4]

١٤٢. عَشْمى: «العشْمى: التي يُرى فيها الشجر الأعشم، وإنّما يعشم من الهبوة. ويقال للشيخ: إنّما هو عَشَمة، لاستشنان جلده، وجفوف رأسه،

(١) الحيوان، ٦/٤٥٣.

(٢) نفسه، ٤/٩٩.

(٣) الحيوان، ٥/٣٧٧.

(٤) البيان، ١/١٧٧.

وثلوب جسمه».

* قال أبو مجيب إذا أجدب الرائدُ قال: «وجدتُ أرضًا أرمى، وأرضًا عشْمى.»[1].

١٤٣. عَصِب: «العصِب: الشديد، يقال: يوم عصب وعصيب وعصبصب: إذا كان شديدًا.»[2].

١٤٤. عَفَر: «العَفَر والعَفْر: التراب، ومنه قيل: ضربه حتى عفره، أي ألحفه بالتراب. والظبي الأعفر: الأحمر، لأنّ حمرته كالتراب..».

* قال أعرابيّ يصف أرضًا: «هضاب حمرٌ وبِراثٌ عُفْرٌ..» ثم شرح الجاحظ دلالات ذلك[3].

١٤٥. عفر: «العفر: ولد الأروية، وإحدى الأروى، والأروى: جماعة من إناث الأوعال.».

* قال بشر بن المعتمر:

من خلقه في رزقه كلهم الذيخ والتيتل والعفر[4]

١٤٦. عُلفة: «العُلَّفة: ثمرة الطلح.»[5].

(١) البيان، ٢/ ١٥٩.

(٢) نفسه، ١/ ١٨٢.

(٣) نفسه، ٣٣٤/١.

(٤) الحيوان، ٤٩٧/٦.

(٥) البيان، ١٥٤/٢.

١٤٧. عِلْهِز: «العِلْهِز: القِردان، تُرضُّ وتُعجن بالدّم.»[١].

١٤٨. عُمْران: «العمران: أصل العمران مأخوذ من العمر، وهو البقاء، فإذا بقي الرجل في داره فقد عمرها.»

*«يا دار قد غيّرها بِـ لاها كأنّما بقلم محاه . . . . ـا
أخرجها عمران من بناها وكرُّ ممساها على مغناه ـا»[٢]

١٤٩. عَنَق: «العَنَق: ضرب من السير، وهو المُسْبَطِرُّ؛ فإذا ارتفع عن العنق قليلاً فهو التزيّد، فإن ارتفع عن ذاك فهو الذّميل».

* قال الخطفيّ:

يرفَعْن بالليل إذا ما أسْدَفا أعناقَ جِنَانٍ وهامًا رُجّفا
وعَنَقًا باقي الرّسيم خَيطفا[٣]

١٥٠. عواسر: «العواسر: يعني ذئابًا رافعةً أذنابها.»

* «.. إلا عواسر كالمراط معيدة بالعسل مورد أيم متغضف»[٤]

١٥١. عوذ: «العوذ: جمع عائذ، وهي الناقة إذا وضعت، فإذا مشى ولدها فهي مُرشِح، فإذا تبعها فهي متلية، لأنّه يتلوها. وهي في هذا كلّه مُطفل. فإذا كان أول ولد ولدت فهي بكر..».

(١) البخلاء، ٢/ ١٨٥.

(٢) البيان، ١/١٥٢.

(٣) نفسه، ١/٣٦٦.

(٤) الحيوان، ٤/ ١٠١.

*قال الهذلي:

وإنّ حديثًا منك لو تبذلينه جنى النّحل أو ألبان عوذٍ مَطافل(١)

١٥٢. غادة: «الغادة: الناعمة اللينة.» (٢).

١٥٣. غَرْب: «الغرب ههنا: الدّوام».

* «إنّ أول من عرّف بالبصرة ابنُ عباس، صعد المنبر فقرأ سورة البقرة، ففسّرها حرفًا حرفًا، وكان مِثَجًّا يسيل غَرْبًا.» (٣).

١٥٤. غصاص: «غِصاص: قد غُصّت بالماء.».

* أرقتُ بضوء برق في نَشاص تلألأ في مُملأة غِصاص(٤)

١٥٥. غُلّة: «الغُلّة والغليل: العطش الشديد.» (٥).

١٥٦. غملول: «الغملول: الخمر من الأرض، يختبئ فيه الرجل ويضغب ضغبة الأرنب ليفزعه ويوهمه أنّه عامر لذلك الخمر.».

* وقال أبو الحسن:

يا أيهذا الصاحب الغملول إنّك غول ولدتك غول(٦)

---

(١) البيان، ١/ ٢٧٨.

(٢) نفسه، ١/ ١٩٨.

(٣) نفسه، ١/ ٨٥.

(٤) نفسه، ١/ ١٧٨.

(٥) نفسه، ١/ ٢٧٩.

(٦) الحيوان، ٦/٤٤٧.

١٥٧. غول: «الغول: اسم لكلّ شيء من الجنّ يعرض للسفار ويتلون في ضروب الصور والثياب ذكرًا كان أو أنثى، إلا أنّ الأكثر أنّه أنثى.» [١]. والغول في كلام العرب: الداهية[٢].

١٥٨. غيطان: «الغيطان: جمع غائط: وهو الحائط ذو الشجر.»

* «إنّا لقينا العدوّ فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة بعراعر الأودية وأهضام الغيطان..» [٣].

١٥٩. فحيح: «الفحيح: صوت الحية من فيها..» [٤]

١٦٠. فِصال: «الفِصال: جمع فصيل، وهو ولد الناقة إذا فصل عنها.»

* أنشد محمد بن زياد:

*«..قل عندي غير طعْنٍ نوافذٍ وضرب كأشداق الفِصال الهوادل»[٥]

١٦١. فضخ: «فضخته: دقّته.».

* «قال غلام يقعّر في كلامه متحدثًا عن أبيه: فأخذته الحمّى فطبخته طبخًا، وفنخته فنخًا، وفضخته فضخًا، فتركته فرخًا»[٦].

(١) الحيوان، ٦/٤٤٢.

(٢) نفسه، ٦/٤٥٥.

(٣) البيان، ١/ ٣٧٨.

(٤) الحيوان، ٤/٩٣.

(٥) البيان، ١/١٥٧.

(٦) نفسه، ١/ ٣٧٩.

١٦٢. فقم: «الفقم : اعوجاج في الفم، وفي الخطباء من كان أشغى، ومن كان أشدق، ومن كان أروق، ومن كان أضجم، ومن كان أفقم..»

* قال النّمر بن تولب في شُنْعة أشداق الجمل:

*«كم ضربةٍ لك تحكي فاقراسيةٍ من المصاعب في أشداقه شنعُ»[1]

١٦٣. فنخ: «فنخت: أضعفت. والفنيخ: الرخو الضعيف.». * «فأخذته الحمّى فطبخته طبخًا، وفنخته فنخًا،..»[2].

١٦٤. قباع: «القِباع: التي قبعت في القَتام، واحدها قابع، كما يقبع القنفذ وما أشبهه في جحره. والقبوع: الاجتماع والتقبّض. ». * «يكون بها دليل القوم نجمٌ كعين الكلب في هُبّى قِباع»[3].

١٦٥. قبوع: «القبوع: الاجتماع والتقبّض».

* قال ابن مقبل:

«ولا أطرق الجاراتِ بالليل قابعًا قُبُوع القَرنْبى أخلفته مجاعره»[4]

١٦٦. قُراسية: «القُراسية: بعير أضخم.»

* قال النّمر بن تولب في شُنْعة أشداق الجمل:

(١) البيان، ١/ ٥٥.

(٢) نفسه، ١/ ٣٧٩.

(٣) الحيوان، ٣١٧/١.

(٤) نفسه، ٢٣٨/١.

«كم ضربةٍ لك تحكي فاقراسيةٍ   من المصاعب في أشداقه شنعُ»[١]

١٦٧. قُرامة: «القُرامة: نُحاتة القرون والأظلاف والمناسم وبُرادتها.» [٢].

١٦٨. قَرَنْبى: «القرنبى: دويبة فوق الخُنْفساء ودون الجعل.».

* قال ابن مقبل:

«ولا أطرق الجاراتِ بالليل قابعًا   قُبُوع القَرَنْبى أخلفته مجاعره»[٣]

١٦٩. قُروم: «القروم: الجمال المصاعب.».

* قال نافع بن خليفة الغنويّ:

«وخصمٍ لدى باب الأمير كأنّهم   قُرومٌ فشا فيها الزوائر والهدرُ»[٤]

١٧٠. قُنّة: «القنّة: الموضع الغليظ من الأرض في صلابة.» [٥].

١٧١. قواف: «القوافي: خواتم أبيات الشعر».

* «لساني بالنّثير وبالقوافي   وبالأسجاع أمهر في الغواص»[٦]

١٧٢. قوّة: «القوّة : الدقيق المختلط بالشَعر.» [٧].

(١) البيان، ١/ ٥٥.

(٢) البخلاء، ٢/ ١٨٥.

(٣) الحيوان، ١/٢٣٨.

(٤) البيان، ١/١٧٦.

(٥) نفسه، ١/ ١٩٨.

(٦) نفسه، ١/ ١٧٩.

(٧) البخلاء، ٢/ ١٨٥.

١٧٣. كاب: «الكابي: الذي لا يكاد يعرق، كالزبد الكابي الذي لا يكاد يوري..». * قال العمانيّ:

«لا ذفرٌ هشٌّ ولا بكابي ولا بلجلاج ولا هيّاب»(١)

١٧٤. كشيش: «الكشيش والقشيش: الفحيح صوت الحية من فيها، والكشيش والقشيش: صوت جلدها إذا حكت بعضه ببعض..» (٢) .

١٧٥. كَلِب: «كَلِب: الذي قد كلب.» (٣) .

١٧٦. كلكل: «الكلكل: الصدر.» . * أنشد محمد بن زياد:

«تمنّى أبو العفّاق عندي هجمة تُسهّل مأوى ليلها بالكلاكل»(٤)

١٧٧. كماة: «الكماة: جمع كميّ: الرجل المتكمي بالسلاح، يعني المتكفّر به المتيتّر. ويقال: كمى الرجل شهادته يكميها: إذا كتمها وسترها..».

*وإن خطرت أيدي الكماة وجدتني نَصورًا إذا ما استيْبَسَ الريقَ عاصِبُهْ»(٥)

١٧٨. لازب: «لازب ولازم: واحد، واللازب في مكان آخر: اليابس. قال الله عزّ وجلّ: ﴿مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ (الصافات: من الآية١١). واللَّزَبات: السنون الجدبة.».

---

(١) البيان، ١/ ١٣٤.

(٢) الحيوان، ٤/٩٣.

(٣) البيان، ١/١٨٣.

(٤) نفسه، ١/١٥٧.

(٥) نفسه، ١/١٨٠.

*وقال النابغة:

«ولايحسبون الخيرَ لا شرَّ بعده ولا يحسبون الشرَّ ضربةَ لازبِ»[1]

١٧٩. لأم: «اللأم من كلّ شيء: الشديد. »[2]. * قال الراجز:

«صفراءُ فرعٍ خَطَموها بوتر لأْمٍ مُمَرٍّ مثل حُلْقوم النُّغَرْ

حدتْ ظُبات أسهمٍ مثل الشَرَرْ فَصَرَّعتْهنَّ بأكناف الحُفَرْ»

١٨٠. لئيم: «اللئيم: قال أصحابنا: كلّ لئيم بخيل، وليس كلّ بخيل لئيمًا؛ لأنّ اسم اللئيم يقع على البخل، وعلى قلة الشكر، وعلى مهانة النفس، وعلى أنّ له في ذلك عرقًا متقدمًا.. قال أبو زيد: هو لئيم وملأم. فاللئيم فسّرتُ، والملأم الذي يقوم بعذر اللئيم..»[3].

١٨١. لدة: «اللّدة: القرينة في المولد والمنشأ..»[4].

١٨٢. لّمة: «اللِّمّة: الشعرة التي ألّمت بالمنكب..»[5].

١٨٣. لواقح: «اللواقح: التي لقحت من الريح.»[6].

* «لواقح دُلّح بالماء سُحْم تثجّ الغيْثَ من خلل الخَصاص»

---

(١) البيان، ١/ ١٩٩.

(٢) نفسه، ١/ ٢٨٣.

(٣) البخلاء، ٦٥/٢.

(٤) البيان، ١/ ٢٢٤.

(٥) نفسه، ١/ ٢٣٢.

(٦) نفسه، ١٧٩/١.

١٨٤. لَوْح: «اللَّوْح بالفتح: العطش. يقال: لاح الرجل يلوح لوْحًا، والْتاح يلتاح التياحًا: إذا عطش. واللوح بالفتح أيضًا: الذي يُكتب فيه. واللُّوح بالضمّ: الهواء». * يقال: (لا أفعل ذلك ولو نزوت في اللُّوح). (١).

١٨٥. مُؤْيد: «مؤْيد: داهية.» (٢).

١٨٦. مأقط: «المأقط: الموضع الضيّق الذي يقتتل فيه.».

* وقال أبو زبيد الطائي:

«وخطيب إذا تمعَّرَتِ الأوْ جُهُ يومًا في مَأْقَطٍ مشهود»(٣)

١٨٧. مباهير: «مباهير: متاعيب قد علاهم البُهْر.» (٤).

١٨٨. متغضّف: «متغضف: يريد بعضه على بعض..» (٥).

* «.. إلا عواسر كالمراط معيدة بالعسل مورد أيم متغضف»

١٨٩. متمخّط: «المتمخّط: المتكبّر مع غضب»(٦).

١٩٠. مِثجّ: «المثجّ: السائل الكثير، وهو من الثجّاج».

*«إنّ أول من عرّف بالبصرة ابنُ عباس، صعد المنبر فقرأ سورة البقرة،

---

(١) البيان، ١ / ٢٨٠.

(٢) نفسه، ١/ ١٨٢.

(٣) نفسه، ١/ ١٧٦.

(٤) نفسه، ١/ ١٨٢.

(٥) الحيوان، ٤/ ١٠١.

(٦) نفسه، ٤/١٠١.

ففسّرها حرفًا حرفًا، وكان مِثَجًّا يسيل غَرْبًا.». [1]

١٩١. مُجذّر: «المجذّر: القصير.» [2].

* «شُمْسٌ إذا خَطِل الحديثُ أوانسٌ   يرقُبْن كلَّ مُجَذَّر تِنْبال»

١٩٢. مُجلّحة: «مجلِّحة: أي داهية مصمِّمة..» [3].

١٩٣. مِحْجَن: «المِحْجَن: العصا المعوجّة..»

* «جاء في حديث أنّ أبا بكر رحمه الله أفاض من جمع وهو يَخرِشُ بعيره بمحجنه.» [4] .

١٩٤. مِحْصَنة: «المحصنة: ذوات الزوج.» * وقال العجاج:

وحاصنٍ من حاصناتٍ مُلْسٍ   من الأذى ومن قِراف الوقْسِ [5]

١٩٥. مَحْل: «المحل: الجدب.» [6].

* «حديث كطعم القطر في المحل يُشْتفى

به من جوى في داخل القلب لاطف»

(١) البيان، ١/ ٨٥.

(٢) نفسه، ١/ ١١٠.

(٣) نفسه، ١/ ١٨٣.

(٤) نفسه، ٣/ ٨٥.

(٥) نفسه، ١ / ٢٣٢.

(٦) نفسه، ١/ ٢٨١.

١٩٦. مِحْماق: «المحماق: التي عادتها أن تلد الحمقى.» [١].

١٩٧. مَخيلة: «المخيلة: العقاب الذكر الأشبث.» .

* قال مالك بن مرداس:

«هاجت به مخيلة الأظفر عسراء في يوم شمال قرّ»[٢]

١٩٨. مُدْجِنَة: «مدجنة: أي سحابة دائمة.».

* قال ابن عسلة الشيباني:

«وسماعِ مُدجَنَةٍ تعلّلنا . . . حتى ننام تناوم العُجْمِ»[٣]

١٩٩. مَدْرَة: «المِدْرَه: لسان القوم المتكلم عنهم.» [٤].

٢٠٠. مذبّ: «مِذبٌّ: أي يذبّ عن حريمه وعن نفسه.» [٥].

٢٠١. مَذْح: «المذح: سحْج إحدى الفخذيْن بالأخرى.» [٦].

٢٠٢. مُراد: «المرادي: المصادم والمقارع، يقال: رديتُ الحجرَ بصخرة أو بمعول، إذا ضربْتَه بها لتكسره. والمِرْداة: الصخرة التي يكسّر بها الحجارة.».

* قال العُجَيْر السلولي:

(١) البيان، ١/ ١٨٥.

(٢) الحيوان، ٦/٥٠١.

(٣) البيان، ١/ ٢٢٩.

(٤) نفسه، ١/ ١٨٣.

(٥) نفسه، ١/١٨٣.

(٦) نفسه، ٤/٣١٨.

وإنّ ابن زيد لابنُ عمّي وإنّه لبلاّل أيدي جِلَة الشَوْل بالدم
طَلوع الثنايا بالمطايا وإنّ ه غداةَ المَرادي لَلْخَطيبُ المقدّم[1]

٢٠٣. مِراط: «المراط: السهام التي قد تمرط ريشها.»

*«.. إلا عواسر كالمراط معيدة بالعسل مورد أيّم متغضف»[2]

٢٠٤. مِرْباع: «مرباع: أي نوق رئيس. والمرباع: ربع الغنيمة في الجاهلية لصاحب الجيش».

*وقال ابن عنمة:

«لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفُضول»[3]

٢٠٥. مُرْجِم: «المِرْجم: الحاذق بالمراجمة بالحجارة.» .

* قال أبو الحجناء: «ثَبْتُ الجَنان مِرْجَمٌ ودّاقُ»[4].

٢٠٦. مُسيمة: «مُسيمة: أي صارت في السوْم.. والسَّوْم: الرّعي. وسامت تسوم أي رعت ترعى. ومنه قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾(النحل: من الآية١٠)..» [5].

٢٠٧. مُعْتبطة: «معتبطة: منحورة من غير داء. يقال: اعتُبط الإبل والغنم: إذا

(١) البيان، ١/ ٢١٢.

(٢) الحيوان، ٤/ ١٠١.

(٣) البيان، ١/ ٣٨١.

(٤) نفسه، ١/ ١٢٥.

(٥) نفسه، ١/ ١٨٤.

ذُبحت من غير داء. ولهذا قيل للدم الخالص: عبيط. والعبيط: ما ذبح بغير علة».

* قال عبد الملك بن مروان لأعرابيّ: «ما أطيبُ الطعام؟ فقال: بكرةٌ سنمةٌ، معتَبَطَةٌ غير ضَمِنة، في قدور رَذِمة، بشِفار خَذِمة، في غداة شَبِمة.» [1].

٢٠٨. معنّ: «معنّ: تعنّ له الخطبة فيخطبها مقتضبًا لها.».

* قال طحلاء يمدح معاوية:

رَكوب المنابر وثّابها مِعَنٌّ بخطبته مِجهَرُ
تَريع إليه هوادي الكلام إذا ضلّ خطبتَه المِهذَرُ[2]

٢٠٩. مغْر: «المغرة أيضًا: المكر.» [3].

٢١٠. مَقانب: «المقانب: جمع مقنب، الجماعة من الخيل ليست بالكثيرة».

* قال دُريد بن الصِّمّة:

فلا يزال شهاب يستضاء به يهدي المقانب ما لم تهلك الصِّمَمُ
عاري الأشاجع معصوبٌ بلمّته أمر الزعامة في عرنينه شَمَمُ[4]

٢١١. مَلأم: «الملأم: الذي يقوم بعذر اللئيم.».

* قال أبو زيد: هو لئيم وملأم. فاللئيم فسّرتُ، والملأم: الذي يقوم بعذر اللئيم..» [5].

(١) البيان، ١/ ٢٨٦.
(٢) نفسه، ١/ ١٢٧.
(٣) الحيوان، ٦/٤٩٧.
(٤) البيان، ١/ ٢٣١-٢٣٢.
(٥) البخلاء، ٢/٦٥.

٢١٢. مِلْحاح: «ملحاح: ملحّ.» [١].

٢١٣. مُمِرّ: «المُمَرُّ: المحكم الفتل، وحبل مرير : مثله.».

* قال الراجز:

صفراءُ فرعٍ خَطَموها بوتر لأُمٍ مُمَرٍّ مثل حُلْقوم النُّغَرْ
حدتْ ظُبات أسهمٍ مثل الشرَرْ فَصَرَّعتْهنَّ بأكناف الحُفَرْ[٢]

٢١٤. مُمس: «مُمْسى: حين المساء.».

* «خطوَ الظليم رِيع مُمْسًى فانتشر».[٣]

٢١٥. منقيات: «المنقيات: المهازيل التي ذهب نقيهنّ.. والنّقي: مخّ العظام، وشحم العين، وجمعه: أنقاء. وناقة منقية: أي ذات نِقي.» [٤].

٢١٦. مهار: «المهار: وهو العود الذي يدخل في أنف البختيّ، وإذا فُرّق المِهار جاءت منه تَوادٍ. فإذا كان رأس الشظاظ كالفلكة صار للبختيّ مِهارًا.» [٥].

٢١٧. موادع: «المواد ع: الثياب التي تصون غيرها، واحدها ميدعة.».

* وقال العمانيّ:

---

(١) البيان، ١٨٣/١.

(٢) نفسه، ١/ ٢٨٣.

(٣) نفسه، ١/ ١٢٦.

(٤) نفسه، ٣٣٢/٤.

(٥) نفسه، ٤٩/٣-٥٠.

«إذ هنّ في الرَّيْطِ وفي الموادع تُرْمَى إلَيْهنّ كبذْرِ الزّارِع»[1]

٢١٨. نثير: «النثير: الكلام المنثور.».

* لساني بالنّثير وبالقوافي وبالأسجاع أمهر في الغواص[2]

٢١٩. نجر: «النّجر: الطباع.»

* ووصف أعرابي رجلاً فقال: «صغير القدر، قصير الشَّبْر، .. لئيم النَّجْر»[3].

٢٢٠. نجم: «النجم: واحد وجمع. والنجم: الثريّا في كلام العرب.» .

* قال ابن عسلة الشيباني:

وسماعِ مُدجَنَةٍ تعلّلنا حتى ننام تناوُمَ العُجْمِ

فصحوت والنَمَريّ يحسبها عمَّ السِّماك وخالةَ النجم[4]

٢٢١. نشاص: «النّشاص: السحاب الأبيض المرتفع بعضه فوق بعض، وليس بمنبسط.».

* «أرقتُ بضوء برق في نَشاص تلألأ في مُملأة غِصاص»[5]

٢٢٢. نغر: «النُّغر: البلبل.»

---

(١) البيان، ١/١٥٨.

(٢) نفسه، ١/١٧٩.

(٣) نفسه، ١ /٢٨٤.

(٤) نفسه، ١/٢٢٩.

(٥) نفسه، ١/١٧٨.

* قال الراجز:

«صفراءُ فرعٍ خَطَموها بوتر لأُمٍ مُمَرٍّ مثل حُلْقوم النُّغَرْ»[١]

٢٢٣. نمت: «نمت: شبّت.»

* قال جميل:

«نمت في الروابي من مَعَدٍّ وأُفْلجتْ على الخَفِراتِ الغُرِّ وهي وليدُ»[٢]

٢٢٤. نياط: «النياط: معاليق القلب.» .

* ممّا مدح به العمانيّ هارون الرشيد:

«جهير العُطاس شديد النـ ـياط جهيرُ الرّواء جهيرُ النّغمْ

ويخطو على الأيْن خطوَ الظليم ويعلو الرجالَ بجسمٍ عَمَمْ»[٣]

٢٢٥. هُبّى: «الهبّى: الظلمة واحدها هاب والجمع هُبّى، مثل غاز وغزّى.».

* « يكون بها دليل القوم نجمٌ كعين الكلب في هُبّى قِباعِ»[٤]

٢٢٦. هجمة: «الهجمة: القطعة من النّوق فيها فحل.» .

* أنشد محمد بن زياد:

«تمنّى أبو العفّاق عندي هجـ ـمة تُسهّل مأوى ليلها بالكلاكـ . . ـل»[٥]

---

(١) البيان، ١/ ٢٨٣

(٢) نفسه، ١/ ٢٢٣.

(٣) نفسه، ١/ ١٢٦.

(٤) الحيوان، ١/٣١٧.

(٥) البيان، ١/١٥٧.

٢٢٧. هدر: «الهدر: صوت الجمل عند هيجه، ويقال له الهدير.».

* قال نافع بن خليفة الغنويّ:

«وخصمٍ لدى باب الأمير كأنّهم   قُرومٌ فشا فيها الزوائر والهدرُ»(١)

٢٢٨. هدمان: «هدمين: هما ثوبان خلقان. يقال: ثوب أهدام، إذا كان خلقًا».

* وقال أوس بن حجر:

«أبا دُليجةَ من يوصَى بأرملة   أم مَنْ لأشْعَثَ ذي طِمْرَيْن طِمْلال»(٢)

طمرين: (أي هدمين) .

٢٢٩. هرمى: «الهرمى: الذي ليس له دخان إذا أوقد، من يبسه وهرمه.»

* «وجدتُ خُشْبًا هَرْمى وعُشْبًا شَرْمًا.» (٣).

٢٣٠. هشّ: «الهشّ: الذي يجود بعرقه سريعًا؛ وذلك عيب.».

* قال العمانيّ:

لا ذفرٌ هشٌّ ولا بكابي   ولا بلجلاج ولا هيّاب(٤)

٢٣١. هشيمة: «الهشيمة: ما تهشّم من الشجر..» (٥).

٢٣٢. هَضْبة: «الهضْبة: الجبل ينبسط على الأرض. وجمعها: هَضْب.».

---

(١) البيان، ١/١٧٦.

(٢) نفسه، ١/١٨٠- ١٨١.

(٣) نفسه، ٢/ ١٥٨.

(٤) نفسه، ١/ ١٣٤.

(٥) نفسه، ١/ ١٨٣.

* قال أعرابيّ يصف أرضًا:

«هضاب حمرٌ وبِراثٌ عُفْرٌ..» (١)

٢٣٣. هوادل: «الهوادل: العظام المشافر.».

* أنشد محمد بن زياد:

«ولا عقل عندي غير طعْنٍ نوافذٍ وضرب كأشداق الفِصال الهوادل»(٢)

٢٣٤. هواد: «هوادي الكلام: أوائله.».

* قال طحلاء يمدح معاوية:

«تَريع إليه هوادي الكلام إذا ضلّ خطبتَه المِهذَرُ»(٣)

٢٣٥. وجيف: «الوجيف: شديد السير، يقال: وجف الفرسُ والبعيرُ وأوجفتُه. ومثله الإيضاح وهو الإسراع..».

* سمعنَ بهيجا أوجفتْ فذكرْنه ولا يبعث الأحزانَ مثلُ التذكّر(٤)

٢٣٦. ودّاق: «الودّاق: الذي يُسيل الحجارة الودْق من المطر.»

* قال أبو الحجناء:

«ثَبْتُ الجَنان مِرْجَمٌ ودّاقُ»(٥)

---

(١) البيان، ٣٣٤/١.

(٢) نفسه، ١ /١٥٧.

(٣) نفسه، ١/ ١٢٧.

(٤) نفسه، ٢٩٨/١.

(٥) نفسه، ١/ ١٢٥.

٢٣٧. ورى: «الورى: الناس خاصة.» .

* قال الكردوس المرادي:

«تسائلني عن نارها ونتاجها وذلك علم لا يحيط به الطمش»[١]

٢٣٨. وصب: «الوصب: المرض.».

* أورد الجاحظ أبياتًا لآدم مولى بلعنبر، منها:

أنتَ الحبيبُ وكذا قولُ المحب جنَّبَكَ اللهُ معاريضَ الوصبْ

حتى ترى الأبصار أمثال الشُّهُب يُرمى بها أَشْوسُ ملحاح كَلِبْ

مجـ ـرَّبُ الشّدّات ميمـ ـون مِذَبْ[٢]

٢٣٩. وقس: «الوقس: العيب.»

* وقال العجاج:

وحاصنٍ من حاصناتٍ مُلْسٍ من الأذى ومن قِراف الوقْسِ[٣]

٢٤٠. وقيعة: «الوقيعة: المكان الصلب الذي يمسك الماء، والجمع الوقائع.»

* وقال أبو الطمحان القيني:

«إذا شاء راعيها استقى من وقيعة كعين الغراب صفوها لم يكدر»[٤]

---

(١) الحيوان، ٤/١٨٠.

(٢) البيان، ١/ ١٨٢.

(٣) نفسه، ١/ ٢٣٢.

(٤) الحيوان، ٣/٥٥٩.

٢٤١. يرحض: «يرحض: يغسل. والراحض: الغاسل. والمرحاض: الموضع الذي يغسل فيه...».

* «..فأنطِقَ في حقٍّ بحقّ ولم يكن   لِيَرْحَضَ عنكم قالةَ الحقِّ باطلي»(١)

٢٤٢. ينبذن: «ينبذن: يلقين.».

* قال القطامي:

فهنّ ينبذن من قول يصبن به   مواقع الماء من ذي الغُلّة الصادي(٢)

٢٤٣. يهضب: «يهضب: يُكثر. والأهاضيب: المطر الكثير.»

٢٤٤. يهْماء: «اليهْماء: الأرض التي لا يُهتدى فيها لطريق.». ويهماء هنا يعني التي لا يُهتدى إليها ويظل الخصوم عندها. [والأيهم من الرجال: الحائر الذي لا يهتدي لشيء. وأرض يهماء: إذا لم يكن فيها علامة] (٣).

---

(١) البيان، ١/ ٢١٤.

(٢) نفسه، ١/ ٢٧٩.

(٣) نفسه، ١٧٧/١.

٣-١-٢- وحدات معجميّة مركبة:

في اللغة عدد كبير من تعابير تؤدي دلاليًّا وظائف الوحدات المعجمية العادية، ولكنها في الوقت نفسه لا يمكن أن تعالج بالمنهج الذي تعالج به الوحدات المعجمية البسيطة، وذلك لارتباطها بخصوصيات دلالية وتركيبية محدّدة(١).. فإنّ ما تحمل من دلالات لا تكشفها دلالات مكوناتها معجميًّا، بل تكتسب قيمة تجميعية تدلّ بشكل غير مجزئ على معنى وحيد لكامل المركّب. (فتضرب إليه أكباد الإبل) مثلاً، مجموعة كلمات لها منفردةً، مداليلُها المعجميةُ، ولكنّها فقدت تلك الدلالات المعجمية عندما ائتلفت مع بعضها. فهذا التعبير ليس مكونًا انطلاقًا من : الدوال: (تضرب/ أكباد/ إبل) للوحدات المعجمية: (ضرب، كبد، إبل). وإنّما أصبح المحدّد لقيمتها الدلالية الجديدة استعمالها الخاص وما يتّصل به من إيحاءات ومجازات نابعة من تجربة الجماعة اللغوية الخصوصية، فهو الذي يخلّصها من دلالاتها القديمة في الذاكرة ويخلق لها قيمة دلالية حضورية.

وقد اهتمّ الجاحظ بهذا الضرب من الوحدات المعجمية غير البسيطة، وشعر بخطره على الفهم والإفهام فلم يأل جهدًا في شرح دلالاته، خاصة في مجتمع تتبدّل مفاهيمه وقيمه بسرعة، وتمتزج فيه الثقافات وتتنوّع مسالكها. وقد شرح الجاحظ عددًا من الوحدات المركبة يمكن تصنيفها إلى أمثال، وتعابير خاصة، ومتلازمات، وتواردات، واستعمالات خاصة.

---

(١) Mel' cuk : Intr. à la Lexicologie, p150.

٣-١-٢-١- أمثال:

١. «أجبن من الصّفرد»، (نقل مفهوم الجبن عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ إطلاقه على الصّفرد، باعتباره يمثّل الظاهرة أحسن تمثيل)،

٢. «أجرأ من الليث»، (نقل مفهوم الجرأة عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ الحكم له بهذه الصفة)،

٣. «أبرّ من هرّة»، (نقل مفهوم البرّ عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ جعل الهرّة مثالاً عنه)،

٤. «أحمق من حبارى»، (نقل مفهوم الحمق عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ أطلق الحكم على الحبارى)،

٥. «أروغ من ثعلب»، (نقل مفهوم المراوغة عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ جعل الثعلب رمزًا له)،

٦. «أزهى من غراب»، (نقل مفهوم الزهو عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ جعله من صفات الغراب)،

٧. «أسخى من لافظة»، (نقل مفهوم السخاء عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ جعله من لوازم اللافظة)،

٨. «أصبر على الهون من كلب»، (نقل مفهوم الصبر عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ جعله من صفات الكلب)،

٩. «أضلّ من ورل»، (نقل مفهوم الضّلال عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ اعتبار الورل رمزًا له)،

١٠. «أظلم من حيّة»، (نقل مفهوم الظلم عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ اعتبار الحيّة رمزًا له)،

١١. «أعقّ من ضبّ»، (نقل مفهوم العقوق عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ الحكم عليه)،

١٢. «أغدر من الذئب»، (نقل مفهوم الغدر عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ جعل الذئب دليلاً عليه)،

١٣. «أكذب من فاختة»، (نقل مفهوم الجرأة عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ جعله رمزًا له)،

١٤. «أهدى من قطاة»، (نقل مفهوم الهداية عند الإنسان إلى الحيوان، ومن ثمّ اعتبار القطاة رمزًا له)،

وفي شرحه لهذه الأمثال يقول الجاحظ:

«فيعبّرون عن هذه الأشياء بعبارة كالعبارة عن الناس، في مواضع الإحسان والإساءة حتى كأنّهم من الملومين والمشكورين.» [(١)].. ففي هذه المجموعة «يشبه العبارة عن اللائمة والشّكر. وإنّما قلنا ذلك لأنّ كلّ مشكور محمود، وليس كلّ محمود مشكورًا؛ وكلّ ملوم مذموم وليس كلّ مذموم ملومًا».

فقد استعير من صفات الإنسان ما عبّر عن هذه الأمثال الموضوعة لوصف بعض من خصائص الحيوان التي يلتقي فيها مع الإنسان كخصائص: الجبن، والصبر، والظلم، والكذب...

(١) الحيوان، ١/٢١٨.

ثم يضيف الجاحظ قائمة ثانية ويعلّق بقوله: «..يعبّرون في هذا الباب الآخر بدون هذا التعبير، ويجعلون خبرهم مقصورًا على ما في الخِلْقة من الغريزة والقوى فيقولون:

١٥. «أبصر من عُقاب»، (فقد استعير مفهوم البصر للتعبير عن خصيصة فيه، وهي قوة النظر)،

١٦. «أسمع من فرس»، (استعير مفهوم السّمع للتعبير عن خصيصة فيه، وهي قوة السمع)،

١٧. «أطول ذماء من ضبّ»، (استعير مفهوم الذّماء للتعبير عن خصيصة فيه، وهي صعوبة موته)،

١٨. «أصحّ من الظّليم»، (استعير مفهوم الصحة للتعبير عن خصيصة فيه، وهي الصحة الجيّدة)،

ففي هذه المجموعة الثانية: المثل «يُشْبه العبارة عن الحمد والذمّ»[(١)].. ولهذا نلاحظ قيام هذه الأمثال على استعارة عبارات الحمد والذّمّ للتعبير عن بعض خصائص الحيوان: كالإبصار والقوّة، وشدّة السّمع..

١٩. «أحرص من كلب على عِقْي صبيّ».. يقال للذي يخرج من بطن الصبيّ حين يخرج من بطن أمّه (عِقْيٌ)..، ويقال : عَقَى الصبيّ يعقي عقيًا، فإذا شُدّ بطنُه للسّمن قيل: قد صُرِبَ ليسمن. والعِقْيُ: هو العَقْية الغيْبة. * وإيّاه عنى ابن عمر حين قيل له: «هلاّ بايعتَ أخاك ابن الزّبير؟» فقال: «إنّ أخي وضع يده في عَقْيه

(١) الحيوان، ١/٢١٨.

ودعا إلى البيعة. إنّي لا أنزع يدي من جماعة وأضعها في فرقة».[1].

٢٠. «أدرك القويمة لا تأكلها الهويمة»: «يعني الصبي الذي يدرج ويتناول كلّ شيء سنح له، ويهوي به إلى فيه، كأنّه قال لأمه: أدركيه لا تأكله الهامة، وهي الحية.. »[2].

٢١. «أروى من ضبّ. لأنّ الضبَّ عندهم لا يحتاج إلى شرب الماء»[3].

٢٢. «أصدق من قطا. وأهدى من قطا..»

* وقال أبو وجزة:

«مازلن ينبسن وهنًا كلّ صادقة   باتت تباشر عَرْمًا غير أزواج»[4]

٢٣. «إنّما أنتَ نعامة»: يضرب به المثل للرجل إذا كان ممّن يعتلّ في شيء يكلفونه بعلّة.. إذا قيل لها : احملي، قالت أنا طائر، وإن قيل لها طيري، قالت: أنا بعير[5].

٢٤. «جبأ عليه الأسود من جحره»: «إذا فاجأه وهو يجبأ جبأً وجبوًّا...»[6].

٢٥. «سدِك به جُعَلُه»: «يضرب للرجل إذا لصق به من يكره، (سدك بمعنى لزم)» [7].

---

(١) الحيوان، ٢٦٦/١.

(٢) نفسه، ٩٤/٤.

(٣) نفسه، ٤٣٢/٦.

(٤) نفسه، ٣٧٧/٥.

(٥) نفسه، ٣٣٧/٤.

(٦) نفسه، ١٠١/٤.

(٧) نفسه، ٢٣٧/١.

٢٦.«صَمْتُ حصاةٍ في دَمٍ»: مثل: أصله أن يكثر القتل وسفك الدّماء حتى لو وقعت حصاة على الأرض لم يسمع لها صوت، لأنّها لا تلقى صلابة الأرض[١].

٢٧.«على أهلها دلّت براقش»: «وبراقش كلبة قوم نبحت على جيش مرّوا ليلاً وهم لا يشعرون بالحيّ فاستباحوهم واستدلّوا على مواضعهم بنباحها».[٢].

٢٨.«فلان أسأل من فلحس». ويقال للكلب: «فلْحَس». وهو من صفات الحرص والإلحاح. وفلحس: رجل من بني شيبان كان حريصًا رغيبًا وملحفًا ملحًّا. «وكلّ طفيليّ فهو عندهم فلحس».[٣].

٢٩.«فلان حيّة الوادي»، «وما هو إلا صلّ أصلال. والصلّ: الداهية والحية.»

٣٠.«فلان واسع السَّرب»، أي المسالك والمذاهب. وإنّما هو مثل مضروب للصّدر والقلب[٤].

٣١.«لا أفعل كذا حتى ينام ظالع الكلاب» (يقال في الأمثال)، والظالع: الصارف. ويقال: صرفت الكلبة صرافًا وصروفًا، وظلعت تظلع ظلوعًا. و لم يعرّف الأصمعي «ظلعت الكلبة» بمعنى: صرفت، واستحرمت، وجعلت واستعجلت، واستطارت. [٥].

---

(١) الحيوان، ١٤٦/٤.

(٢) نفسه، ٢٦٠/١.

(٣) نفسه، ٢٥٧/١.

(٤) نفسه، ٢٧٩/١.

(٥) نفسه، ٣٥٧/٣.

٣٢.«مات كمد الحُبارى»: إذا نتفت أو تحسرت أبطأ نبات ريشها، فإذا طارت صويحباتها ماتت كمدًا[١].

٣٣.«ما هو إلا تيس في سفينة»: إذا أرادوا به الغباوة؛ «وما هو إلا تيس»: إذا أرادوا به نتن الريح[٢].

٣٤.«ما يلقانا إلا عن عُفْرٍ»: «أي بعد مدّة. مُسْيٌ: أي وقت المساء».

* قال أبو العَمَيْثل:

لقيتُ ابنةَ السّهْميِّ زينبَ عن عُفْرِ ونحن حرامٌ مُسْيَ عاشرة العشر[٣]

٣-١-٢-٢-متلازمات:

٣٥.«أجرت بقلتُها»: «نبتت فيها مثل الجراء».

* «ووصف أعرابيّ أرضًا أحمدها فقال: .. واتّسق نبتها، واخضرّت قُرْيانُها، وأخوصت بُطْنانُها، واستحلست آكامها، واعتمّ نبتُ جراثيمها، وأجرت بقلتُها وذُرَقَتُها وخُبّازتُها،..»[٤].

٣٦.«اتّسق نبتها»: «تتامّ».

* «..واتّسق نبتها، واخضرّت قُرْيانُها، وأخوصت بُطْنانُها، ..»[٥].

(١) الحيوان، ٣٣٨/٥.

(٢) نفسه، ٢٩٥/٢.

(٣) البيان، ٢٨٠/١.

(٤) نفسه، ١٥٤/٢.

(٥) نفسه، ١٥٣/٢-١٥٤.

٣٧.«احرنفاش العنـز»: أن ينتفش شعرها، وتنصب روْقَيْها في أحد شقَّيْها لتنطح صاحبتها، وإنّما ذلك من الأشر، حين ازدُهيت وأعجبتها نفسها..

* يقال: «قد أكلأت الأرض واحرنشفت العنـز لأختها، ولحس الكلب الوَضَر.» [1].

٣٨.«أخوصت بُطْنانُها»: إذا نبت فيها قضبان دقاق. و«أخوص الشجر»: وهو الذي لا شوك له.

* ووصف أعرابيّ أرضًا أحمدها فقال: «خلع شيحُها، وأبقل رِمْثُها، وخضب عرفجُها، واتّسق نبتها، واخضرّت قُرْيانُها، وأخوصت بُطْنانُها، واستحلست آكامها،..»[2].

٣٩.«إذا شبعت الدقيقة لحِست الجليلة»: «هذا في قلة العشب، إنّما تلحسه الناقة لقلته وقصره.»

٤٠.«أنشبت الحية»: «إذا تفرقت وكثرت، وذلك عند إقبال الصيف..» [3].

٤١.«عمد ثراها»: «إذا قبضت منه على شيء فتعقّد واجتمع من نُدُوّته. يقال: عمِد الثرى يعمد عَمَدًا، وهو ثرى عمِد. فالعَمَد: أن يجاوز الثرى المنكبَ، وهو أن يقيس السماء بالمرفق فيقول: بلغتُ وضْح الكتف، ثمّ الرَّسغ، ثم العظمة، ثم المرفق، ثم ينصُفُ العَضُدَ، ثم يبلغ المنكب. فإذا بلغ المنكب قيل: عند الثرى..» .

(١) البيان، ٢/١٥٩.

(٢) نفسه، ٢/١٥٤.

(٣) نفسه، ٤/ ١٠١.

* ووصف أعرابيّ أرضًا أحمدها فقال: «خلع شيحُها، وأبقل رِمْثُها، وخضب عرفجُها، واتّسق نبتها، ..وشطرت حلوبتُها، وسمنت قَتُوبتُها، وعمِد ثراها، وعَقَدت،..»(١).

قال النابغة:

*ماذا رأينا به من حية ذكر تضناضة بالرزايا صلّ أصلال

٤٢. «فلان لانت عصاه»: «إذا أصابه السُّواف. فرجع وليس معه إلا عصاه، لأنّه لا يفارقها كانت له إبل أم لم تكن.» (٢).

٤٣. «فلان يفلّ الحزّ»: «ويصيب المفصل، ويضع الهناء موضع النُّقب»(٣).

٤٤. «قرطس فلان»: «وأصاب القرطاس، إذا كان أجود إصابة من الأول»(٤).

٣-١-٢-٣- تواردات لفظية:

٤٥. «أصاب الهدف»: «إذا أصاب الحقّ في الجملة. وهم يمدحون الحذق والرفق والتخلّص إلى حبات القلوب، وإلى إصابة عيون المعاني.» (٥).

٤٦. «أغذَّ السّيرَ»: «إذا جدّ فيه وأسرع.» (٦).

(١) البيان، ٢/ ١٥٥.

(٢) نفسه، ٥٢/٣.

(٣) نفسه، ١٤٧/١.

(٤) نفسه، ١٤٧/١.

(٥) نفسه، ١٤٧/١.

(٦) نفسه، ١/ ٢٨٠.

٤٧. «إن عُصي غشم»: «إن عصته الناقة غصبها نفسها.».

* قال الخُسُّ لابنته: «أريد شراء فحل لإبلي. قالت: إن اشتريته فاشتره أسجح الخدّين، غائر العينين، أرقب، أحزم أعكى، أكوم. إن عُصي غَشَم، وإن أُطيح تَجَرْثَمَ...» (١).

٤٨. «تميّز أهلها»: «تفرّقوا في طلب الكلأ.».

* «وصف رائد أرضًا جدبة» فقال: «اغبرّت جادتُها، ودُرِّعَ مرتعُها، وقَضِمَ شجرُها، ورقّت كرشها، وخورَ عظمُها، والتقى سَرْحاها، وتميّز أهلها، ودخل قلوبَهم الوهلُ، وأموالهم الهَزَلُ.. » (٢).

٤٩. «حلّئت ركابي»: «أي منعت إبلي من الماء والكلأ.».

* قال أعرابي لعامل الماء: «حُلِّئتْ رِكابي، وخُرِّقت ثيابي، وضُربتْ صِخابي»(٣).

٥٠. «خلع الشيحُ»: «إذا أورق. والخالع من العِضاه: الذي لا يسقط ورقه أبدًا كالسّدر.. وكلّ شجر له شوك فهو عِضاه، والواحد عِضة، إلا القتادَ، ولا يُعْبل إلا الأرطى..».

* «ووصف أعرابيّ أرضًا أحمدها» فقال: «خلع شيحُها، وأبقل رِمْثُها، وخضب عرفجُها،..» (٤).

---

(١) البيان، ١/ ٣٢٤.

(٢) نفسه، ٢/ ١٥٣.

(٣) نفسه، ١/ ٢٨٨.

(٤) نفسه، ٢/١٥٣-١٥٤.

٥١. «شكِرت حَلوبُها»: «غرُزَت. يقال: شَكِرَت الإبل والغنم: إذا تملأت من الربيع، وهي إبل شكارى. ويقال: ضرَة شكرى: إذا امتلأت من اللبن» .

* «ووصف أعرابيّ أرضًا أحمدها» فقال: «خلع شيحُها، وأبقل رِمْثُها، وخضب عرفجُها، ..، وشكرت حلوبتُها،..»[١].

٣-١-٢-٤-عبارات خصوصية:

٥٢. «إنّه لعَمَم الجسم، وإنّ جسمه لعمم»: «إذا كان تامًا. وكما قيل: نبت عمم واعتمّ النبت: إذا تمّ.». *قال الجاحظ: ممّا مدح به العمانيّ هارون الرشيد:

جهير العُطاس شديد النياط جهيرُ الرّواء جهيرُ النّغمْ
ويخطو على الأيْن خطوَ الظليم ويعلو الرجالَ بجسمٍ عَمَمْ[٢]

٥٣. «أهضام الغيطان»: «مداخلها» .

*«إنّا لقينا العدوّ فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة بعراعر الأودية وأهضام الغيطان..» [٣].

٥٤. «بكارة مرباع»: «أي نوق فتايا قد أُذلّت للفحل.»

* قال أبو يعقوب الأعور:

وخلجة ظنٍّ يسبق الطرفّ حزمُها تُشيفُ على غُنْمٍ وتُمْكِنُ من ذَحْلِ

---

(١) البيان، ٢/١٥٤.

(٢) نفسه، ١/ ١٢٦.

(٣) نفسه، ١/ ٣٧٨.

صدعتُ بها والقومُ فوضى كأنّهم   بِكارةُ مِرْباعٍ تُبصْبِص للفحلِ[1]

٥٥. «حراج الظلماء»: «واحد الحراج: حرجة، وهي هاهنا مثل جعل كلّ شيء التفّ وكثف من الظلام حراجًا، وإنّما الحراج من السدر وأشباه السدر، فإذا لم يبصر فيها الغراب مع حدّة بصره، وصفاء مقلته، فما ظنّك بغيره؟».

* قال ابن ميادة:

ألا طرقتنا أمّ أوس ودونها حراج   من الظلماء يعشى غرابها[2]

٥٦. «خضب عَرْفَجُها»: «اسودّ.» .

* «ووصف أعرابيّ أرضًا أحمدها» فقال: «خلع شيحُها، وأبقل رِمْثُها، وخضب عرفجُها، واتّسق نبتها،..»[3].

٥٧. «خلجة ظنّ»: «أي جذبة ظنّ، والخلج: الجذب.»

* "قال أبو يعقوب الأعور:

«وخلجة ظنٍّ يسبق الطرفّ حزمُها   تُشيفُ على غُنْمٍ وتُمْكِنُ من ذَحْلِ

صدعتُ بها والقومُ فوضى كأنّهم   بِكارةُ مِرْباعٍ تُبصْبِص للفحلِ»[4]

٥٨. «الرأي الدَّبَريّ» :«وكانوا يأمرون بالتبيّن والتثبّت، وبالتحرّز من زلل الكلام، ومن زلل الرأي، ومن الرأي الدَّبَريّ. والرأي الدَّبَريّ: هو الذي يعرض من

(١) البيان، ١/ ٣٨١.

(٢) نفسه، ٣/٥٥٩.

(٣) نفسه، ٢/١٥٤.

(٤) نفسه، ١/ ٣٨١.

الصواب بعد مضيّ الرأي الأول وفوات استدراكه.» [1].

٥٩.«رجل فيل»: «يقال: رجل فيل، إذا كان في رأيه فيالة، والفيالة: الخطأ والفساد..» [2] .

٦٠.«رمى فأصاب الغُرّة ، وأصاب عين القرطاس». «فهو الذي ليس فوقه أحد.» [3].

٦١.«سماوة الشيء»: «شخصه.» [4].

٦٢.«شفار خذمة»: «قاطعة.» [5].

٦٣.«الشواء المَلْهوج»: «المُعجّل الذي لم يُنْتظَر به النُّضجُ».[6].

٦٤.«ضاوية الأعراق»:

*أزرى بسعيك أن كنتَ امرًا حَمِقا   من نسل ضاوية الأعراق مِحْماق

«أي ضعيفة الأعراق نحيفتها. يقال: رجل ضاو.. إذا كان نحيفًا قليل الجسم».

وجاء في الحديث: (اغتربوا لا تُضْوُوا) أي لا يتزوّج الرجل القرابة القريبة

(١) البيان، ١/ ١٩٧.

(٢) الحيوان، ٧/ ٦٤٧.

(٣) البيان، ١/١٤٧.

(٤) نفسه، ٤/١٣٢-١٣٣.

(٥) نفسه، ١/ ٢٨٦.

(٦) نفسه، ١/ ٢٨١.

فيجيء ولده ضاويًا. والفعل منه ضَوِيَ يضْوَى ضَوًى[1].

٦٥. «عراعر الأودية»: «أسافلها. وعراعر الجبال: أعاليها.».

* «إنّا لقينا العدوّ فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة بعراعر الأودية وأهضام الغيطان..» [2].

٦٦. «على نيرين»: «أي قوية، كالثوب الذي ينسج على نيرين، وهو الثوب الذي له سديان، كالديباج وما أشبه.» [3].

٦٧. «ماء المصافنة»: «وقد يضيقون في شراب غير المجدوح والفظّ.. وهو ماء المصافنة. والمُصافنة: مقاسمة هذا الماء بعينه.. ولم يكن للرئيس ولا لصاحب المرباع والصفيّ وفضول المقاسم فضل على أخسّ القوم..» [4].

٦٨. «ماء مطلب»: ويقولون: «ماء مطلب ومطنب: إذا ألجأهم إلى طلبه من بُعده.» [5].

٦٩. «مرتع مُدرَّع»: «إذا كان بعيدًا من الماء.»

* «وصف رائد أرضًا جدبة» فقال: «اغبرّت جادتُها، ودُرِّعَ مرتعُها، وقَضِمَ شجرُها،..»[6] .

(١) البيان، ١/ ١٨٥.

(٢) نفسه، ١/ ٣٧٧-٣٧٩.

(٣) نفسه، ١/ ٢٢٣- ٢٢٤.

(٤) البخلاء، ٢/ ١٨٦.

(٥) البيان، ٢/ ١٥٣.

(٦) نفسه، ٢/ ١٥٣.

٣-١-٢-٥-استعمالات خاصة:

ونقصد بها المعاني الخاصة باستعمالات معيّنة لا تتعدّاها إلى غيرها، ولذلك نجد الجاحظ يشير في الشرح إلى ارتباط الدلالة بهذا الاستعمال بعينه، كقوله: «الإلقة هنا: القردة» لأنّ الإلقة قد تطلق –حسب الوسيط- على حيوانات أخرى مثل الذّئب. لذلك تبدو وظيفة الشرح هنا لغرض التمييز بين عدد من الدلالات، وتنبيه القارئ إلى الدلالة المقصودة فعلاً في هذا الاستعمال، ولذلك أيضًا استعمل كلمة (هنا، أو ها هنا).

٧٠. «الإلقة هنا: القردة».

* وقال بشر:

«وإلقة ترعث رباحها والسهل والنوفل والنضر»(١)

٧١. «تخاصرني»: «آخذ بيدها وتأخذ بيدي.»

* قال الأحوص بن محمد:

قامت تخاصرني بقُنّتها خَودٌ تأطّرُ غادةٌ بكرُ(٢)

٧٢. «الصدى هاهنا»: «طائر يخرج من هامة الميّت إذا بلي، فينعى إليه ضَعْفَ ولسِّه وعجزه عن طلب طائلته، وهذا كانت تقوله الجاهلية. وهو هنا مستعار..».

* قال النمر بن تولب:

(١) الحيوان، ٦/٥٠٢.

(٢) نفسه، ١/ ١٩٨.

أعاذل إن يصبح صداي بقفرة بعيدًا نآني صاحبي وقريبي[1]

٧٣. «العقل هاهنا»: «الديّة. والعاقلة : أهل القاتل الأدنون والأبعدون.».

* أنشد محمد بن زياد:

«ولا عقل عندي غير طعْنٍ نوافذٍ
وضرب كأشداق الفِصال الهوادل»[2]

إنّ شرح المفردات الغريبة أو النّادرة أو البدوية بصورة عامة في مجتمع آخذ بأسباب المدنيّة والحضارة الجديدة، قد لا يكون غريبًا في المجتمع العباسي المتعدّد البيئات والطوائف والمذاهب، ولكن ما يلفت الانتباه فعلاً هو تفسير الجاحظ لعدد من العبارات الخاصة والأمثال والتراكيب.. وهي لا تعكس صعوبة لغوية بقدر ما تدلّ على اندثار جزء من خصائص اللغة، وعجز المتكلمين عن فهم هذا الضرب من الوحدات المعجمية هو دليل على انفصال المجتمع عن ثقافته العربية البدوية الإسلامية، وطريقة فهمها للحياة والتعبير عن موقفها منها. فإنّ في هذه التراكيب خصوصية فكرية وعاطفية من المفروض أن تكون جزءًا من ذاكرة المتكلمين يكشف عن منهج ما في التفكير وفي فهم الحقائق والتعبير عنها: كالموقف من بعض عناصر الطبيعة، ومسألة التشاؤم والتفاؤل، وكيفية تقبّل المفاهيم، والصلات الاجتماعية..

لكنّ الظاهر من جهد الجاحظ يدلّ على تعاظم البون بين المتكلّمين

(١) الحيوان، ١/ ٢٨٤ .

(٢) نفسه، ١/١٥٧.

وخصائص لغتهم. وهو ما لم يشأ الجاحظ أن يصوّره على أنّه اعتداء على العربية الفصحى، بل نظر إليه على أنّه واقع لغويّ من عمل التّطور اللازم لاستمرار اللغة في الحياة.

٤- خاتمة:

من الأسئلة التي يمكن طرحها في خاتمة هذا البحث: الدوافع التي جعلت الجاحظ يتقمّص في جميع مؤلفاته وظيفة المعجميّ، فيعمد إلى ضروب من الاستطرادات المطوّلة أحينًا قصد شرح مفردة أو توضيح دلالة مركّب أو مثل.. يبدو أنّ الجواب لا يخرج عن مسألة الوضوح، وهي مسألة تجلّت في آرائه اللغوية كما بيّنّا وفي كتاباته. فلطالما دعا الكتّابَ خاصةً إلى الواقعية اللغوية وتجنّب الغموض والتوعّر. فحثّهم على أن يلتمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّرًا وحشيًّا، ولا ساقطا سوقيًّا. ولعلّ تخوّفه من تحوّل ظاهرة الغريب إلى ضرب من التفاصح هي التي دعته إلى التحذير من التّشدّد اللغوي، ويمثّله عادة المولعون بالتنوّق والمبالغة في مضاهاة كلام البدو باستعمال لغة مُصْطَنَعَة مُسْتَكرَهَة.

لذلك قام الجاحظ بهذا الجهد المعجمي الإضافي في شتى مؤلفاته، لإزالة اللَّبْس، وتنبيه القارئ إلى غلبة مفهوم اليسر والوضوح اللغوي عنده على مفهوم التّفاصح. لقد أدّى الجاحظ بهذا العمل وظيفة المعجميّ لأهداف منها:

- من الفصيح ما لم يعد ممثّلاً لحقائق المتكلّمين بسبب بعدهم عن حياة البداوة. والجاحظ من الذين لا ينكرون أهمية ما طرأ من تغيّر في واقع العربية، فاهتمّ بدراسته، وأقام في جميع مؤلفاته معاجم لشرح ما بات مستعصيًا عن فهم متكلّمي العربية في عصره بسبب انقطاع الصلة بينهم وبين هذا الرصيد المعبّر عن حياة

البداوة بمعانيها ومفاهيمها التي زال أغلبها من الاستعمال لزوال الحاجة إليها. فقد زالت من حياة متكلّمي العربية أغلب مظاهر الجاهلية وحلّت محلّها مفاهيم جديدة تبحث في دقائق علم الشريعة وغوامض قضايا اللغة والفقه وتأويل الوحي[1].. وتلك مراحل أولى أعقبتها علوم أشدّ تعقيدًا وتجريدًا مثل علم الكلام والفلسفة والتصوّف.. فكان هذا الانتقال الدينيّ في الحقيقة انتقالاً فكريًّا وحضاريًّا هيّأ العربية لاستقبال المولّد للتّعبير عن أدقّ خصائص العلوم والتّمييز بينها؛

– حدوث اتّساع في مفردات اللغة بين العصر الجاهلي والعصر العباسي، ممّا يحدث لَبْسًا، ويتطلّب توضيحًا للدلالة القديمة أو الفصيحة كما هي في النصوص المذكورة، وقد يؤدّي ذلك إلى الكشف عن حركة النموّ الدلالي في ضوء الخصائص الفكرية والعقائدية والاجتماعية التي توارثها المجتمع الجاهلي، والخصائص الجديدة التي أحدثها مجيء الإسلام في بيئة المتكلّمين؛

– تأكيد الجاحظ على ارتباط جزء كبير من الفصيح بالبداوة. فحياة البداوة كانت من البساطة والانقطاع بحيث أسهمت في الاستقرار اللغوي بمظاهره البدوية القائمة على المغاورة والرّعي وهي مظاهر مادية قارّة لا تحتاج فيها اللغة إلى جهد توليديّ وتجريديّ كبير، بينما مثّل التحوّل الإسلاميّ انتقالاً جوهريًّا من هذه المظاهر إلى مظاهر روحيّة وذهنيّة تطلّب التعبير عنها تغيّرًا لغويًّا كبيرًا تمثّل أساسًا في تطويع اللغة لتتّسع لدلالات جديدة ظهرت بظهور الفكر الجديد، إلى جانب ما رافق ذلك من مفردات لغات الشعوب الأعجمية الداخلة في الإسلام.

---

(١) انظر في هذا المجال: ابن فارس: الصاحبي، ص (٧٨-٨٦).

الفصل الثاني

المـ ـولّ . . . ـد

١– مفهوم التوليد عند الجاحظ:

يعتبر الجاحظ جذور الحركة التوليديّة المتنامية في عصره تعود إلى مرحلة ظهور الإسلام، عندما وصف نقل الإسلام مدلولات ألفاظ من مجال إلى مجال آخر، بقوله: «حالت أحوال ونسخت ديانات. فكان أن أصبح لألفاظ المؤمن والمسلم والمنافق والزّكاة.. مدلولات غير تلك التي كانت لها قبل الإسلام؛ كما ظهرت اصطلاحات وتسميات لما لم يكن له في لغة العرب اسم، مثل: العرض والجوهر، وأيس وليس، والبطلان والتلاشي، والهاذيّة والهُويّة والماهية..»[1].

لكن ما سينتج من هذه الحركة الثقافية والعلمية من مفاهيم ومصطلحات بعد القرن الثاني الهجري، باعد ما بين لغة البادية، والعربية الحديثة. و لم يعد الكتاب والعلماء في حاجة إلى معرفة دقيقة بمفاهيم البداوة ومعجمها.. فقد تولّد ما لا يكاد يحصى من المفردات[2]، وتوقّف عدد كبير من الألفاظ لانتفاء الحاجة إليها.

غير أنّ أغلب هذه الألفاظ المولّدة لم تتعرّض لها المعاجم أو لم تذكرها بدلالاتها الجديدة باعتبارها ألفاظًا مولّدة وضعت على سبيل المجاز والتوسّع لمواجهة تيّار الحداثة. ونحن إلى اليوم نجد صعوبة في البحث عن دلالاتها، إلا من خلال

---

(١) البيان، ١/١٣٩–١٤٠.

(٢)حتى التبس الأمر على الجاحظ نفسه فقال: قال العيث الشاعر: «إنّي والله ما أرسل الكلام قضيبًا خشيبًا، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكّك». وعلّق الجاحظ: «وكنت أظنّ أنّ (محكّك) كلمة مولدة..» (البيان، ١/٤٢).

السّياق أو بالاستعانة بنصوص عالجت بعضها عرضًا.

إنّنا نعثر في كتابات الجاحظ على رصيد مهمّ من ألفاظ اللغة العامة ومصطلحات العلوم والفنون في عصره، إضافة إلى ما اقترضه العرب من اللغات الأعجمية خاصة من الفارسية لتسمية الأدوات والأطعمة والمفاهيم والأشياء التي لم يعرفها العرب من قبل. فترتّب على ذلك تضخّم المعجم العربي في العصر العباسي. فقد كان كلّ شيء محلّ تغيّر بما في ذلك اللغة(١). لكنّ المعاجم أهملت أغلبه.

إنّ هذا الرّصيد – الذي يمكن أن يمثّل معجمًا بحاله- يقدّم شواهد تمكّننا من أن نرصد تقاطع اللغة مع التاريخ، ومن ثمّ تتيح لنا أن نقيم استنتاجات حول حياة اللغة نفسها، وحول واقع العربية الفصحى في علاقتها ببقية المستويات الأخرى(٢). ممّا ييسّر وصفها تاريخيًّا وتحليل عوامل تطوّرها، فإنّ هذه النّماذج تصلح وسائط

(١) نلاحظ خلوّ اللغة العربية البدوية من صنوف الأطعمة مثلاً، التي حفل بها العصر العباسي. والدليل على ذلك قول الجاحظ:

* قيل لأعرابيّ ما اسم المرق عندكم؟ . قال : السخين. قال: فإذا برد؟ قال: لا ندعه حتى يبرد. (انظر البيان، ٤/٩).

* «ومن الطعام الممدوح الحَيْسُ..» (البخلاء، ٢/٢٠٤). (جاء في المعجم الوسيط: الحيس: تمر ينـ ـزع نواه ويدقّ مع أقط، ويعجنان بالسمن..).

* «ذكرنا الطعام الممدوح.. والصنف الآخر الخزيرة، التي تُعاب بها مُجاشع بن دِارم، وكنحو السَّخينة التي تُعاب بها قريش..» (البخلاء، ٢/ ٢٠٩). (جاء في المعجم: الخزيرة: مرقة، وهي أن تصفى بلالة النخالة ثم تطبخ. السخينة: دقيق يُلقى على ماء أو على لبن ثم يُؤكل بتمر).

(٢) اللقاني، ص٢٠.

لتحليل قواعد التوليد في العربية سواء منها الشكلية أو الدلالية.

ولا نعجب عندما تأتي كتب الجاحظ فعلاً على ألسنة أصناف المتكلمين على اختلاف بيئاتهم وثقافاتهم.. وقد قال هو نفسه: «قد ذكرنا.. كلامًا من كلام العقلاء البلغاء، ومذاهب من مذاهب الحكماء والعلماء، وقد روينا نوادر من كلام الصبيان والمحَرَّمين من الأعراب، ونوادر كثيرة من كلام المجانين، وأهل المِرّة من الموسوسين، ومن كلام أهل الغفلة من النوكى، وأصحاب التكلف.. ولكلّ جنس من هذا موضع يصلح له..» [1]. حتى قيل فيه: «لقد عاش في عصر الحرية، ولم ينسلخ عنه كما انسلخ غيره وارتدع غيره من الأدباء. وقد جرّته هذه الحرية في الأدب إلى حرية في اللغة»[2].

وقد اهتمّ الجاحظ بالعلاقة بين التطور اللغوي والتطور الاجتماعي والعلمي. ففيما يخصّ العلاقة بين اللغة والعلم، نبّه الجاحظ إلى أنّ الحركة العلمية في العصر العباسي هي التي استدعت ظهور مصطلحات بوسائل تسمح بها قواعد اللغة نفسها، ذكر منها الاشتقاق.. فقال: «وهم تخيّروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفًا لكلّ خلف وقدوةً لكلّ تابع، ولذلك قالوا : العرض والجوهر، وأيس وليس، وفرّقوا بين البطلان والتّلاشي، وذكروا الهاذيّة والهويّة والماهيّة، وأشباه ذلك.. »[3].

(١) البيان، ٢/ ٢٢٢.

(٢) شفيق جبري: الجاحظ معلم العقل، ٢٢٧.

(٣) البيان، ١/١٣٩-١٤٠.

فأقرّ بضرورة مواكبة الجهد اللغويّ الحركة العلميّة والفكريّة والمعرفيّة عامة، فلا تقدّم لعلم لا يوازيه نشاط لغويّ اصطلاحيّ يدقّق المفاهيم. فيقول: «ولكلّ صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بضاعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك المعاني الصناعية»[1]. ويستشهد على ذلك بأمثلة منها قوله: «وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابًا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزّحاف. وقد ذكر العرب في أشعارهم السِّناد والإقواء والإكفاء، ولم أسمع بالإيطاء. وقالوا في القصيد والرجز والسجع والخطب، وذكروا حروف الرويّ والقوافي، وقالوا هذا بيت وهذا مصراع. وقد قال جندل الطهويّ حين مدح شعره: لم أُقوِ فيهنّ ولم أُساند»[2].

وقال ذو الرمة:

وشعرٍ قد أرقت له غريب أجنّبه المساند والمحالا

«وكما سمّى النّحويون فذكروا الحال والظّروف وما أشبه ذلك؛ لأنّهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو. وكذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم...»[3] ... وكما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشّأن: «..ثم إنّ

(١) الحيوان، ٥٣٩/٣.

(٢) البيان، ١٣٩/١.

(٣) نفسه، ١٤٠/١.

الله عزّ وجلّ، بعد أن أنشأ الخلق وسوّاهم ومكّن لهم، لاشاهم فتلاشوا.. وخطب آخر في وسط دار الخلافة، فقال: وأخرجه الله من باب اللّيْسيّة، فأدخله في باب الأيْسيّة.. وخطب آخر: هذا فرق ما بين السّارّ والضارّ، والدّفّاع والنّفّاع. وقال مرّة أخرى: فدلّ ساتره على غامره، ودلّ غامره على منحلّه.»[1].

ويعلق الجاحظ على هذا بقوله: «وإنّما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتّساع المعاني... وقد يتملّح الأعرابيّ بأن يدخل في شعره شيئًا من كلام الفارسية، كقول العمانيّ للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها:

مَن يلقه من بطل مُسْرَنْدِ في زَغْفة محكمة بالسّرْد

تجول بين رأسه و(الكرد)

والجاحظ لا يكتفي بوصف هذه الظاهرة التطورية بل يعتبرها ضرورة وحقًا لجميع المتكلمين، خاصة من كان منهم باحثًا ومنتِجًا ومُبدِعًا، يقول: «ولكلّ قوم ألفاظ حظيت عندهم، وكذلك كلّ بليغ في الأرض، وصاحب كلام منثور، وكلّ شاعر وصاحب كلام موزون، فلا بدّ من أن يكون قد لهج، وألّف ألفاظًا بأعيانها ليديرها في كلامه، وإن كان واسع العلم، غزير المعاني، كثير اللّفظ.»[2].

وهنا يشير الجاحظ إلى ملاحظة جوهرية، وهي أنّ لكل متكلم في النهاية دورًا في الاستعمال اللغوي، وما من شكّ في أنّ لهذا الدور أثرًا في تغيير واقع اللغة باستمرار، فاللغة رهن المتكلمين بها، ومجرّد استعمالها هو تطوير لها.

---

(١) البيان، ١/ ١٤٠.

(٢) الحيوان، ٣/٥٣٨.

لكنّه انتقد صنوفًا من المولّدات الدلالية التي استعملت في مجالات اصطلاحية وفكرية خاصة لدى أصحاب المذاهب. وقد برّر نقده بقوله: «والأصل في ذلك أنّ الزّنادقة لأَصحاب ألفاظ في كتبهم، وأصحاب تهويل أنّهم حين عَدِموا المعاني، و لم يكن عندهم فيها طائل مالوا إلى تكلّف ما هو أخْصَر وأيسر وأوجز كثيرًا... فصار حظّ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتّصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم: التّناكح والنّتائج والمِزاج والنُّور، والظلمة والدِّفاع، والبِقاع والسَّاتر، والغامِر والمُنْحَلّ، والبُطلان والوِجْدان، والأثير والصَّداق، وعَمود الصّبح وأشكالاً من هذا الكلام نصًّا»(١).

أي إنّ نقده اتّجه إلى مسألة تطويع ألفاظ اللغة العامة لدلالات شديدة الخصوصيّة، لا ترتبط إلا بمجال فنّي ضيّق أو بفئة محدودة من المتكلمين، فلا تعبّر إلا عن مفاهيمها الخاصة. وهذا يُوقع اللغة في الغرابة والتّعقيد والعَجْز عن الفهم. فيقول: «وإن كان غريبًا من فوضى، مهجورًا عند أهل مّلتنا ودعْوتنا وكذلك هو عند عوامِّنا وجمهورنا، ولا يستعمله إلا الخاصُّ، وإلا المتكلّمون..» (٢). ثمّ يعلق بقوله: «فإنّ رأيي في هذا الضّرب من هذا اللّفظ، أن أكون ما دمت في العبارة التي هي عبارتان والعادة فيها أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود، وأدع التّكليف لِما عسى أن لا يَسْلُس، ولا يسهل إلا بعد الرّياضة الطويلة، وأرى أن ألْفظَ بألفاظ المتكلمين، وما دُمْتُ خائضًا في صناعة الكلام، مع خاصّ أهل الكلام، فإنّ ذلك أفهمُ عندي،

(١) الحيوان، ٥٣٨/٣.

(٢) نفسه، ٥٣٨/٣.

وأخفّ لمؤنهم عليّ.»[1].

لكنّ الجاحظ يرفض التكلّف ويدعو إلى أن يجري التوليد مثلما جرى الفصيح نفسه وفق الّطبع والسجيّة، وما تتطلّبه حقيقة الخطاب والفهم والإفهام، لا وفق النزعات إلى طلب التجديد حتى وإن كان مبالغة تفضي إلى التّعمية وحرصًا يؤدّي إلى التجنّي على حقائق اللغة. ويحدّد هذا التكّلف بأنّه في خطب المولّدين. فيقول: «و لم أجد في خطب السّلف الطيّب والأعراب الأقحاح، ألفاظًا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديئًا، ولا قولاً مستكرهًا. وأكثر ما تجد ذلك في خطب المولّدين، وفي خطب البلديين المتكلّفين، ومن أهل الصّنعة المتأدّبين، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أم كان نتاج التحبير والتّفكير.»[2].

ولا يتحرّج الجاحظ من التمييز بين خصائص الفصيح والمولّد كما يلي: «فإن قلت إنّ المولَّد لا يُؤمن عليه الخطأ إذا كان دخيلاً في ذلك الأمر، وليس كالأعرابيّ الذي يحكي ما الموجود الظاهر له الذي عليه نشأ، وبمعرفته غذيَ»[3].

وقد رأينا الجاحظ يدعو إلى مطابقة المقال مع المقام في مستوى استعمال الألفاظ سواء البدوية أو الحضرية، فنراه لا يستهجن استعمال البدويّ الغريب من الألفاظ، بينما يعتبر ذلك تكلفًا وتشادقًا إذا صدر عن الحضريّ. فالمسألة لا تعدو عنده موافقة الطبع واستجابة لواقعية المقام. حتى قال: «فتخليص المعاني رفق،

(١) الحيوان، ٥٣٨/٣. ٥٣٩.

(٢) البيان، ٨/٢-٩.

(٣) الحيوان، ٧٤/٤.

والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بُغْضٌ..»[1].

٢- أثر الحدث الإسلامي في تطوير العربية:

وقد تنبّه الجاحظ إلى أثر التطور التاريخي والاجتماعي في تطور اللغة، فاستشهد بالحدث الإسلامي، وما أحدثه من تغيير في بنية العربية. فصنّف هذا التطور إلى ثلاثة أضرب:

٢-١- موت ألفاظ :

فذكر في هذا الضرب عددًا من مفردات كانت شائعة في الجاهلية ثم زالت بزوال مسمّياتها، فقال:

«ترك الناس ممّا كان مستعملاً في الجاهلية أمورًا كثيرة، فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة، وكقولهم للرّشوة ولما يأخذه السلطان: الحُمْلان والمكْس. وقال جابر بن حُنَيّ:

أفي كلّ أسواق العراق إتاوة وفي كلّ ما باع امرؤ مكسُ درهم

وكما تركوا أن يقولوا: أَنعِمْ صباحًا، وأنعم ظلامًا، وصاروا يقولون: كيف أصبحتم؟ وكيف أمسيتم؟.. وعلى ذلك قال امرؤ القيس:

ألا عمْ صباحًا أيّها الطّلل البالي وهل يَعِمَنْ من كان في العُصُر الخالي

وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السيد المطاع: أبيت اللعن. كما قيل: «مهلاً أبيت اللعن لا تأكلْ معهْ».. وتركوا ذلك في الإسلام من غير أن يكون كفرًا. وقد ترك العبدُ أن يقول لسيّده ربّي. كما يقال: ربّ الدار وربّ البيت. وكذلك حاشية

(١) البيان، ١/٤٤.

السيّد والملك تركوا أن يقولوا: ربّنا...

وكما تركوا أن يقولوا لقُوّام الملوك: السّدنة وقالوا: الحجَبَة.

..وأسماؤه زالت مع زوال معانيها، كالمرباع والنشيطة وبقي الصّفايا، فالمرباع: ربع جميع الغنيمة الذي كان خالصًا للرئيس، وصار في الإسلام الخمس، على ما سنّه الله تعالى. وأما النشيطة فإنّه كان للرئيس أن ينشط عند قسمة المتاع العلِق النّفيس يراه إذا استحلاه. وبقي الصَّفِيُّ وكان لرسول الله (ﷺ) من كلّ مغنم، وهو كالسيف اللَّهْذَم والفرس العتيق والدّرع الحصينة والشيء النادر. وقال ابن عنمة الضبّي:

لك المرباع منها والصّفايا وحُكْمُك والنّشيطة والفُضُولُ

والفضول: فضول المقاسم، كالشيء إذا قُسم وفضلت فضلة استهلكت، كاللّؤلؤة والسيف والدرع والبيضة والجارية وغير ذلك.»[١].

٢-٢- تولُّدُ ألفاظٍ بقواعد التوليد في العربية:

فبرّر ظهورها في فصل بعنوان (كلمات إسلامية محدثة)[٢] بقوله:

وأسماء حدثت ولم تكن، وإنّما اشتقت لهم من أسماء متقدّمة، على التشبيه، مثل قولهم لمن أدرك الجاهلية والإسلام: مخضرم.. ويقال: إنّ أول من سمّى الأرض التي لم تُحفر قطّ ولم تحرث إذا فُعل بها ذلك مظلومة، النابغة الذبياني:

إلاّ الأواريّ لأيًا ما أبيّنها والنّؤيّ كالحوض بالمظلومة الجَلَد

(١) الحيوان، ١/٣٢٧-٣٣٠.

(٢) نفسه، ١/٣٣٠-٣٣٤.

ومن ذلك قولهم: الحرب غَشوم، وإنّما سُمّيت بهذا لأنّها تنال غير الجاني.

ومن المحدث المشتقّ، اسم منافق لمن راءى بالإسلام واستسرّ بالكفر، أُخذ ذلك من النّافقاء والقاصعاء والدامّاء (هي من أسماء حجرة اليربوع)، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمّم... وكما سمّوا رجيع الإنسان الغائط، وإنّما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة للسّتر.

ومنه العذِرة، وإنّما العذرة الفِناء، والأفنية هي العذرات، ولكن لّما طال إلقاؤهم النّجو والزِّبل في أفنيتهم، سمّيت تلك الأشياء التي رموا بها باسم المكان الذي رميت به.

ومنه النّجو: وذلك أنّ الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجة تستّر بنجوة. والنّجو: الارتفاع من الأرض. قالوا من ذلك: ذهب ينجو، كما قالوا : ذهب يتغوّط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر، ثم اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النّجو: قد استنجى.

ومن هذا الباب المَلّة والملّة موضع الخبزة، فسمّوا الخبزة باسم موضعها. وهذا عند الأصمعيّ خطأ (ملاحظة الجاحظ هامة، فليس هذا رأيه).

ومن هذا الشكل الرّاوية، والراوية هو الجمل نفسه، وهو حامل المزادة، فسمّيت المزادة باسم حامل المزادة. ولهذا المعنى سمّوْا حامل الشّعر والحديث راوية. ومنه قولهم: ساق إلى المرأة صداقها. قالوا: وإنّما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون في الصّداق إبلاً، وتلك الإبل يقال لها النافجة... فإذا كانوا يدفعون الصداق عينًا وورقًا، فلا يقال: ساق إليها الصداق. ومن ذلك أنّهم كانوا يضربون

على العروس البناء، كالقبّة والخيمة والخيام، على قدر الإمكان، فيقال بنى عليها، اشتقاقًا من البناء، ولا يقال ذلك اليوم.

ومن ذلك قولهم في البغيّ المكتسبة بالفجور: قحبة، وإنّما القُحاب السّعال. وكانوا إذا أرادوا الكناية عن من زنت وتكسّبت بالزنا، قالوا: قحبت أي سعلت..

ومن الأسماء المحدثة التي قامت مقام الأسماء الجاهلية، قولهم في الإسلام لمن لم يحجّ: صرورة. وأنت إذا قرأت أشعار الجاهلية وجدتهم قد وضعوا هذا الاسم على خلاف هذا الموضع... والصرورة عندهم إذن كان أرفع الناس في مراتب العبادة، وهو اليوم اسم للذي لم يحجّ إمّا لعجز، وإمّا لتضييع وإمّا لإنكار. فهما مختلفان كما ترى...

٢-٣- ظهور مادة حديثة:

ظهور مادة حديثة لم تولّد من مادة قديمة بالاشتقاق أو بالمجاز، ولكنّها ابتدعت ابتداعًا، فقال في فصل سمّاه (ألفاظ القرآن الكريم) [(١)]: «فإذا كان العرب يشتقون كلامًا من كلامهم وأسماءً من أسمائهم، واللغة عارية في أيديهم ممّن خلقهم ومكّنهم وألهمهم وعلّمهم، وكان ذلك منهم صوابًا عند جميع الناس؛ فالذي أعارهم هذه النّعمة أحقّ بالاشتقاق أوجب طاعة. وكما أنّ له أن يبتدئ الأسماء، فكذلك له أن يبتدئها ممّا أحبَّ. قد سمّى كتابَه المنزّل قرآنًا، وهذا الاسم لم يكن حتى كان، وجعل السُّجود للشّمس كفرًا، فلا يجوز أن يكون السّجود لها كفرًا إلا وترك ذلك السجود بعينه يكون إيمانًا، والتّرك للشّيء لا يكون إلا بالجارحة التي

(١) الحيوان، ١/٣٤٨.

كان بها الشيء، وفي مقداره من الزمان، وتكون بدلاً منه وعَقِبًا. فواحدةٌ أن يسمّى السّجود كفرًا، وإذا كان كفرًا كان جحودًا وإذا كان جحودًا كان شِرْكًا، والسّجود ليس بجَحْد، والجَحْد ليس بإشْراكٍ إلا أن تصرفه إلى الوجه الذي يصير به إشراكًا»[١].

وشبيه بهذا فصل ذكر فيه (كلمات للنبيّ (ﷺ) لم يتقدمه فيهن أحد)[٢]: من ذلك قوله: «إذن لا ينتطح فيها عنـ ـزان»، ..«مات حتف أنفه»، «يا خيل الله اركبي»، «كلّ الصّيد في جوف الفَرَا»، «لا يُلْسَع المؤمن من جحر مرّتين»..

إنّ هذه الضروب الثلاثة من المولّدات التي رافقت الحدث الإسلاميّ هي في نظر الجاحظ لا تعدو أن تكون مظهرًا من مظاهر التطوّر اللغوي الذي لازم مراحل العربية خلال تاريخها. فلم ينظر إليها على أنّها جزء من الفصيح مطلقًا سواء أكان جاهليًّا بدويًّا أم إسلاميًّا، بل ميّز بين حلقاته، واعتبر الإسلاميّ حلقة جديدة من حلقات العربية تنضاف إلى مجموع مكوّناتها السابقة ثمّ اللاحقة.

بل إنّ الجاحظ لم يكتف بتقديم هذا التصوّر الذي لا يؤمن بعربية واحدة مستقرّة لا تتحوّل، بل عمد إلى تفسير عوامل تطوّرها وفق عوامل تاريخية واجتماعية كما هو في أمثلة: «ساق إليها صداقها»، أو «بنى عليها».. ووفق قواعد الاشتقاق والمجاز وغيرها.. كما هو في أمثلة: استنجى من النّجو، والمنافق من النّافقاء..، وانتقال دلالات الصرورة والمخضرم والكافر وغيرها..

---

(١) الحيوان، ٣٣٥/١.

(٢) نفسه، ٣٣٥/١.

لكنّ جميع هذه المولَّدات التي حدثت بمجيء الإسلام لا تصنَّفْ ضمن المولّد، بل تُعدُّ من الفصيح، لارتباط الفصاحة بالإسلام. فلا يعدّ مولّدًا إلا ما ظهر خارج عصر الفصاحة (أي بعد القرن الثاني الهجري في المدن والقرن الرابع الهجري في البوادي).

٣- المولّد في عصر الجاحظ:

ظهرت في عصر الجاحظ مولدات لا تكاد تحصى في ألفاظ اللغة العامة ومصطلحات العلوم والفنون التي سادت في عصره فعُدّت مولّدًا لا يرقى إلى مرتبة الفصيح.. وقد استعرضنا بطريقة عشوائية عددًا من الفقرات التي يستعمل فيها الجاحظ اللغة المولَّدة في عصره للتعبير عن المفاهيم الفكرية والقضايا الذّهنية المتشعّبة علميًا واحتيج فيها إلى استحداث مولّدات جديدة للتعبير عن المفاهيم والمعاني الجديدة، وذلك بطريق التوليد الشكلي بظهور دوالّ تحمل مدلولات جديدة؛ أو بإعطاء دوالّ موجودة في اللغة دلالات جديد للتعبير عن الجديد في تجارب الجماعة اللغوية..

وقد وصف الجاحظ أهمية هذه الحركة اللغوية التحديثية باعتبارها ضرورة بقوله: «وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفًا لكلّ خلف وقدوةً لكلّ تابع، ولذلك قالوا : العَرَض والجَوْهَر، وأَيْسَ ولَيْسَ، وفرّقوا بين البُطْلان والتّلاشي، وذكروا الهَاذيَّة والهُويَّة والماهية، وأشباه ذلك.. »[1].

---

(١) البيان، ١/١٣٩.

وفي جميع مؤلفات الجاحظ مقاطع ونصوص وفصول قائمة أساسًا على هذه اللغة المولّدة بعضها ولّد قبل الجاحظ مع بزوغ الحضارة الإسلامية، وبعضها في عصره، ولعلّ جزءًا مهمًّا يعود له الفضل في بقائه حيًّا، أو حتى في ظهوره في لغة الاستعمال.

وكان الجاحظ يوزع هذا الجهد اللغويَّ بين مختلف مستويات اللغة. هذا ما يفسّر انتقاله بين الفصيح والمولَّد والعاميّ والأعجميّ، ودفاعه عنها جميعًا باعتبارها واقعًا لغويًا لا مجال لإنكاره، وإلا زُيّفت اللغة و لم تعد قادرة عن التعبير عن الحياة كما أرادها الجاحظ.

ولعسر الإلمام بظاهرة المولّد في أعمال الجاحظ في بحث محدود لاتّساع أعماله وتعقّد مسألة التوليد فيها بسبب غياب معجم تاريخيّ للغة العربية، فقد رأينا أن نقارب رؤية الجاحظ التوليدية من خلال نماذج مقتطفة من عدد من كتبه الأساسية، وهي فقرات محدودة نوردها على سبيل التمثيل، -وبالإمكان أن نورد عشرات غيرها- لأنّ الحديث عن ظاهرة التوليد في مؤلفات الجاحظ يتطلب عملاً استقصائيًا ضخمًا قد يستغرق مؤلفات لا مقالاً..

٣-١- مجالاته:

ولهذا سنكتفي بنماذج من نصوص، اخترنا أن تكون معالجات لمسائل متنوّعة اجتماعية وفكرية فلسفية، وعلمية.. استعمل فيها الجاحظ ألفاظًا ومصطلحات محدثة للتعبير عن مفاهيم لم تعهدها العربية الفصيحة لأنّها لم تكن جزءًا من تجربة المتكلمين الفصحاء.

٣-١-١- العلوم:

ففي المجال العلمي نعرف أنّ للجاحظ تجربته الخاصة واطّلاعه على قضايا علمية وفلسفية، كنقاشه لمسائل:

-الشّكّ واليقين: * «ولم أكتب هذه للتقوية ولكنّها آية أحببت أن تسمعها ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل. وبعد هذا فاعرف مواضع الشكّ وحالاتها الموجبة لها، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلّم الشّكّ في المشكوك فيه تعلّمًا، فلو لم يكن ذلك إلا تعرُّف التوقّف ثم التثبّت، لقد كان ذلك ممّا يحتاج إليه، ثم اعلم أنّ الشّكّ في طبقات عند جميعهم، ولم يجمعوا على أنّ اليقين طبقات في القوة والضعف. ولما قال أبو الجهم للمكيّ : أنا لا أكاد أشكّ، قال المكيّ وأنا لا أكاد أوقن. ففخر عليه المكيّ بالشكّ في مواضع الشك، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين. وقال أبو إسحاق: نازعت الملحدين والشُّكّاك فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود. وقال أبو إسحاق: الشاكُّ أقرب إليك من الجاحد. ولم يكن يقين قطّ حتى صار فيه شكّ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره، حتى يكون بينهما حال شكّ. وقال أبو الجهم: ما أطمعني في أوبة المتحيّر، لأنّ كلّ من اقتطعته عن اليقين الحيرة فضالته اليقين، ومن وجد ضالته فرح»(١).

- الخلق: * فاستعان بآراء صاحب المنطق ليحلّل ظاهر النشأة والوجود والممكن والممتنع... وهذا نموذج من تحليله للوقوف على خصوصيات معجمه

(١) الحيوان، ٤٠١/٦.

اللغوي وعلاقته بطبيعة المجال المدروس:

* «..ينبغي لكم بعد أن تعرفوا الطبيعة والعادة الغريزة، من الطبيعة العامية، والممكن من الممتنع وأنّ الممكن على ضربين، فمنه الذي لا يزال يكون، ومنه الذي لا يكاد يكون، وما علة الكثرة والقلة، ويعرفون أنّ الممتنع أيضًا على ضربين: فمنه ما يكون لعلة موضوعة يجوز دفعها،.. وبين الامتناع الذي لا علة له غير الشيء وجنسه. وينبغي أن تعرفوا فرق ما بين المحال الممتنع، وما يستحيل كونه من الله..، وما يستحيل كونه من الخلق فإذا عرفتم الجواهر وحظوظها من القوى، فعند ذلك فتعاطوا الإنكار والإقرار...»(١).

* «وكذلك فكلما عددنا، فمن أين يستحيل أن يحلّها إنسان بين مئة طبيعة ومئة جوهر، إما من طريق التبعيد والتعريب، ومن طريق الظنون والتجريب،.. فلو قلتم: إنّ ذلك قائم الجوهر في العقل، مطّرد في الرأي، غير مستحيل في النظر، ولكنّا وجدنا العالم بما فيه من الناس منذ كانا، فإنّ الناس يلتمسون وينتصبون له، ويكلفون به، فلو كان هذا الأمر يجيء من وجه الجمع والتفريق والتركيب، ومن وجه الاتّفاق، لقد كان ينبغي أن يكون ذلك قد ظهر من ألوف سنين وألوف..»(٢).

٣-١-٢- الاجتماع:

ففي المجال الاجتماعي كثيرًا ما طرح الجاحظ قضايا بمناهج كلامية حجاجية

(١) الحيوان، ٥٤٠/٣.

(٢) نفسه، ٥٤٢/٣.

وبلغة تنسجم وطبيعة الموضوع، فنجده يحلّل ظاهرة البخل نفسيًّا واجتماعيًّا ومنطقيًّا:

* «.. فبيّن لي ما الشيء الذي خبل عقولهم، وأفسد أذهانهم، وأغشى تلك الأبصار، ونقض ذلك الاعتدال؟. وما الشيء الذي له عاندوا الحقّ، وخالفوا الأمم؟ وما هذا التركيب المتضادّ والمزاج المتنافي؟ وما هذا الغباء الشديد الذي إلى جنبه فطنة عجيبة؟ وما هذا السبب الذي به خفي الجليل الواضح وأدرك به الدقيق الغامض؟»[1].

* «احتال الآباء في حبس الأموال على أولادهم بالوقف ، فاحتالت القضاة على أولادهم بالاستحجار. ما أسرعهم إلى إطلاق الحجر، وإلى إيناس الرشد، إذا أرادوا الشراء منهم، وأبطأهم عنهم إذا أرادوا أن تكون أموالهم جائزة لصنائعهم»[2].

٣-١-٣- الفكر:

وفي مجال الفكر والاحتفاء بمنزلة العقل، يبحث الجاحظ في خفايا النفس البشرية ونزوعها الدّائم إلى الأنانية والأثرة، وعدم اعتبارها بحقائق الخلق وحكمة الوجود، رغم ما حباها به الله من نعمة العقل والتّفهم والتفكّر:

* «فإذا قسّمنا الغرم عند انهدامها بإعادتها ، وبعد ابتنائها، وغرم ما بين ذلك من مرمّتها وإصلاحها، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها، وارتفقنا به من إكرائها

(١) البخلاء، ٢١/١.

(٢) نفسه، ٩٣/١.

خرج على المسكن من الخُسران بقدر ما حصل للساكن من الربح...» [1].

*قال بعض من خطب على منبر ضخم الشأن: «..ثم إنّ الله عزّ وجلّ، بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ومكّن لهم، لاشاهم فتلاشوا.. وخطب آخر في وسط دار الخلافة، فقال: وأخرجه الله من باب الليسية، فأدخله في باب الأيسية.» [2].

* «فإذا كان العقل سليمًا من آفة المرض ومن آفة التخبيل. والتخبيل ضروب: تخبيل من المرار، وتخبيل من الشيطان، وتخبيل آخر كالرجل يعمد إلى قلب رطب لم يتوقّح، وذهن لم يستمرّ، فيحمله على الدقيق، وهو بعد لا يفي بالجليل، ويتخطى المقدمات متكشفًا بلا أمارة، فرجع حيران بلا يقين..» [3].

* «وسمعتُ أبا حكيم الكيماوي وهو يقول لثمامة بن أشرس: قلنا لكم إنّنا ندلّكم على الإكسير، فاستثقلتم الغرم، وأردتم الغنم بلا غرم، وقلنا لكم دعونا نصنع هذه الجسور التي تهدمها المدود، وتخربها المداري، نحن نعمل لكم مسببات بنصف هذه المؤونة، فتبقى لكم أبدًا..» [4].

٣-١-٤- المذاهب:

وفي مجال المذاهب يعرض الجاحظ لأفكارها ويعمد إلى استعراض المصطلحات التي يقوم عليها فكرها كما هو في هذا النّموذج:

---

(١) البخلاء، ١/ ١٥٢.

(٢) البيان، ١/ ١٤٠.

(٣) الحيوان، ٥٤٣/٣.

(٤) نفسه، ٣/ ٥٤٥.

* فصار حظّ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتّصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم: التّناكح والنّتائج والمِزاج والنُّور، والظلمة والدِّفاع، والبقاع والسَّاتر، والغامِر والمُنْحَلّ، والبُطلان والوِجْدان، والأثير والصَّداق، وعَمود الصّبح وأشكالاً من هذا الكلام نصًّا»(١).

* «وددتُ أنّ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة..، وعلى استجادة الخطّ والإرغاب لمن يخطّ»(٢).

٣-١-٥- الحيوان:

وفي مجال أبحاثه في الحيوان يطغى معجم مختصّ، وهذه بعض مظاهره:

* «وللحمام حسن الاهتداء، وجودة الاستدلال، وثبات الحفظ والذكر، وقوة النـزاع إلى أربابه، والإلف لوطنه.. وأنّه يجيء من الغاية على التدريج، والتدرب والتنـزيل. والدليل على علم أربابه بأنّ تلك المقدمات قد نجعن فيه، وعملن في طباعه، أنّه إذا بلغ الرقة غمز، وأنّه قطره إلى الدرب.. بل لا يجعلون ذلك تغميزًا لمكان المقدمات والترتيبات التي قد عملت فيه وحذقته ومرنته.»(٣).

٣-١-٦- الدراسات اللغوية:

وفي مجال الدراسات اللغوية يعرض الجاحظ أهمّ ما توصّل إليه العلماء في مستوى التوفيق بين تطور المباحث اللغوية والمصطلحية العربية المناسبة، ومن أمثلة

(١) الحيوان، ٥٣٨/٣.

(٢) نفسه، ٥٥/١.

(٣) نفسه، ٤٧٦/٣.

ذلك قوله:

* كما وضع الخليل لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابًا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزّحاف. وقد ذكر العرب في أشعارهم السِّناد والإقواء والإكفاء، و لم أسمع بالإيطاء. وقالوا في القصيد والرجز والسجع والخطب، وذكروا حروف الرويّ والقوافي، وقالوا هذا بيت وهذا مصراع. وقد قال جندل الطهويّ حين مدح شعره: «لم أُقوِ فيهنّ و لم أُساند».[1]

* وكما سمّى النحويون فذكروا الحال والظّروف وما أشبه ذلك؛ لأنّهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلديين علم العروض والنحو. وكذلك أصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم...[2].

٣-١-٧- المجون:

وفي مجال اللهو والمجون يستعمل الجاحظ المعجم الذي ساد في عصره ، ويغرق في تفاصيله:

* «وربما غلب عليه حبّ القيان، واستُهتر بالخصيان. وربما أفرط في حبّ الصيد..» [3].

---

(١) البيان، ١٣٩/١.

(٢) نفسه، ١٤٠/١.

(٣) البخلاء، ١/ ٩٩.

وقال الجاحظ عن القينة: * «لا تكاد تخالص في عشقها، ولا تناصح في ودّها لأنّها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين»(١).

* ويقول عن المقين: «..يعرف كيف يشدّ الطول المرخى ويفتح العين المغضية حين يحسب الرّبيط أنّه أوشك على غايته والظفر بسؤله.. »(٢).

* «فإنّ بعض القيان كنّ يضربن ستارة تحول بينهم وبين المستمعين يغنّين من ورائها... المستمتعين بالنعمة والمؤثرين للّذّة المتمتعين بالقيان وبالإخوان، المعدّين لوظائف الأطعمة وصنوف الأشربة والراغبين بأنفسهم عن قبول شيء عن الناس أصحاب السّتر والستارات والسرور والمروءات وأصحاب السرور... المستمتعين بالنعمة..» (٣).

فقد لاحظنا أنّ هذه الألفاظ المسطّرة مثلاً، في هذه الفقرات المختارة عشوائيًّا، هي جميعًا ألفاظ ومصطلحات من ميادين اجتماعية أو علمية فكريّة وفلسفية قد تولّدت بفعل الحاجة والضرورة، حُمّلت دلالاتٍ لا تشير إليها في الغالب المعاجمُ اللغويّة أو كتب اللغة المتقيّدة بالمستوى الفصيح وحده. لكن نلاحظ أنّ اهتمام الجاحظ بهذه المولّدات يدخل ضمن مواقفه اللغوية التي حلّلنا، ممّا يكسب رؤيته هذه الحريّة والواقعية التي هي شرط لتطور اللغات. وهو بالفعل ما سلكته العربية ولكن خارج مؤسّسة النّحو والمعجم. وهذه نماذج ممّا حاولنا وصفه لتقريب الجهد

(١) الرسائل، ٢/٧١.

(٢) نفسه، ٢/١٧٧.

(٣) نفسه، ٢/١٤٣.

الجاحظي من دارس العربية لمعرفة عُمْق النظرية الجاحظية من ناحية، والدور الذي نهض به في بلوغ العربية ما بلغته، وهو معلّم العقل وباعث النّثر العربي.

٤- معالجة لنماذج من المولّدات في مؤلفات الجاحظ:

وقد رأينا أن نعالج هذه الوحدات المولّدة التي استخرجنا بالاعتماد على مظهري التوليد وهما: -التوليد الشكلي (ويتمثّل في ظهور دوالّ جديدة في اللغة، بقواعد الاشتقاق الصرفي خاصة للتعبير عن مدلولات جديدة)؛

- والتوليد الدلالي (ويتمثّل في إعطاء مدلولات جديدة لدوالّ موجودة في اللغة، فيتمّ التعبير عن المعاني الجديدة بتغيير معاني الدوالّ القديمة بطرق المجاز والاستعارة والكناية خاصة).

وفيما يلي نورد نماذج من النوعين من التوليد مصنّفة وفق المجالات التالية:

- ألفاظ اللغة العامة،
- مصطلحات العلوم والفنون،
- مصطلحات اللهو والمجون.

٤-١- التوليد في ألفاظ اللغة العامة:

٤-١-١- التوليد الشكلي:

١. أبردنا: * «وجدتُ مسّ الشمس ووقعَها على الرأس، أيقنتُ بالبِرْسام.. فقلتُ .. الرأي أن نقيل.. فإذا أبْرَدْنا تفرّقنا..» [1]. استعمل الجاحظ صيغة (أفْعَلَ

(١) البخلاء، ١/ ٧٥. (جاء في شرح المحققين: البرسام: علة يُهذى فيها..).

= أَبْرَدَ) بمعنى (بَرَدَ)، وهذا دليل على التّناوب الذي كان في الاستعمال القديم بين صيغتي (أفْعَلَ وفَعَلَ). وفي العربية الحديثة انتهى هذا التناوب بين الصيغتين وتمحّضت كلّ صيغة لفعل. فلا يقال مثلاً اليوم: (أبرد المسافر بل برد)، كما لا يقال: (وقفت السيارة، بل أوقفتها)، رغم تشدّد القدامى في وجوب استعمال (وقفت الدابة، لا أوقفتها).

٢. الأراييح: * «ثم قالوا في سائر الأراييح والألوان والأصوات».(١) جمع الجاحظ: (الريح) على (الأراييح)، والمعروف جمع (ريح) على (أرواح) و(أراويح) وهو جمع الجمع. ويقول السامرائي: «إذا كان الجمع على الشذوذ (أرايح)، لا بدّ من أن تكون (أراييح) على سبيل إشباع الكسر.»(٢).

٣. ارتفقنا: * «فإذا قسّمنا الغرم عند انهدامها بإعادتها ، وبعد ابتنائها، وغرم ما بين ذلك من مرمّتها وإصلاحها، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها، وارتفقنا به من إكرائها خرج على المُسْكِن من الخُسران بقدر ما حصل للساكن من الربح...»(٣). استعمل الجاحظ صيغة (ارتفق =افتعل) من مادة (رَفَقَ) ليعبّر عن معنى (استفادة الفاعل من الفعل). وهذا تطويع مفيد لما فيه من تعبيرية واختصار، ولكنّنا افتقدنا اليوم هذه المرونة ربما بسبب الخوف من اللحن.

٤. الأرَضين: * «ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعًا. والجاري

---

(١) الحيوان، ٥/٤٠.

(٢) السامرائي: من معجم الجاحظ، ١٨٦.

(٣) البخلاء، ١/ ١٥٢.

على أفواه العامة غير ذلك»[1]. يبدو أنّ في كلام الجاحظ السابق لهذا وهو: «وإذا ذكر (أي الله) سبع سماوات لم يقل الأرَضين» إشارة إلى أنّ القياس أحد عوامل التوليد، فالعامة اتّخذت الجمع في لفظ (سماوات) الوارد في القرآن، مقياسًا لجمع الأرض كذلك على (أرضين)، مع أنّ هذا الجمع لم يرد في القرآن ولا في النصوص الفصيحة الأخرى.

٥. إرغاب: * «وددتُ أنّ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة..، وعلى استجادة الخطّ والإرغاب لمن يخطّ..» [2]. جاء (الإرغاب) مصدرًا من (أرغب)، بمعنى (رغب رغبة). وهذا التبادل بين صيغتي (أفعل= فعل) ومصادرهما انتهى في العربية الحديثة، وانتهت حركة تطور الصيغتين إلى اختصاص كلّ واحدة منهما بعدد من الأفعال المعيّنة. فبينما يشيع اليوم (رغب) بدل (أرغبَ)، لا نقول اليوم (وقف السيارة) بل (أوقفها) وهو ما كان أفصح في العربية القديمة...

٦. استأمّ: * «أتاكم أخوكم يستئمّكم»[3]. صيغة (استفعل) المزيدة المشتقة من الفعل الثلاثي (أمّ) بمعنى قصد. ويؤدّي بناء (استأمّ) دلالة أعمق هي: (القصد + الأمل). ولكنّنا لا نجده في المعاجم.

٧. استحبر:*«وأنشدني العُكَليّ في تنشُّم الذئب الريحَ واستنشائه واسترواحه»:
يستحبر الريح إذا لم يسمع   بمثل مِقراع الصّفا المُوقّع[4]

(١) البيان، ١/١٩ ،٢٠.

(٢) الحيوان، ١/٥٥.

(٣) البخلاء، ٢/١١١.

(٤) البيان، ١/ ٨٢.

وصيغة (استفعل) المزيدة المشتقّة من الفعل الثلاثي (حَبَرَ) بمعنى سُرَّ ونَعِمَ. ويؤدّي بناء (استحبر) دلالة الطلب. فهو يأمل أن يجد في الريح ما يسبغ عليه الحبور والنعيم. وواضح تعمّد الجاحظ هذه الصيغة لإيجازها ودقتها، مع عدم ورودها في المعاجم.

٨. استحرق: * «أصبح ثُمامة شديد الغمّ حين احترقت داره. وكان كلما دخل عليه إنسان قال: الحريق سريع الخُلْف، فلمّا كثر ذلك الكلام منهم قال: فلْنَسْتَحْرِق الله. اللهمّ إنّي أستحرقك، فأحرق كلّ شيء لنا»[١]. يقول السامرائي: «الاستحراق: طلب الإحراق (على غرار الأفعال المزيدة بالألف والسّين والتاء).. غير أنّي لم أجد هذا الفعل في المعجمات»[٢].

٩. استزار: * «كان ابن العقديّ ربّما استزار أصحابه إلى البستان.» [٣].. استعمل الجاحظ صيغة (استفعل) فقال: استزار على بناء (استدعى). وفي ذلك تطويع لمادة (زار) حتى تصبح قادرة عن التعبير عن معنى الطلب.

١٠. استسمن: * «وإنْ اِسْتَسْمَنَ أبو الهُذَيْل شيئًا..»[٤]. أما صيغة (استسمن = استفعل) من مادة (سمن)، أي وجد الشيء سمينًا. والصيغة كفيلة بالتعبير عن الإحساس..

١١. استفضال: * «إنّما أعيش بكدّي وباستفضال الحبّة والحبتين.. فنقدتُ

(١) البخلاء، ١/٦١.

(٢) السامرائي: من معجم الجاحظ، ٩٦.

(٣) البخلاء، ٢/٥٣.

(٤) نفسه، ٢/ ٦٤.

عنكَ درهمين وأربع شعيرات.. أسلفتُك في الصيف، فقضيتُك في الشتاء..»[1].
استفضال: مصدر من (استفضل= استفعل) بمعنى أفضل أو فضّل. نلاحظ ميل الجاحظ لصيغة (استفعل) لاشتمالها على أكثر من دلالة (الجهد + التفضيل).

١٢. استُهتِر: * «.. وربما غلب عليه حبّ القيان، واستُهتر بالخصيان. وربما أفرط في حبّ الصيد..» [2]. وذكر المحققان: «استهتر (بالبناء للمفعول) بالشيء: أولع به. والولع بالخصيان نوع من الإسراف كان شائعًا إذّاك.»

١٣. الأسماع: * «..أنّه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع»[3]. وهذه ملاحظة مهمة لأنها تعبّر عن انتشار صيغة الجمع (الأسماع) قياسًا على الصيغة الموجودة في القرآن (الأبصار). وهذا دليل آخر على إمكان حدوث تطور في الأبنية الصرفية بالقياس على أبنية أخرى. وهو ما يعرف اليوم بالحاجة إلى التطابق.

١٤. أضللت: * «أضللت ناقة لي عشراء، وأنا بالبدو، فخرجت في طلبها..»[4]. هذا الاستعمال لصيغة (أضلل) بمعنى (ضلّ) دليل آخر على تبادل صيغتي (أفعل= فعل) في الاستعمال في العربية القديمة لأداء نفس القيمة المعنوية. فكلاهما فعل لازم. وبينما بقي (ضلّ) لازمًا، لا يُفهم من (أضلّ) في الاستعمال الحديث إلاّ صيغة متعدية بمعنى: (جعله يضلّ).

١٥. إكراء: * «فإذا قسّمنا الغرم عند انهدامها بإعادتها ، وبعد ابتنائها، وغرم ما

(١) البخلاء، ٧١/١.
(٢) نفسه، ١/ ٩٩.
(٣) البيان، ١٩/١ ،٢٠.
(٤) الحيوان، ٥٦٩/٣.

بين ذلك من مرمّتها وإصلاحها، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاتها، وارتفقنا به من إكرائها خرج على المسكن من الخُسران بقدر ما حصل للساكن من الربح..»(١). نلاحظ تداخل صيغتي (أفعل وفَعَل)، فإنّ الجاحظ قد فضّل استعمال صيغة (أكرى إكراء) بمعنى (كرى كراء) الشائع اليوم إلى جانب فعل (اكترى).

١٦. أكيل: * «من يشك أن الوحدة خير من جليس السوء؟ وأن جليس السوء خير من أكيل السوء؟ لأنّ كل أكيل جليس، وليس كلّ جليس أكيلاً...» (٢). استعمل الجاحظ أكيل من (أكل) كجليس، على صيغة (فعيل) بمعنى (فاعل) ولكن بإضافة معنى المشاركة في الأكل. فلو قال: (الآكل) لاكتفى بالتعبير عمّن يأكل فحسب.

١٧. إياس : * «وذلك أنّ أحبّ الأصحاب إليه أبلغُهم قولاً في إياس الناس ممّا قِبَلَه..» (٣). ويشتق من الفعل (أيس) مصدران (أيس وإياس) بمعنى (يئس يأسًا) أي انقطع رجاؤه. ولا يستعمل في العربية الحديثة إلا الصيغة الثانية.

١٨. بَعِل: * «فلما أبصره بَرِقَ وبَعِلَ..» (٤). يقول السامرائي: «المراد بالفعل (بعل) دهش وفرِق فلم يدر ما يصنع. وهذا المعنى لم تثبته معجمات العربية كاللسان والقاموس وغيرهما». لكنّ المعجمين المذكورين ومعهما الوسيط يعرّفان هذا الفعل كما يلي: «بعِلَ بأمره: دهِشَ وفرق وبرم فلم يدر ما يصنع، فهو بعِلٌ».

---

(١) البخلاء، ١/ ١٥٢.

(٢) نفسه، ١/ ١٢٣.

(٣) البخلاء، ١/ ٨٢.

(٤) الحيوان، ١/ ١٧٢.

ولكن ما يلاحظ فعلاً هو زوال هذا الفعل من الاستعمال، ولا ندري بسبب انعدام معجم تاريخي عوامل ذلك الاندثار وتاريخه.

١٩. البلاّغَة: * «حتى كان يبلغ في الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاّغة من الرجال المعروف بالنّميمة والتّقتيت»[1]. يقول السامرائي: «لم أجد كلمة (البلاّغة) ببناء المبالغة هذا الذي أراده الجاحظ. فالبلاّغة هو المبلّغ. ولكنّه خصص في كلام الجاحظ بإبلاغ الخبر السيئ. فكأنّه مرادف للنّمّام والقتّات. ومن غير شكّ أنّ هذا من الاستعمال الخاص الذي أراده الجاحظ تمكنًا وتوسعًا»[2].

٢٠. تربّح: * «إنّ التّربّح والتّكسّب والاستئكال بالخديعة والطُّعَم الخبيثة فاشية»[3]. جاء في القاموس: «تربّح: تحيّر»؛ وفي الوسيط: «تربّح: طلب الكسب وتحيّر». والمعروف أنّ هذه الصيغة (تفعّلٌ) مصدر مشتق من فعل مزيد بحرفين (تفعّل = تربّح) بمعنى قام بالفعل لفائدته. أي طلب الرّبح كـ (تكسّب وتبلّغ، وتنعّم..). لكننا لا نجد هذا الفعل في الاستعمال الحديث، رغم يسره وقياسية صيغته ودلالته ولم يعوّضه فعل من جذره، بل يشيع في الاستعمال الحديث فعل (تكسّب).

٢١. ترتضع: * «والعنـز هي التي ترتضع من خِلفها وهي مُحَفّلَة»[4]. هذه الصيغة (افتعل = ارتضع) من الفعل الثلاثي (رضع)، ومعناه في القاموس: «قيام

(١) الرسائل، ١٥٣.

(٢) من معجم الجاحظ، ص٤٧.

(٣) البخلاء، ١٢٢/٢.

(٤) الحيوان، ٤٦٩/٥.

العنز بشرب لبن نفسها». وربّما غرابة الظاهرة وندرتها هي التي أدّت إلى اندثار الفعل من الاستعمال الحديث، رغم محافظة المعجم الوسيط عليه. ولكن فائدته تبقى في تطويع الصيغ الصرفية بفوائدها الدلالية للتعبير عن الظاهرة أو المفهوم بدقّة وإيجاز.

٢٢. ترمرم: * «وتركه لا يستطيع أن يترمرم»[١]. وفي الوسيط: «ترمرم: حرّك فاه للكلام ولم يتكلّم، يقال: كلّمته فما ترمرم بحرف»: أي ما تكلم. ولا وجود لهذا في العربية الحديثة. لكنّنا نجد في العامية التونسية (كلام مرمرم) أي غير واضح. ولعلّه منه.

٢٣. تساكر: * «حتى إذا انصدع عمود الصبح خرجتُ في أوائل المدلجين.. فتساكر أبو مازن.. فخلّع جوارحه، وخبل لسانه.. ودخل لا يشكّ أنّ عذره قد وضح ، وأنّه قد ألطف النظر..»[٢]. هذه الصيغة (تفاعل) تدلّ على التظاهر بالشيء، وهنا إظهار السّكر زيفًا لتبرير تصرّف ما.

٢٤. تستسفلون: * «وقال صاحب الكلب: إن كنتم إنّما تستسقطون الكلب وتستسفلونه بهذا وأشباهه، فالجيفة أنتن من العذرة، ..» [٣]. استعمل صيغة (استفعل = استسفل) من مادة (سفل)، أي اعتبار الشيء سافلاً.

٢٥. تستسقطون: * «وقال صاحب الكلب: إن كنتم إنّما تستسقطون الكلب

(١) البخلاء، ٩٩.

(٢) نفسه، ١/ ٧٦- ٧٧.

(٣) الحيوان، ١/٢٢٨.

وتستسفلونه بهذا وأشباهه، فالجيفة أنتن من العذرة،..»(١). استعمل صيغة (استفعل = استسقط) من مادة (سقط)، أي اعتبار الشيء ساقطًا. وهنا نلاحظ توظيف الجاحظ للصيغ الصرفية لمرونتها واختصارها في أداء المعاني بدقة. وهو ما قلّ اعتماده في العربية الحديثة، التي أصبحت تعتمد على التفسير أكثر من اعتمادها على وظيفة البنية الصرفية في أداء المعاني.

٢٦. تُسْهِل: * «الأروى تسكن الجبال ولا تُسهل»(٢).. استفادت العربية من الاشتقاق من الأسماء الجوهرية وأسماء المواليد والأعلام مبكّرًا. ومن دلالات صيغة (أفعل) الدخول في المكان فقيل: أبحر وأصحر.. كما قال الجاحظ: أسهل أي دخل في السهل.

٢٧. تشحين: * «ولا قدر على تشحينه وكتمانه»(٣). استعمل الجاحظ مصدر (تشحين) من فعل (شحّن). ويقول السامرائي: «لم أجد الفعل المزيد (شحّن)، غير أنّي وجدت: شَحَنَ القوم: طردهم.. وعلى كلّ حال فالجاحظ قد اختصّ بهذا الاستعمال».

٢٨. تشرّط: * «ومن نضّد وتشرّط الشروط استحقّ الحرمان»(٤). اشتق صيغة (تفعّل = تشرّط) من (شرَط)، وفي الوسيط: شرّط الشّرْطَ: «وضع ما يُلتزم به»، و«تشرّط في عمله: تأنّق فيه». ولا وجود للدلالة التي قصدها الجاحظ من

---

(١) الحيوان، ١/٢٢٨.

(٢) نفسه، ٤/٣٥٢.

(٣) الحاسد والمحسود، ص٧؛ وانظر: من معجم الجاحظ، ص٢٢٤.

(٤) البخلاء، ١/٦١.

(تشرّط)، والشائع للتعبير عن هذه الدلالة (اشترط أو شَرَطَ). لكن يبدو الجاحظ من المُغلّبين لاستعمال صيغ المزيد بأنواعها للاستفادة من معاني التأكيد والمبالغة وغيرها الكامنة فيها، واستيعابًا لطاقة اللغة الواسعة. فكأنّه يدعو إلى استغلال هذه المقدرة وفق قواعد العربية.

٢٩. تطاعم: * «.. قال رجل منهم لصاحبه، وكانا إمّا متزاملين وإما مترافقين: لم لا نتطاعم، فإنّ يد الله مع الجماعة..» (١). تفيد صيغة (تفاعل) المشاركة، ومنها اشتق الجاحظ (تطاعم) بمعنى الاشتراك في تناول الطعام. وفي الوسيط: «تطاعما: طعما معًا». لكن لا وجود لهذه الصيغة في استعمال العربية الحديث.

٣٠. تعاظم: * «فلما قرأ أخوه كتابه، تعاظم ذلك وهاله.» (٢). ومعنى صيغة (تفاعل = تعاظم) وجد الأمر عظيمًا على نفسه. لا يقدر على تحمّله. ونقف هنا عند أهمية اعتماد الجاحظ على دلالة البنية للدقة والإيجاز.

٣١. تكفّر: * «فإذا تكفّر الرجلُ بسلاحه، نكّره كلبُه.» (٣). والمقصود بـ (تكفّر) لبس سلاحه فغطاه، لأنّ أصل الكُفْر التَّغْطية. فالليل كافر والبحر كافر.. والزارع كافر لستره البذر بالتراب. ويطلق في بعض العاميات الكَفْر على الحقل، ككفر قاسم..

٣٢. التِّلْقامة: * «أكل عبد الرحمن .. على خوان معاوية فرأى لُقَم عبد

(١) البخلاء، ١/٤٧.
(٢) نفسه، ٢/٦١.
(٣) الحيوان، ٢/٧٢.

الرحمن، فلما كان بالعشيّ وراح إليه أبوه بُكْرَةً ، قال له: ما فعل ابنك التِّلْقامة؟ قال: اعتلّ. قال: مثله لا يعدم العلة.» [1]. والتّلقام في الوسيط: «الكثير اللُّقم أو العظيمها». هذا البناء النادر (تِفعالة) الذي يفيد المبالغة بصيغة (تِفعال+ تاء التأنيث) اشتقّ من (لقم)، فيقال: تِلْقام وتِلْقامة.

٣٣. تنخّس: * «فإنّ الرجل يتنخّس في بيع الزّنج»[2]. تنخّس بمعنى: احترف النخاسة. وما يهمّنا هنا اشتقاق الجاحظ صيغة (تفعّل = تنخّس) من اسم الحرفة (النِّخاسة) لتوليد فعل من هذه المادة معبّر عن الدخول في حرفة (النِّخاسة)، وهو ما شاع بعد ذلك في العربية.

٣٤. جبين: * «خرج جبينًا مؤاكلاً»[3]. يقول السامرائي: «لم أجد بناء (فعيل) من الجبن للدلالة على هذا المعنى، وهو الهَيوب للأشياء، فلا يقبل عليها فكأنّه شيء من معاني (الجبان). وهذا ممّا اختص به الجاحظ من الكلم والأبنية..»[4]. لكنّ ما نجده في القاموس لا يبعد عن دلالة الجبن فهو يقول: «رجل جبان: هيوب للأشياء، لا يقدم عليها، ج. جُبناء، وهي جبان وجبانة وجبين..»؛ أما الوسيط فيقول: «جبُن، جبَنَ: تهيّب الإقدام على ما لا ينبغي أن يُخاف منه. فهو وهي جبين وجبانٌ ويقال: جبانة».

(١) البخلاء، ٨٩/٢.

(٢) الحيوان، ٢٨٩/٥.

(٣) نفسه، ٨٤/٤.

(٤) من معجم الجاحظ، ص ٧١.

٣٥. الجريّ: * «ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجريّ»[١]. جاء في القاموس وفي الصحاح: الجريّ هو الوكيل، لكن في اللسان الجريّ هو الرسول.. والجريّ: الخادم أيضًا. يقال: «جرّيت جريًّا: أي وكلت وكيلاً.»[٢].

٣٦. خلّع: * «.. فتساكر أبو مازن.. فخلّع جوارحه، وخبل لسانه..»[٣]. اشتقّ صيغة (فعّل= خلّع) من الثلاثي (خلع) بمعنى: نزع الجوارح من مكامنها. والمعنى المراد في نصّ الجاحظ: التظاهر بالفزع.

٣٧. الخُلقان: * «وكان علينا في صنعة الحُراق وفي معالجة القطنة مؤنة.. والحراق لا يجيء من .. الخُلْقان..»[٤]. وفي القاموس: «الخَلَق: البالي للمذكر والمؤنث، جمع خلقان»؛ وفي الوسيط: لا وجود لصيغة الجمع (خلقان)، بل (أخلاق) من «خلَق وخلُق وأخلق الثوبُ: بلي، وفلان: صارت ملابسه أخلاقًا». ويبدو أنّ هذه الصيغة الدالة على المبالغة قديمة وزالت من الاستعمال الحديث تمامًا.

٣٨. دسيس: * «ولقد خفتُ أن أكون عند كثير من الناس دسيسًا من قبله وكمينًا من كمنائه»[٥].. والدسيس: على بناء (فعيل) وهو من تدسّه ليأتيك بالأخبار. وفي الحديث نلاحظ زوال صيغة (فعيل = دسيس) من (دسّ)، ولا يستعمل إلا (جاسوس)، بينما (دسيس) أعمق دلالة لأنّها تعبّر عن دلالتين

---

(١) الحيوان، ١/٧٦.

(٢) من معجم الجاحظ، ص ٧٧.

(٣) البخلاء، ١/ ٧٦ - ٧٧.

(٤) نفسه، ١/٦٧.

(٥) نفسه، ١/ ٨٢.

متكاملتين هما: التجسّس، والدسّ. أي العمد والتكليف.

٣٩. دينار بهرج: [١] «.. ثم لا يدع مزأبقًا، ولا مكحّلاً، ولا زائفًا، ولا دينارًا بهرجًا إلا دسّه فيه، ودلّسه عليه..»

٤٠. ذَوَاق: * «ما ذقت اليوم ذواقًا» اعتبر الجاحظ هذا البناء محدثًا في العربية فعلق عليه بقوله: «وهذا من عجيب الكلام»[٢].. أراد بالذواق المأكول والمشروب. فإنّ بناء (فَعال) قد يؤدي المفعول ومنه الطعام والشراب للمطعوم والمشروب[٣].

٤١. رُواع: * «وإذا وصفوا الناقة بأنّها رُواع شديدة التفزّع.»[٤]. استعمل الجاحظ صيغة (فُعال) من (راع)، وهي صيغة دالة على المبالغة، نادرة الاستعمال في العربية قديمًا وحديثًا منها (طُوال، وكُبار..).

٤٢. شارعات: * «..وأما الذي عبتموه .. من نوم (الكلب) على شارعات الطرق والسكك العامرة»[٥]. شارعات[٦]: يبدو أنّ الجاحظ لا يقصد جمع (شارع) جمع قلة بزيادة (ات)، بل غرضه أن يجمع الكلمة جمعًا لا تنكره العربية،

(١) البخلاء، ١/ ١٥٣.

(٢) نفسه، ١٩٣/٥.

(٣) من معجم الجاحظ، ص١٦١.

(٤) الحيوان، ٢٧٣/٥.

(٥) نفسه، ٢٨٣/١.

(٦) نفسه، ٢٨٣/١. «..وأما الذي عبتموه .. من نوم (الكلب) على شارعات الطرق والسكك العامرة».

فجاء بذاك. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ دلالة (شارع) محدثة، لاتّصالها بمفهوم الشارع في المدينة، لا بمفهوم الشارع في البادية.

٤٣. الشُّجعاء: * «والعرب تُنزل الشُّجعاء في المراتب»[١]. جمع (شجعاء كحكماء)، والشائع (شُجْعان). إلا أن يكون (شجعاء) جمعًا لـ (شجيع كحكيم). مع فارق ما بين (فعيل) الصفة، و(فُعال) المبالغة.

٤٤. طفيليّ: * «وقول ناس: فلان طفيليّ، ليس من أصول كلام العرب: ليس كالراشن واللعموظ. وأهل مكة يسمونه البُرَقيّ»[٢] وكان بالكوفة رجل من بني عبد الله بن غطفان يسمى (طُفيْل) كان أبعدَ الناس نُجْعَة في طلب الولائم والأعراس. فقيل له لذلك: طفيل العرائس. وصار ذلك نبزًا له ولقبًا لا يُعرف بغيره فصار كلّ من كانت تلك طِعْمَته يقال له: طفيليّ.» [٣]. وحسب الجاحظ حينئذ (طفيليّ) نسبة إلى اسم علم (طفيل) للتعبير عن صفة خاصة فيه وهي طلب الولائم، لتصبح (طفيليّ) اسمًا لكلّ من يتّصف بهذه الصفة. وهذا دليل على علاقة التوليد بواقع المتكلمين وتعبيره عن تجاربهم.

---

(١) نفسه، ١٩٢/٥.

(٢) البخلاء، ١٤٠/١.

(٣) البخلاء، ١٤٠/١. لكنّ المعاجم تضع كلمة (طفيلي) في مادة (ط ف ل) التي يرجع مدلولها الأصلي إلى النعومة واللين ومنها جاء الطفل، بمعنى الرّخص والصغير من كلّ شيء (تاج العروس). ويقول الخفاجي: «التطفيل: الإتيان بغير دعوة. وقال الليث: هو من كلام أهل العراق.. وقول العامة: طفيلي، مولّد لا يوجد في العتيق من كلام العرب.» (تاج العروس، والوسيط) . وهذا من التوليد العفوي الذي يحدث على لسان فرد ثم يشيع.

٤٥. عريف: * «أن يكون الغَمْرُ عريفًا»(١). اشتق على صيغة (فعيل) (عريف) بمعنى صيغة المفعول (معروف). ولا ندري عدم انتشار هذه الصيغة (فعيل) حتى تمحّضت لرتبة عسكرية، وفقدت دلالتها المعجمية.

٤٦. التّغريق: * «وربما رأيت أحدهم يمسكها (اللقمة) في الخلّ بعد التغريق ساعة»(٢). والتغريق مصدر من (غرّق) أي غمس اللقمة كاملة في الخلّ فكأنّها غرقت. وواضح التأكيد على فكرة الرغبة لدى البخيل في الحصول على أكبر قدر من الخلّ. ووجدنا الجاحظ ينقل نفس الفعل (غرّق) من المحسوس إلى المجرّد في قوله: «شرّ الألفاظ ما غرّق المعاني وأخفاها»(٣). فالمعنى يتأكد بصيغة (فعّل) للمبالغة، سواء في الحقيقة أو في المجاز.

٤٧. فحّال: * «إذا كان الفحل من الإبل كريمًا قالوا: فحيل؛ وإذا كان الفحل من النخل كريمًا قالوا: فُحّال»(٤). خُصّصت صيغة المبالغة (فُعّال) حسب الجاحظ للفحل من النخل إذا كان كريمًا.

٤٨. فحيل: * «إذا كان الفحل من الإبل كريمًا قالوا: فحيل؛ وإذا كان الفحل من النخل كريمًا قالوا: فُحّال»(٥). خُصّصت صيغة المبالغة (فَعيل) حسب الجاحظ للفحل من الإبل إذا كان كريمًا.

---

(١) الحيوان، ٢١٧/٣.

(٢) البخلاء، ٧٧/١.

(٣) التربيع والتدوير، ص٢٠.

(٤) البيان، ٩٦/٣.

(٥) نفسه، ٩٦/٣.

٤٩. القَبالات: * «.. وفي طلب الولايات، والدخول في القبالات»[١]. وذكر الوسيط أن (القَبالة) هي (الكَفالة): اسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوهما. وقبُل الرجل قبلا: صار قبيلاً أي كفيلاً. والكفيل هو الضامن. لكنّه لم يذكر صيغة الجمع (القبالات) وهي اسم جامع لكلّ ما يدخل في هذا الباب. ولا وجود لهذه الكلمة مفردة أو جمعًا في الاستعمال الحديث. ولعلّ هذا راجع لتبدّل النظام الاجتماعي من نظام قبليّ إلى نظام مدنيّ، لم يعد فيه للكفيل مكان.

٥٠. قطّ: * «فهل فكرتَ قطُّ في فصل ما بينك وبين الخلق المسخَّر لك؟»[٢]. يذهب اللغويون إلى أنّ (قطّ) ظرف للزمان الماضي يستعمل بعد النفي عادة. قال الخليل: «ما رأيت مثله قطّ»، خلافًا لما ورد في قول الجاحظ الذي استعمل (قطّ) بعد الإثبات. وذكر السامرائي أنّ الجاحظ استعمل (قطّ) في المستقبل، فيقول مثلاً في (مناقب الترك، ص٢٨): «ولا يطمع فينا أحد قطّ»[٣]. يبدو أنّ الجاحظ كان بطبعه ميّالاً إلى الاستعمال الشائع على ألسنة المتكلمين، رافضًا لجوانب من مبالغات المتشددين ممّا نتج عنه أحيانًا هذا الخلاف. فهل في استعماله ما يبرّره في الفصيح؟ أم هو من باب الواقعية اللغوية التي اشتهر بها؟

٥١. كمين: * «ولقد خفتُ أن أكون عند كثير من الناس دسيسًا من قبله، وكمينًا من كمنائه. وذلك أنّ أحبّ الأصحاب إليه أبلغُهم قولاً في إياس الناس ممّا

(١) البخلاء، ٩٩/١.

(٢) الحيوان، ٥٤٤/٥.

(٣) انظر: من معجم الجاحظ، ٣٤٥.

قِبَلَه..»[1]. جاءت صيغة (كمين) بمعنى (كامن)، والدلالة الشائعة اليوم لـ (كمين) هي الكمون نفسه. وهذا تحوّل غريب في دلالة البنية (فعيل).

٥٢. اللَّحِمون: * «وكانوا يبغضون أهل البيت اللَّحِمين»[2]. اشتق الجاحظ من اسم اللحم صفة على (فَعِل) للتعبير عمّن يستطيب أكل اللحم. وهذا دليل على ما في العربية من مقدرة على الاشتقاق لتقريب الدلالات باعتماد الصيغة.

٥٣. المؤاكلة: * «..فإن كان لا بد من المؤاكلة ، ولا بد من المشاركة فمع من لا يستأثر علي بالمخ..»[3]. جاء في شرح المحققين: مصدر من (آكل)، وآكله بمعنى: شاركه الأكل، فالمؤاكلة: هي إذن المشاركة في الأكل.

٥٤. مُحَفَّلَة: * «والعنـز هي التي ترتضع من خِلفها وهي مُحَفَّلَة»[4]. والمُحفّلة هي التي تُرك حَلْبُها أيّامًا حتى يجتمع لبنها. وقد اشتقّ اسم المفعول (مُفَعَّل = مُحفَّل) من الفعل المزيد (حفّل). وفي الوسيط: «يقال : حفّل الماء واللبن حفولاً: اجتمع؛ وحفل القوم: احتشدوا.. وحفّل اللبن في الضرع: حفله.. وحفّل الناقة ونحوها: لم يحلبها أيامًا ليجتمع اللبن.. وقد تطوّرت دلالة (حفل) ومختلف صيغها في اتّجاه تضييق الدلالة إلى معنى خاص وهو الاجتماع للفرح.

٥٥. المُرَبَّعَة: * «وراَحةُ مُربَّعةِ بني مَنْقَر»[5]. والمُرَبَّع: الباحة التي ينتهي إليها

---

(١) البخلاء، ١/ ٨٢.

(٢) نفسه، ١/٤٤.

(٣) نفسه، ١/ ١٢٣.

(٤) الحيوان، ٥/ ٤٦٩.

(٥) نفسه، ٢/١٢١.

أربعة طرق أو شوارع، وهو ما ندعوه في عصرنا بالميدان[1]. اسم مفعول من (ربّع) يطلق على مفترق ذي أربعة اتّجاهات، لذا فهو مربّع. وواضح إطلاق التسمية على شيء لم تعرفه العرب في باديتها بالاستناد إلى شكله لا إلى وظيفته. وهذا راجع إلى ما يغلّبه المولّد للاسم المحدث، فاليوم يغلب المتكلمون دلالة الوظيفة على الشكل فيقال: ميدان أو محوّل..

٥٦. المرمّة: * «فإذا قسّمنا الغرم عند انهدامها بإعادتها، وبعد ابتنائها، وغرم ما بين ذلك من مرمّتها وإصلاحها، .. خرج على المسكن من الخُسران بقدر ما حصل للساكن من الربح...»[2]. وفي الوسيط: «يقال: رمّ المنزل: أصلحه.. والمرمّة: موضع الرّمّ». لكنّ صيغة (مرمّة) تقتصر في الحديث على الاستعمال العامي وتفيد دلالة أعمّ من دلالتها الأصلية وهي: جميع أعمال البناء هي مرمّة.

٥٧. مُزَأْبَق: * «.. ثم لا يدع مزأبقًا، ولا مكحّلاً، ولا زائفًا، ولا دينارًا بهرجًا إلا دسّه فيه، ودلّسه عليه..»[3]. ومُزَأْبَق: اشتق الجاحظ اسم مفعول من اسم العين (زئبق). كما اشتق منه الفعل (زَأْبَقَ) فقد قال: «وإذا قمِل إنسان.. زَأْبق رأسه»[4]. ويكثر اليوم توليد أسماء وأفعال من أسماء الأعيان فيقال: ذهّب ومُذَهَّبٌ، وفضّض ومُفَضَّضٌ..

(١) من معجم الجاحظ، ١٦٨.

(٢) البخلاء، ١/ ١٥٢.

(٣) نفسه، ١/ ١٥٣.

(٤) الحيوان، ٥/ ٣٧١.

٥٨. المُساهَلَة: * «فلتكن المساهلة في أخلاقك أغلب عليك من المعاشرة»[١]. استعمل الجاحظ صيغة (المفاعلة = المساهلة) بمعنى التسامح. والشائع في العربية (التساهل). ولا يوجد في كتب اللغة لفظ (المساهلة). ويثبت الجاحظ مرّة أخرى ميله إلى استعمال صيغة (فاعل ومصدريه فِعال ومفاعلة).

٥٩. المُسْتقْفي: * «خرج جبل ليلاً .. ولم يأمن المستقفي..» [٢]. والمستقفي: الرّقيب المتتبّع الذي لا يُشعَر به. وهو اسم فاعل من (استقفى)، والشائع: (اقتفى= مقتف)، لكن يبدو أنّ الجاحظ يريد أن يستفيد من الصيغ لاختصارها صرفيًّا، ولدقتها الدلالية، فاستعمل (مستقف) للتعبير عن التوقع والاحتمال.

٦٠. المستأكلون: * «وسكر الغنى شيئة المستأكلين وتضرية الخداعين»[٣]. جاء في كتب اللغة: والرجل يستأكل قومًا أي يأكل أموالهم . وبناء (استأكل) بهذه الدلالة يعدّ استحداثًا بالاعتماد على ما في هذه الصيغة من معاني الطلب والإضمار..

٦١. مَسْمُونٌ: * «ومسمونه يصفّي الدم»[٤]. ما يفهم من كلام الجاحظ أنّ (مسمون) اسم مفعول من (سمن). والمعروف عدم اشتقاق اسم المفعول من الفعل اللازم غير المتبوع بجارّ ومجرور. وليس لنا إلا أن ننبّه إلى هذه الحرية في اشتقاقات قياسية لم يسبق لها الجاحظ.

(١) الرسائل، ١٣٣.

(٢) البخلاء، ١/ ٧٦ . ٧٧.

(٣) نفسه، ٣٤/٢.

(٤) نفسه، ٢٦٧/١.

٦٢. مَضْعُوفٌ: * «كأنّك لم تر بخيلاً مخدوعًا، وبخيلاً مضعوفًا، وبخيلاً مضياعًا،..»[١]. يبدو من كلام الجاحظ أنّ (مضعوف) اسم مفعول من (ضعف). والمعنى المقصود (ضعيف). وقد اشتق الجاحظ اسم مفعول من فعل لازم غير متبوع بجارّ ومجرور، مرة أخرى. ولا نستطيع إلا أن نعجب من هذه الحرية في اشتقاقات قياسية لم يسبق لها الجاحظ.

٦٣. مُعَمًّى: * «وإذا بلغت الإبل ألفًا فقؤوا عين الفحل، فإن زادت فقؤوا العين الأخرى، فلذلك قالوا: المفقّأ والمعمّى»[٢]. وهي صيغة دالة على العمد والمبالغة، تعبيرًا عن حدث اجتماعي عقائدي يتمثل في تعمية متعمدة لعيني الفحل من الجمال، إذا جاوز عدد الإبل الألف. ربّما لمقاومة عين الحسد.

٦٤. مُفاهَمَة: * «ولا يكون ذلك إلا وهو بعيد عن المفاهمة، وعُطْل عن الدلالة»[٣]. المفاهمة مصدر من (فاهم) والشائع مصدر الفهم. ويبدو أنّ هذا المصدر (المفاهمة) أقرب إلى المولد في عصر الجاحظ، وظلّ شائعًا في الاستعمال العامي إلى اليوم.

٦٥. المُفَقَّأُ: * «وإذا بلغت الإبل ألفًا فقؤوا عين الفحل، فإن زادت فقؤوا العين الأخرى، فلذلك قالوا: المفقّأ والمعمّى»[٤]. صيغة اسم المفعول من (فقّأ)، وهي صيغة تدلّ على العمد والمبالغة، وذلك تعبيرًا عن حدث اجتماعي عقائدي يتمثل في

(١) البخلاء، ٩٩/٢.

(٢) البيان، ٩٦/٣.

(٣) الحيوان، ٤٧/١.

(٤) البيان، ٩٦/٣.

فقء متعمد لعيني الفحل من الجمال، إذا جاوز عدد الإبل الألف. ربّما لمقاومة عين الحسد.

٦٦. مَنْهومٌ: * «وكان عيسى ينتخب الأكلة، ويختار منهم كلّ منهوم فيه، ومفتون به»[١]. وفي الوسيط: «نَهِم في الشيء نَهَمًا ونَهامة: أفرط الشهوة أو الرغبة فيه. يقال: نَهِم في الطعام، ونَهِمَ في العلم فهو نَهِمٌ ونهيم. ونُهِم بالشيء: أولع به فهو منهوم.» فالاستعمال القديم يميّز بين فعليْ (نَهِمَ) و(نُهِمَ). ولذلك كان يقال من (نَهِمَ): (نَهِمٌ ونهيم)؛ ومن (نُهِمَ): (منهوم). ولا وجود اليوم لهذا التمييز ولا لصيغة (منهوم) في الاستعمال الحديث.

٦٧. هِرابٌ: * «كأنّهم كانوا هِرابًا من حثّهم السير..»[٢]. استعمل صيغة الجمع (فِعال = هِراب) جمع هارب. والشائع هاربون. وهذه الصيغة لا وجود لها في المعاجم. فلعلّها من ابتداع الجاحظ لغرض دلاليّ.

٦٨. مُوَقَّعٌ: * «وأنشدني العكلي في تنشُّم الذئب الريحَ واستنشائه واسترواحه:

يستخبر الريح إذا لم يسمع   بمثل مِقراع الصّفا المُوقّع

والموقّع: المحدّد. يقال: وقّعت الحديدة: إذا حدّدتها..»[٣]. جاء في الوسيط: «وقّع الصيقل على السيف: أقبل عليه بميقعته يحدّده». ولا وجود لهذه الدلالة في الاستعمال الحديث.

(١) البخلاء، ١/١٢٥.

(٢) الحيوان، ٤/١٧٩.

(٣) البيان، ١/ ٨٢.

٦٩. يَنْعَصِران: * «.. وكيف تجدهما ينعصران دهنًا..»[١]. اشتقّ الجاحظ صيغة (انفعل = انعصر) من مادة (عصر). ورغم عدم شيوع هذه الصيغة، فإنّها لا تخلو من جمال وتعبيرية لمقدرتها على كشف كثرة الدهون إلى حدّ سيلانها تلقائيًا.

٤-١-٢- التوليد الدلالي:

١. الإكسال: * «قال قاسم: ليس في الدنيا ثلاثة أنكح منّي: أنا أُكسل منذ ثلاث ليال في كلّ ليلة عشر مرات. كأنّ الإكسال عنده هو الإنزال»[٢]. وتهمّنا هنا ملاحظة الجاحظ الأخيرة لأنّها تثبت تحوّلاً في الدلالة، فقد انتقل معنى (الإكسال) من معنى سيّئ إلى معنى إيجابي يُفتخر به. واكتفى الجاحظ بقوله: «كأنّ الإكسال عنده هو الإنزال». جاء في شرح المحقّق: الإكسال: أن يفتر الذّكر قبل الإنزال وبعد الإيلاج. أي إنّ (الإكسال) هو فتور الذّكر قبل الإنزال، وهذا في الأصل عيْب، لكنّ تحوّله الدلالي إلى (الإنزال) أي إنهاء العملية الجنسيّة جعله مفخرة المتحدث، كما هو في الشّاهد.

٢. إنْ: * «لا والله إن أهلك الناسَ ولا أقفر بيوتهم .. إلا الإيمان بالخلف.»[٣]. استعمل الجاحظ: (إن) النافية بمعنى (ما). ويعتقد الدارسون اليوم أنّها نادرة في العربية، وقد اندثرت من الاستعمال منذ زمن. رغم ورودها في كلام الفصحاء المتقدمين، وفي القرآن: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ

---

(١) البخلاء، ١/٥١.

(٢) البيان، ٤/١٣. جاء في الشرح: الإكسال: أن يفتر الذكر قبل الإنزال وبعد الإيلاج.

(٣) البخلاء، ٢٧.

كَذِبًا﴾[1]. وقد أثبت الجاحظ بهذا أنّها ممكنة الاستعمال في عصره. ونحن نعرف أنّ الجاحظ يرفض التوعّر والحوشيّ.

٣. تنقير: * «فأكل كلّ إنسان رغيفه إلاّ كِسْرة ولم يشبعوا.. وإنّما هم في تنقير وتنتيف»[2]. استعمل النَّقْر للتّعبير عن تناول الطعام تناولاً خفيفًا قليلاً. فكأنّ الآكل يَنْقُر بين حين وحين. ولا شكّ أنّ التنقير من مفردات لغة العامة التي لم يُخْفِ الجاحظ اعتماده عليها لصدقها وتعبيريتها.

٤. الجُوع: * «ألا ترى أنّ الله لم يذكر الجُوع في القرآن إلا في موضع العِقاب أو في موضع الفَقْر المُدْقَع والعَجْز الظّاهر. والنّاس لا يذكرون السّغَب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسّلامة.»[3].

٥. خَوَّى: * «حتى إذا فتروا خوّى تَخْوِية الظّليم»[4]. يقال للطائر إذا أراد أن يقع فيبسط جناحيه ويمدّ رجليه: قد خوّى تخوية. و«خوّى الطفيليّ»، استعارةٌ نقل فيها الجاحظ الصورة من مجال «الطائر الذي يهبط فجأة على فريسته» إلى مجال «الطّفيليّ الذي ينتهز فرصة فتور المؤاكلين لينقضّ على الطعام».

٦. السخيف: * «ويجري في الصّلابة والملابسة جريَه في الأشياء السّخيفة الرِّخوة»[5]. والثّوْب السّخيف هو الرّقيق النّسيج بَيِّنُ السّخافة. ثم انتقلت السّخافة

(١) انظر السامرائي: من معجم الجاحظ، ص٢٤.

(٢) البخلاء، ١/١٠١.

(٣) البيان، ١/١٩ ـ ٢٠.

(٤) البخلاء، ٢/٦٨.

(٥) الحيوان، ٢/١٣٦.

والسُّخْف من المحسوس إلى المجرّد لعلاقة المشابهة، وذلك للتعبير عن السخف المعنوي، كضعف العقل وغيره..

٧. سقط: * «ولقد سقط إليهم أنّ النّبيّ ﷺ يريد المدينة»(١). أراد بالفعل سقط: بلوغ النّبأ. وقد يكون في ذلك معنى المفاجأة والسرعة..

٨. سيّاحون: * «رهبان الزنادقة سيّاحون، كأنّهم جعلوا السياحة بدل تعلُّق النّسطوريِّ في المطامير.»(٢). إنّ السياحة الواردة في نصّ الجاحظ يقصد بها الذّهاب في الأرض للعبادة. ويفسّر ذلك قوله: «ولا يسيحون إلا أزواجًا، ومتى رأيت منهم واحدًا فالتفتَّ رأيتَ صاحبه، والسّياحة عندهم ألاّ يبيت أحدهم في منزل ليلتين. قال: ويسيحون على أربع خصال: على القدس والطّهر والصّدق والمسْكنة»(٣).

٩. لابَسَ: * «إنّي قد لابست السلاطين والملوك»(٤). وإذا كانت الملابسة هي المخالطة بصفة عامة، فإنّ الدلالة التي عناها الجاحظ هنا خاصة بالإنسان وهي المعاشرة.

١٠. متسكّع: * «ويتخطّى المقدمات متسكعًا»(٥). ومعنى (متسكع) متحيّر. وليس للتسكّع إلا معنى المشي على غير هدى. فالجاحظ على ما يبدو نقل الدلالة المادية إلى المعنوية على سبيل التجوز. كما استعمل الجاحظ فعل (تسكّع) بنفس

(١) العثمانية، ٤٢.

(٢) الحيوان، ٤/٤٥٨.

(٣) الحيوان، ٤/٤٥٨.

(٤) البخلاء، ١/٤٨.

(٥) الحيوان، ٣/٣٧٩.

المعنى في قوله: «..فإذا شُغل العامل وغفل، اشتمل على كلّ ما قدر عليه، وتركهم يتسكّعون»[1]. وقد علّق المحققان: «يتسكعون: في حيرة لا يهتدون إلى ما سُلبوا. ففي الأساس: (فلان يتسكع في أمره: لا يهتدي لوجهه)». وقد تطورت الدلالة الحديثة لـ (تسكع) تطورًا من المادي إلى المجرّد لتصبح بمعنى: الفراغ والضياع.

١١. مستهتر: * «وتغرّهم كثرة أتباعهم ممّن تجده مستهترًا بسماع الغريب ومغرمًا بالطرائف والبدائع»..[2]. والمراد بالاستهتار في هذا السياق الإغرام والولع الشديد. فليس الاستهتار على ما يبدو خاصًّا بما يُكره كما هو شائع الآن، بل هو الولع عامة سواء كان فيما يستحسن أو يكره. وهو مضمون كلام الجاحظ.

١٢. المطامير: * «رهبان الزنادقة سيّاحون، كأنّهم جعلوا السياحة بدل تعلق النّسطوري في المطامير.»[3]. «أماكن تهيّأ تحت الأرض.. يطمر فيها الطعام: أي يخبّأ فيها. والمطمورة أيضًا: السجن تحت الأرض. وهذا ما يتّفق من كلام الجاحظ..»[4].

١٣. المطر: * «لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث»[5].

١٤. المعاذير: * وأنشد للحارث بن حلّزة اليشكري:

(١) البخلاء، ١/١٥٥.

(٢) الحيوان، ١/١٤٤.

(٣) الحيوان، ٤/٤٥٨.

(٤) نفسه، ٤/٤٥٨.

(٥) البيان، ١/١٩ ـ ٢٠.

لا أعرفنّك إن أرسلتَ قافية تُلقي المعاذير إن لم تنفع العِذَرُ[1]

ويعلق الجاحظ: «ومعنى المعاذير هنا على غير معنى قول الله تبارك وتعالى في القرآن: ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾. والمعاذير هاهنا: السُّتور». (جاء في شرح المحقق: المعاذير: الحجج. والعذِر: جمع عُذْرة: وهي العذر.. وهي السُّتور بلغة أهل اليمن، واحدها معذار).

١٥. المُقْعَدَة: * «وهو قاعد على المُقْعدة»[2]. والمقعدة من الآبار التي احتفرت و لم ينبط ماؤها، فتركت وهي المُسهبة. غير أنّ الجاحظ أراد بها على ما يبدو من السياق (المرحاض).

١٦. النّاشد: * «فوالله ما شعرت إلا والناشد قد جاءني»[3]. والمقصود بالناشد في نصّ الجاحظ الذي يطلب الضالة وينادي بها. وما زالت هذه الدلالة بمعناها العامي إلى اليوم فيقال: (انْشِد، والنِّشْدة..).

١٧. ينظر إليّ شزرًا: «ويقال إنّ هذا المثل الذي قد جرى على ألسنة العوام من قولهم: ينظر إليّ شزْرًا، كأنّي أكلت اثنين وأطعمته واحدًا، إنما هو لأهل مرو»[4].

٤-٢- التوليد في مصطلحات العلوم والفنون:

٤-٢-١- التوليد الشكلي:

يقرّ الجاحظ بضرورة مواكبة العمل اللغوي للجهد العلميّ والفكريّ عامة،

(١) البيان، ٢/ ١٠٦.

(٢) الحيوان، ١٣/٣.

(٣) نفسه، ٤٩١/٦.

(٤) البخلاء، ٦٠/١.

فيقول: «ولكلّ صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بضاعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك المعاني الصناعية»[1].

وقد انتقد الجاحظ لغة أصحاب المذاهب: «والأصل في ذلك أنّ الزنادقة لأصحاب ألفاظ في كتبهم، وأصحاب تهويل أنّهم حين عدموا المعاني، ولم يكن عندهم فيها طائل مالوا إلى تكلّف ما هو أخصر وأيسر وأوجز كثيرًا، ولكلّ قوم ألفاظ حظيت عندهم، وكذلك كلّ بليغ في الأرض، وصاحب كلام منثور، وكلّ شاعر وصاحب كلام موزون، فلا بدّ من أن يكون قد لهج وألف ألفاظًا بأعيانها ليديرها في كلامه، وإن كان واسع العلم، غزير المعاني، كثير اللفظ»[2].

«فصار حظّ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتّصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم: التناكح والنتائج والمزاج والنور، والظلمة والدفاع، والبقاع والساتر، والغامر والمنحلّ، والبطلان والوجدان، والأثير والصداق، وعمود الصبح وأشكالاً من هذا الكلام نصًّا. وإن كان غريبًا من فوضى، مهجورًا عند أهل ملتنا ودعوتنا وكذلك هو عند عوامنا وجمهورنا، ولا يستعمله إلا الخاصّ، وإلا المتكلمون...» [3].

ثمّ يعلق بقوله: «فإنّ رأيي في هذا الضّرب من هذا اللفظ، أن أكون ما دمت في العبارة التي هي عبارتان والعادة فيها أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود، وأدع

(١) الحيوان، ٣/٥٣٩.

(٢) نفسه، ٣/٥٣٨.

(٣) نفسه، ٣/٥٣٨.

التكليف لما عسى أن لا يسلس، ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة، وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين، وما دمت خائضًا في صناعة الكلام، مع خاص أهل الكلام، فإنّ ذلك أفهم عندي، وأخفّ لمؤنهم عليّ.» [1].

١. آدَرُ: * «والفَلْوَرُ الذي يحتال لخصيته، حتى يريك أنّه آدر»[2]. وفي الوسيط: «أدِرَ أَدَرًا وأدرة: انتفخت خصيتاه لتسرّب سائل في غلافها. فهو آدَر».

٢. استحال: ما يستحيل: * «.. وينبغي أن تعرفوا فرق ما بين المحال الممتنع، وما يستحيل كونه من الله..، وما يستحيل كونه من الخلق..» [3]. واستحال فعل مزيد بثلاثة أحرف من (حَوَلَ) بمعنى نقل.. ولاستحال دلالتان: فاستحال الشيءُ: تغيّر وتحوّل؛ واستحال الشيء أيضًا: صار محالاً.

٣. الاستحجار: «احتال الآباء في حبس الأموال على أولادهم بالوقف، فاحتالت القضاة على أولادهم بالاستحجار»[4]. و(الاستحجار) مصطلح خاص بالأحكام الشرعية مأخوذ من (الحَجْر)، وهو في الوسيط: «المنع شرعًا من التصرّف في ماله، لصغر أو سفه أو جنون..» أما أصل الحجر فالمنع عامة، والاستحجار هو تحوّل إلى حجر.

٤. الأيسيّة: * «وأخرجه الله من باب الليسية، فأدخله في باب الأيسية.»[5].

---

(١) الحيوان، ٥٣٨/٣ .٥٣٩.

(٢) البخلاء، ٨٧/١.

(٣) الحيوان، ٥٤٠/٣.

(٤) البخلاء، ٩٣/١.

(٥) البيان، ١/ ١٤٠.

جاء في اللسان: «التأييس: التذليل، جيء به من (أيس) و(ليس)، أي من حيث هو وليس هو. قال الليث: (أيس) كلمة قد أُميتت. إلا أنّ الخليل ذكر أنّ العرب تقول: جيء به من حيث أيس وليس، لم تستعمل إلا في هذه الكلمة، وإنّما معناها كمعنى حيث هو في حال الكينونة والوجود.. وقال: إنّ معنى (لا أيس) أي لا وجد». إنّ هذه الكلمة التي كانت في عداد الممات احتيج إليها لنقل مصطلح فلسفي، فـ -(أيس) بمعنى الوجود والكينونة اشتقّ منها مصدر صناعيّ (الأيسية) للتعبير عن مفهوم الوجود مطلقًا دونما صلة بكائن ما. وهو مصطلح مولد بقواعد صرفية معلومة لتيسير المفهوم واستعماله استعمالاً فلسفيًّا مجرّدًا.

٥. البرهانات: * «وقد جعل الله الفيل من أكبر الآيات، وأعظم البرهانات»(١). ما يجلب الانتباه هنا جمع الجاحظ (برهان) على (برهانات). والبرهان هو الحجّة. لكنّه في اصطلاح المنطقيين أصبح يعني «القياس المؤلف من مقدمات يقينية»، وعند الرياضيين يعني: «ما يثبت قضية من مقدمات مسلم بها» والجمع (براهين). أمّا تعمّد الجاحظ جمعه جمع تأنيث فلعلّه لغاية جمالية ليقابل في الإيقاع كلمة (الآيات). ويبقى مع ذلك دليلاً على حرية إبداعية في استعمال طاقة اللغة استعمالاً حرًّا طالما لا يصطدم بالقواعد.

٦. التركيب المتضادّ: * «..وما الشيء الذي له عاندوا الحقّ، وخالفوا الأمم؟ وما هذا التركيب المتضادّ والمزاج المتنافي؟..» (٢). (التركيب) مصطلح فلسفيّ

---

(١) الحيوان، ٧/ ٦٥٦.

(٢) البخلاء، ٢١/١.

يفيد تعدّد مكونات الشيء. فالمصطلح هنا يقابل مفهوم الإفراد.

٧. التلاشي: * «وفرقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا الهذية والهوية والماهية، وأشباه ذلك..»[١]. ولا وجود في المعاجم لهذا المصدر (التلاشي) من صيغة (تفاعل = تلاشى) بالدلالة المقصودة في نصّ الجاحظ وهي كما شرحها المحقق عبد السلام هارون: «يراد بالملاشاة الإفناء، كأنّه جعلهم كلا شيء»[٢]. فاللسان والقاموس لا يذكران إلا الثلاثي (لشو): «لشا: إذا خسّ بعد رفعة»؛ لكنّ الوسيط يضيف المزيد (فاعل = لاشى): «لاشاه الله: أفناه»، مستندًا إلى قول الجاحظ: «وفي البيان والتبيين للجاحظ (لاشاهم فتلاشوا)». فلعلّ في شهادة الوسيط ما يؤكّد أنّ هذه الصيغة فعلاً من مولّدات الجاحظ.

٨. الجليل الواضح: * «..وما هذا السبب الذي به خفي الجليل الواضح وأدرك به الدقيق الغامض؟..»[٣]. ومصطلح الجليل في هذا السياق الفلسفي هو العظيم الظاهر، الذي لا يكاد يخفى في مقابل (الدقيق الغامض)، وهو ضدّه.

٩. الدهريّ: * «..والزنديق والدهريّ»[٤]. وهو القائل بقدم الدهر، ولا يؤمن بالبعث. وقد اشتقوا من هذا المصطلح (تدهّر). يقول الجاحظ: «وقد علمنا أنّه لا يجوز أن يتنبّأ دهريّ وكيف لم يتدهّر ملك»[٥].

---

(١) البيان، ١/١٣٩.

(٢) نفسه، ١/١٤٠.

(٣) البخلاء، ١/٢١.

(٤) الحيوان، ٤/٧٩.

(٥) انظر: السامرائي، ص١٥٢؛ والتربيع والتدوير، ٧٦.

١٠. الرطوبات: * «فإذا ترفّعت أجزاء النار رفعت معها لطائف من تلك الرطوبات»(١). استعمل الجاحظ جمع (رطوبة) (رطوبات) و لم نألف هذا الجمع مثل جمعه (حرارات)، وربما رجع هذا الاستعمال لأغراض تعليمية.

١١. الطبيعة العامية: * «..ينبغي لكم بعد أن تعرفوا الطبيعة والعادة الغريزة، من الطبيعة العامية، والممكن من الممتنع..» (٢). وأصل الطبيعة: السجية. لكن الاصطلاح الفلسفي هنا ينقلها -حسب الوسيط- إلى مفهوم «القوة السارية في الأجسام التي بها يصل الجسم إلى كماله.»

١٢. العادة الغريزة: * «..ينبغي لكم بعد أن تعرفوا الطبيعة والعادة الغريزة، من الطبيعة العامية، والممكن من الممتنع..»(٣). والمعنى الأصلي للغريزة هو الفطرة والسجية، ولكنها في هذا السياق الفلسفي تفيد —حسب الوسيط- «الطراز من السلوك المعتمد على الفطرة والوراثة».

١٣. علّة الكثرة والقلة: * «.. وأنّ الممكن على ضربين، فمنه الذي لا يزال يكون، ومنه الذي لا يكاد يكون، وما علّة الكثرة والقلة،..»(٤). والعلة هي المرض. ولكنها في هذا السياق الفلسفي —حسب الوسيط- بمعنى «كلّ ما يصدر عنه أمر آخر بالاستقلال أو بواسطة انضمام غيره إليه، فهو علة لذلك الأمر».

---

(١) الحيوان، ٣٧/٥.

(٢) نفسه، ٥٤٠/٣.

(٣) نفسه، ٥٤٠/٣.

(٤) نفسه، ٥٤٠/٣.

١٤. غَرَب: * « وربّما أراك أنّ بها سرطانًا أو خُراجًا أو غَرَبًا..» [1]. وفي الوسيط: «الغَرَب: داء يصيب الشاة يتساقط منه شعر خطمها وعينيها. ويقال: بعينه غرب، إذا كانت تدمع ولا ينقطع دمعها».

١٥. غير مستحيل في النظر: * «.. فلو قلتم إنّ ذلك قائم الجوهر في العقل، مطّرد في الرأي، غير مستحيل في النظر،..»[2]. و(المستحيل) من مادة استحال الشيء أي تحوّل.

١٦. لا يزال يكون: * «.. وأنّ الممكن على ضربين، فمنه الذي لا يزال يكون، ومنه الذي لا يكاد يكون، وما علة الكثرة والقلة،..»[3]. أي الكائن فعلاً بوجوده واستمراره.

١٧. لا يكاد يكون: * «.. وأنّ الممكن على ضربين، فمنه الذي لا يزال يكون، ومنه الذي لا يكاد يكون، وما علّة الكثرة والقلة،..»[4]. أي الذي لا وجود فعليّ له، ولكنّه في عداد الممكن.

١٨. لاشاهم: * «..قال بعض من خطب على منبر ضخم الشأن: .. ثم إنّ الله عزّ وجلّ، بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ومكّن لهم، لاشاهم فتلاشوا..»[5]. استنكر الجاحظ هذا التعبير: (لاشاهم فتلاشوا).

---

(١) البخلاء، ١/٨٧.

(٢) الحيوان، ٣/٥٤٢.

(٣) نفسه، ٣/٥٤٠.

(٤) نفسه، ٣/٥٤٠.

(٥) البيان، ١/ ١٤٠.

١٩. اللّيسيّة: * «وخطب آخر في وسط دار الخلافة، فقال: وأخرجه الله من باب الليسية، فأدخله في باب الأيسية.» [١]. جاء في اللسان: «التأييس: التذليل، جيء به من (أيس) و(ليس)، أي من حيث هو وليس هو.. وذكر الخليل أنّ العرب تقول: جيء به من حيث أيس وليس، لم تستعمل إلا في هذه الكلمة، وإنّما معناها كمعنى حيث هو في حال الكينونة والوجود.. وقال: إنّ معنى (لا أيس) أي لا وجد». ويضيف القاموس: «(ليس) فعل ماض أصله (لَيِسَ) أو (لا+أيس)». إنّ (ليس) بمعنى (انعدام الوجود) تحوّلت في فترة ازدهار العلوم العباسية إلى مصطلح قابل لتقديم مفهوم مجرّد في مجالات الفلسفة وغيرها يسمح بالتعبير عن الظاهرة بشكل تجريدي عام. وقد تولّد المصطلح بقواعد التوليد الصرفية، أي باشتقاق مصدر صناعيّ من ليس التي تحوّلت إلى (الليسية) أي انعدام الوجود.

٢٠. الماهيّة: * «وذكروا الهذيّة والهُويّة والماهيّة، وأشباه ذلك.. »[٢]. وفي الوسيط: «ماهيّة الشيء: كنهه وحقيقته، أُخذ من النّسبة إلى ما هو أو ما هي (مو)».

٢١. متزاملان: * «قال رجل منهم لصاحبه، وكانا إما متزاملين وإما مترافقين: لم لا نتطاعم، فإنّ يد الله مع الجماعة..»[٣]. تزامَل صيغة على بناء (تفاعَل) تفيد المشاركة. والجاحظ استغلّ دلالة الصيغة للتعبير عن هذا المفهوم بإيجاز.

---

(١) البيان، ١/ ١٤٠.

(٢) نفسه، ١٣٩/١.

(٣) البخلاء، ٤٧/١.

٢٢. المذاقة: * «إنّ الجسم يتغير في المذاقة والمَلْمَسَة والمَنْظَرَة»[١]. استعمل (المذاقة) وهو مصدر ميميّ مؤنث، بدل المصدر (الذَّوْق). وهذا ليس مألوفًا إلا أن يكون لغرض دلاليّ أقوى، يجاوز معنى المصدر العادي إلى دلالة علمية خاصة.

٢٣. المركّب: * «فإذا رأينا النبيّ ﷺ لم يستحق ذلك الموضع البائن العالي إلا بالفضل دون المُركَّب، كان من مَتَّ بقرابته أجدر ألا ينال الرياسة إلا بالفضل دون المركّب.» [٢]. والمركب هو الأصل والمنبت، يقال: فلان كريم المركّب: أي كريم الأصل. والمركب: ما تألف من عدة عناصر لا من لفظ واحد وهو من ألفاظ أهل العلوم.

٢٤. المزاج المتنافي: * «..وما الشيء الذي له عاندوا الحقّ، وخالفوا الأمم؟ وما هذا التركيب المتضادّ والمزاج المتنافي؟..» [٣]. و(المتنافي) صيغة اسم فاعل مشتقة من (تنافى). والأصل (نفى)، وهو في الوسيط بمعنى: نحّى وأبعد، ومنه: تنافت الأشياء: تعارضت. فـ(المزاج المتنافي) مصطلح مولّد للتعبير عن مفهوم فلسفيّ يفيد (التّعارض).

٢٥. الملمسة: * «إنّ الجسم يتغير في المذاقة والملمسة والمنْظرة»[٤]. استعمل (المَلْمسة) وهو مصدر ميميّ مؤنّث، بدل المصدر (اللّمْس). وهذا ليس مألوفًا إلا أن يكون لغرض دلاليّ أقوى، يجاوز معنى المصدر العاديّ إلى دلالة علميّة خاصّة.

---

(١) الحيوان، ٥/٥٤.

(٢) العثمانية، ص٢٠٥.

(٣) البخلاء، ١/٢١.

(٤) الحيوان، ٥/٥٤.

٢٦. المَنْظرة: * «إنّ الجسم يتغير في المذاقة والملمسة والمنظرة»[١]. استعمل (المنظرة) وهو مصدر ميميّ مؤنث، بدل المصدر (النظر). وهذا ليس مألوفًا إلا أن يكون لغرض دلالي أقوى، يجاوز معنى المصدر العادي إلى دلالة علمية خاصة.

٢٧. الهذيّة: * «وذكروا الهذيّة والهُويّة والماهيّة، وأشباه ذلك.. »[٢]. مصدر صناعيّ مشتقّ من اسم الإشارة (هذا) ليدلّ في الفلسفة على معنى الوجود مجرّدًا.

٢٨. الهُويّة: * «وذكروا الهذية والهوية والماهية، وأشباه ذلك.. »[٣]. مصدر صناعي اشتق من (هو) للتعبير —حسب الوسيط- «في الفلسفة عن حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره».

٤-٢-٢- التوليد الدلالي:

١. الاتّفاق: * «.. فلو كان هذا الأمر يجيء من وجه الجمع والتفريق والتركيب، ومن وجه الاتّفاق، لقد كان ينبغي أن يكون ذلك قد ظهر من ألوف سنين وألوف..» [٤]. ليس (الاتّفاق) هنا بمعنى التفاهم بين طرفين أو أكثر، ولكنّ المقصود في نصّ الجاحظ مصطلح للتعبير عن معنى المناسبة بين الأشياء والتقارب والاتّحاد بينها، فكأنّها اتّفقت بعد اختلاف.

٢. الأثير: * «فصار حظّ الزنادقة من الألفاظ ..: التناكح والنتائج والمزاج والنور، والظلمة والدفاع، والبقاع والساتر، والغامر والمنحلّ، والبطلان والوجدان،

(١) الحيوان، ٥/٥٤.
(٢) البيان، ١/١٣٩.
(٣) نفسه، ١/١٣٩.
(٤) الحيوان، ٣/٥٤٢.

والأثير والصداق...»[1]. و(أثير) صفة مشبهة من (أثر) بمعنى المفضّل. والصيغة من اصطلاحات الزنادقة.

٣. الأسباب: * «وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزّحاف.»[2]. والأسباب: الحبال، وكلّ ما يُتوصّل به إلى غيره. وفي علم العروض مصطلح مفرده (سبب)، وهو: «حرفان متحركان فساكن، أو متحركان، فالأول يسمى السبب الخفيف؛ والثاني يسمى السبب الثقيل».

٤. الاستدلال: [3]مصدر من (استدلّ)، أي طلب أن يُدلّ عليه، ومنه الاستدلال على الشيء بالشيء: اتّخاذه دليلاً عليه.

٥. أصحاب الجحود: * «نازعت الملحدين والشُّكّاك فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود»[4].. والجحود لغة: هو مصدر من جحِد بمعنى منع، على أنّ الاصطلاح هنا يتعلّق بإنكار الشيء مطلقًا، بعكس الشكّ.

٦. الاعتدال: * «.. فبيّن لي ما الشيء الذي خبل عقولهم، وأفسد أذهانهم، وأغشى تلك الأبصار، ونقض ذلك الاعتدال»[5]. مصدر من (اعتدل)، وهو التوسط بين حالين، كالاعتدال بين قوتين، وبين الليل والنهار، والاعتدال الطبيعي..

٧. الإقرار: * «..فإذا عرفتم الجواهر وحظوظها من القوى، فعند ذلك فتعاطوا

(١) الحيوان، ٥٣٨/٣.

(٢) البيان، ١٣٩/١.

(٣) الحيوان، ٤٧٦/٣.

(٤) الحيوان، ٤٠١/٦.

(٥) البخلاء، ٢١/١.

الإنكار والإقرار..». [1] والإقرار مصدر من أقرّ الشيء: اعترف به وأثبَته. والمعنى الاصطلاحي يقصد إلى مفهوم التسليم، والتصديق المطلق وعدم الشكّ في الأشياء والظواهر ويقابله الإنكار.

٨. الإقواء: [2] مصطلح في علم العروض، مشتق من فعل (أقوى) بمعنى: خالف في الشعر بين حركة الرويّ المطلق بكسر وضمّ.

٩. الإكفاء: [3]مصطلح في علم العروض، مشتق من (أكفأ)، وهو في الوسيط بمعنى: غيّر في الشعر حرف الرويّ إلى ما يقاربه، كراء إلى لام، أو لام إلى ميم.

١٠. الامتناع: [4] * «.. ويعرفون أنّ الممتنع أيضًا على ضربين: فمنه ما يكون لعلة موضوعة يجوز دفعها،.. وبين الامتناع الذي لا علة له غير الشيء وجنسه.» مصدر من (امتنع) بمعنى تعذّر.

١١. الإنكار: * «..فإذا عرفتم الجواهر وحظوظها من القوى، فعند ذلك فتعاطوا الإنكار والإقرار..» [5]. مصدر من (أنكر)، بمعنى جهل وجحد، و(الإنكار) من مصطلحات الأخلاق والفلسفة بمعنى إنكار الذات ومجانبة الأثرة، والتضحية عن قصد في سبيل الغير.

١٢. أوبة المتحيّر: * «ما أطمعني في أوبة المتحيّر، لأنّ كلّ من اقتطعته عن

---

(١) الحيوان، ٣/٥٤٠.

(٢) البيان، ١/١٣٩.

(٣) نفسه، ١/١٣٩.

(٤) الحيوان، ٣/٥٤٠.

(٥) نفسه، ٣/٥٤٠.

اليقين الحيرة فضالته اليقين، ومن وجد ضالته فرح»[1]. والأوبة مصدر من (آب)، بمعنى رجع؛ والمتحيّر: اسم فاعل من تحيّر، وهي حيرة الشّاكّ. وعليه تدلّ عبارة «أوبة المتحيّر» على الوصول على اليقين.

١٣. الأوتاد: * «كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزّحاف.»[2]. والوتد: عمود الخيمة، وأوتاد الأرض: جبالها. في علم العروض حسب الوسيط: «أجزاء التفاعيل، وهي على ضربين: حرفان متحركان يتلوهما ساكن، وهو الوتد المقرون؛ وحرفان متحركان بينهما ساكن، وهو الوتد المفروق».

١٤. أيس: * «ولذلك قالوا : العرض والجوهر، وأيس وليس،..»[3]. جاء في الوسيط: «أيْس خلاف ليس. يقال: ائت به من حيث أيْسَ وليسَ: من حيث يكون ولا يكون». إياس : ويشتق من الفعل (أيِس) مصدران (أيْس وإياس) بمعنى (يئس يأسًا) أي انقطع رجاؤه. ولا يستعمل في العربية الحديثة إلا الصيغة الثانية.

١٥. الإيطاء: * يقول الجاحظ: «ولم أسمع بالإيطاء..»[4]. (الإيطاء): مصطلح في علم العروض مشتق من (أوطأ) شعره: كرّر القافية فيه لفظًا ومعنى.

١٦. البسيط: * «كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه

---

(١) الحيوان، ٤٠١/٦.

(٢) البيان، ١٣٩/١.

(٣) نفسه، ١٣٩/١.

(٤) البيان، ١٤٠/١.

ذلك وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزّحاف»[1]. صفة مشبهة من (بسط)، وهو في علم العروض مصطلح من وضع الخليل، يطلق على أحد بحور الشعر المعروفة.

١٧. البطلان: * «وفرقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا الهذية والهوية والماهية، وأشباه ذلك.. »[2]. (بطلان) مصدر من (بَطَل) الشيء : فسد.

١٨. البقاع: * «فصار حظّ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتّصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم: التناكح والنتائج والمزاج والنور، والظلمة والدفاع، والبقاع والساتر، والغامر والمنحلّ، والبطلان والوجدان، والأثير والصداق...» [3] .

١٩. التبعيد: [4](التبعيد) مصدر من (بعّد) بمعنى أبعد، غير أنّ هذه الصيغة تفيد إضافةً إلى معنى الجذر دلالة العمد.

٢٠. التجريب: * «وكذلك فكلما عددنا، فمن أين يستحيل أن يحلّها إنسان بين مئة طبيعة ومئة جوهر، إما من طريق التبعيد والتقريب، ومن طريق الظنون والتجريب،..»[5]. (التجريب) مصدر من (جرّب) اتّخذ مصطلحًا لعملية اختبار الشيء مرّةً بعد أخرى. بوسائل الاختبار المنظم ملاحظةً ومنهجية.

---

(١) البيان، ١٣٩/١.

(٢) نفسه، ١٣٩/١.

(٣) الحيوان، ٥٣٨/٣.

(٤) نفسه، ٥٤٢/٣.

(٥) الحيوان، ٥٤١/٣.

٢١. التخبيل: * «فإذا كان العقل سليمًا من آفة المرض ومن آفة التخبيل...»[١]. مصدر من (خبّل)، يقال: خبّله: إذا أفسد عقله.

٢٢. الترتيبات: * «..بل لا يجعلون ذلك تغميزًا لمكان المقدمات والترتيبات التي قد عملت فيه وحذقته ومرنته.»[٢]. جمع ترتيب من ترتّب، وهي في الوسيط بمعنى: «يترتّب عليه كذا : يستقرّ وينبني». فالترتيبات حينئذ ما ينبني على غيره من الأمور والمفاهيم.

٢٣. التركيب: * «.. فلو كان هذا الأمر يجيء من وجه الجمع والتفريق والتركيب، ومن وجه الاتّفاق، لقد كان ينبغي أن يكون ذلك قد ظهر من ألوف سنين وألوف..»[٣]. والتركيب مصدر من ركّب الشيء: ضمّه إلى غيره فصار شيئًا واحدًا، كتركيب الدواء مثلاً.

٢٤. التفريق : * «..فلو كان هذا الأمر يجيء من وجه الجمع والتفريق والتركيب، ومن وجه الاتّفاق، لقد كان ينبغي أن يكون ذلك قد ظهر من ألوف سنين وألوف..»[٤]. والتفريق مصدر من فرّق الأشياء: فصل بينها وميّز. وهو مصطلح علميّ يقوم على مفهوم تجزئة الشيء قصد تيسير معالجته.

٢٥. التقريب: * «وكذلك فكلما عددنا، فمن أين يستحيل أن يحلّها إنسان بين مئة طبيعة ومئة جوهر، إما من طريق التبعيد والتقريب، ومن طريق الظنون

(١) الحيوان، ٣/٥٤٣.

(٢) نفسه، ٣/٤٧٦.

(٣) نفسه، ٣/٥٤٢.

(٤) نفسه، ٣/٥٤٢.

والتجريب،..»[١]. مصدر من قرّب الشيء: أدناه منه.

٢٦. التناكح[٢]: مصدر من (تناكح) وفي الوسيط: «تناكح القوم: تزاوجوا». ولا وجود اليوم لهذه الصيغة في الاستعمال الحديث، ربّما بسبب تغيّر دلالة (النكاح) من الزواج إلى الجماع.

٢٧. التنـزيل: * «وللحمام حسن الاهتداء، وجودة الاستدلال، وثبات الحفظ والذكر، وقوة النـزاع إلى أربابه، والإلف لوطنه.. وأنّه يجيء من الغاية على التدريج، والتدرب والتنـزيل..»[٣]. التنـزيل: مصدر من نزّل الشيءَ: أنزله، وفي نصّ الجاحظ: التنـزيل: مصطلح يفيد الحلول بالمنازل.

٢٨. الجسور: * « وقلنا لكم دعونا نصنع هذه الجسور التي تهدمها المدود، وتخربها المِداري..» [٤]. جمع جسر وهو القنطرة أو كلّ ما يعبر عليه. وفي نصّ الجاحظ نقل لهذه الدلالة من المادية إلى المعنوية، لأنّ الجسور المتحدث عنها هنا هي وسائل التفاهم والحوار والتواصل.

٢٩. جوهر الكلام: نازعت الملحدين والشُّكّاك فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود. (ح، ٦/٤٠١).

٣٠. الجوهر: * « ولذلك قالوا : العرض والجوهر، وأيس وليس،.. »[٥]. وفي

(١) الحيوان، ٣/٥٤٢.

(٢) نفسه، ٣/٥٣٨.

(٣) نفسه، ٣/٤٧٦.

(٤) نفسه، ٣/ ٥٤٥.

(٥) البيان، ١/١٣٩.

الوسيط: «جوهر الشيء : حقيقته.. وفي الفلسفة: ما قام بنفسه، ويقابله العرض، وهو ما يقوم بغيره».

٣١. الحال: * « وكما سمّى النحويون فذكروا الحال والظّروف وما أشبه ذلك...» (١). مصطلح في علم النحو: جاء في الوسيط: «لفظ يبيّن الهيئة التي يكون عليها الشيء عند ملابسة الفعل له واقعًا منه أو عليه».

٣٢. حيران: * «ويتخطى المقدمات متكشفًا بلا أمارة، فرجع حيران بلا يقين..» (٢). حيران: صفة مشبهة من حار، بمعنى تردّد و لم يصل إلى يقين.

٣٣. الخرم: * «كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزّحاف. »(٣). والخرم: مصطلح في علم العروض يعني: «حذف الفاء من فعولن، أو الميم من مفاعلتن أو مفاعيلن، فالبيت مخروم».

٣٤. الدّفّاع: * «قال خطيب: هذا فرق ما بين السّارّ والضار، والدّفّاع والنّفّاع.» (٤). (دفّاع) صيغة مبالغة من (دفع) بمعنى الذي يكثر دفع المال وغيره من أمارات الجود والكرم.

٣٥. الزّحاف: * «كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه

---

(١) البيان، ١/١٤٠.

(٢) الحيوان، ٣/٥٤٣.

(٣) البيان، ١/١٣٩.

(٤) نفسه، ١/ ١٤٠.

ذلك وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزّحاف. »[1]. مصطلح عروضيّ يفيد: التغيير الذي يلحق ثاني السبب الخفيف أو الثقيل.

٣٦. ساتر: * «وقال آخر: فدلّ ساتره على غامره، ودلّ غامره على منحلّه.»[2]. (ساتر) اسم فاعل من (ستر) بمعنى أخفى. فالساتر هو الخفيّ.

٣٧. السِّناد: * وقال ذو الرمة:

وشعرٍ قد أرقت له غريب أجنّبه المساند والمحالا[3]

مصطلح في علم العروض مشتق من سانَدَ بمعنى: «اختلاف ما يراعى قبل الرويّ من الحركات وحروف المدّ، وهو من عيوب الشعر».

٣٨. الصداق: * «فصار حظّ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتّصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم: التناكح والنتائج والمزاج والنور، والظلمة والدفاع، والبقاع والساتر، والغامر والمنحلّ، والبطلان والوجدان، والأثير والصداق،...»[4].

٣٩. الظرف: * « وكما سمّى النحويون فذكروا الحال والظّروف وما أشبه ذلك...»[5]. مصطلح في علم النحو يطلق على الإطار الذي يستقرّ غيره فيه كظرف الزمان وظرف المكان.

---

(١) البيان، ١٣٩/١.

(٢) نفسه، ١/ ١٤٠.

(٣) نفسه، ١٣٩/١.

(٤) الحيوان، ٥٣٨/٣.

(٥) البيان، ١٤٠/١.

٤٠. الظلمة: * «فصار حظّ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتّصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم: التناكح والنتائج والمزاج والنور، والظلمة والدفاع، والبقاع والساتر، والغامر والمنحلّ، والبطلان والوجدان..»[١].

٤١. الظنون: * «وكذلك فكلما عددنا، فمن أين يستحيل أن يحلّها إنسان بين مئة طبيعة ومئة جوهر، إما من طريق التبعيد والتعريب، ومن طريق الظنون والتجريب،..»[٢]. ومصطلح (الظنون) هنا يقابل مصطلح (التجريب) وقد مررنا به. وقيام أمر ما على الظنون من عيوب البحث العلمي.

٤٢. العرض: * «ولذلك قالوا : العرض والجوهر، وأيس وليس،.. »[٣]. ومصطلح (العرض) في الفلسفة يقابل مصطلح (الجوهر) الذي مررنا به. فالجوهر: «ما قام بنفسه، ويقابله العرض، وهو ما يقوم بغيره».

٤٣. غامر: * «وقال آخر: فدلّ ساتره على غامره، ودلّ غامره على منحلّه.»[٤]. (غامر) اسم فاعل من (غمر)، وفي الوسيط: «الغامر من الأرض: خلاف العامر، وهو ما غمره ماء أو رمل أو تراب، وصار لا يصلح للزرع».

٤٤. القوى: * «..فإذا عرفتم الجواهر وحظوظها من القوى، فعند ذلك فتعاطوا الإنكار والإقرار..»[٥]. (القوى) جمع (قوّة)، وهي في الوسيط: «مبعث

---

(١) الحيوان، ٣/٥٣٨.

(٢) نفسه، ٣/٥٤٢.

(٣) البيان، ١/١٣٩.

(٤) نفسه، ١/ ١٤٠.

(٥) الحيوان، ٣/٥٤٠.

النشاط والنموّ والحركة، وتنقسم إلى طبيعية وحيوية وعقلية.. ».

٤٥. ليس: * «ولذلك قالوا : العرض والجوهر، وأيس وليس،.. »[١]. جاء في الوسيط: «وقيل: أصلها لا أيس، فطرحت الهمزة، والدليل قول العرب: جيء به من حيث أيس وليس» أي «من حيث هو وليس هو».

٤٦. المحال: * «.. وينبغي أن تعرفوا فرق ما بين المحال الممتنع، وما يستحيل كونه من الله..، وما يستحيل كونه من الخلق..» [٢]. ما لا يمكن وجوده.

٤٧. المداري: * «وقلنا لكم دعونا نصنع هذه الجسور التي تهدمها المدود، وتخربها المداري..» [٣]. المداري: جمع مدرة، والمدرة حسب الوسيط: « قطع الطين اللزج المتماسك». والمعنى المقصود في النصّ مجازيّ.

٤٨. المدود: * «.. وقلنا لكم دعونا نصنع هذه الجسور التي تهدمها المدود، وتخربها المداري..» [٤]. والمدود: جمع مدّ، وهو: السيل وكثرة الماء، والمقصود في النصّ مفهوم مجازيّ يراد منه الخلاف والقطيعة.

٤٩. المديد: * «كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك.. »[٥]. مصطلح في علم العروض يطلق على بحر من بحور الشعر المعروفة.

---

(١) البيان، ١/١٣٩.

(٢) الحيوان، ٣/٥٤٠.

(٣) نفسه، ٣/ ٥٤٥.

(٤) نفسه، ٣/ ٥٤٥.

(٥) البيان، ١/١٣٩.

٥٠. المزاج[١]: «فصار حظّ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتّصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم: التناكح والنتائج والمزاج والنور، والظلمة والدفاع، والبقاع والساتر، والغامر والمنحلّ، والبطلان والوجدان، والأثير والصداق، وعمود الصبح وأشكالاً من هذا الكلام نصًّا. وإن كان غريبًا من فوضى، مهجورًا عند أهل ملتنا ودعوتنا وكذلك هو عند عوامنا وجمهورنا، ولا يستعمله إلا الخاصّ، وإلا المتكلمون..». [٢]

٥١. المسببات: * «.. وقلنا لكم دعونا نصنع هذه الجسور التي تهدمها المدود، وتخربها المداري، نحن نعمل لكم مسببات بنصف هذه المؤونة، فتبقى لكم أبدًا..»[٣]. جمع مسبّب: وهو ما كان علّة لوجود غيره.

٥٢. مستحيل في النظر: * «.. فلو قلتم إنّ ذلك قائم الجوهر في العقل، مطّرد في الرأي، غير مستحيل في النظر..» [٤]. أي غير القابل للرؤية المجرّدة.

٥٣. المصراع: * «وقالوا هذا بيت وهذا مصراع. وقد قال جندل الطهويّ حين مدح شعره: لم أُقوِ فيهنّ ولم أُساند»[٥]. مصطلح في علم العروض يفيد: نصف بيت الشعر، قياسًا على مصراعي الباب.

٥٤. المقدمات: * «..والدليل على علم أربابه بأنّ تلك المقدمات قد نجعن

---

(١) الحيوان، ٣/٥٣٨.

(٢) نفسه، ٣/٥٣٨.

(٣) الحيوان، ٣/ ٥٤٥.

(٤) نفسه، ٣/٥٤٢.

(٥) البيان، ١/١٣٩.

فيه، وعملن في طباعه،..»[1]. جمع مقدمة، والمقصود في نصّ الجاحظ الإعداد والتهيئة.

٥٥. الملحدين: * «نازعت الملحدين والشُّكّاك فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود.»[2]. والملحد، اسم فاعل من (ألحد في الدين: طعن)، ولكنّ المعنى الاصطلاحي هنا قد يكون بمعنى: الجدل الفكريّ.

٥٦. الممتنع: * «..ينبغي لكم بعد أن تعرفوا ..، الممكن من الممتنع..» [3]. اسم فاعل من امتنع: صار غير قابل للحدوث.

٥٧. الممكن: * «..ينبغي لكم بعد أن تعرفوا ..، الممكن من الممتنع..» [4]. اسم فاعل من أمكن الشيء: صار قابلاً للحدوث.

٥٨. المنحلّ: * «وقال آخر: فدلّ ساتره على غامره، ودلّ غامره على منحلّه.» [5]. اسم مفعول من انحلّ بمعنى : انفكّ وتباعد.

٥٩. مواضع الشكّ : * «فاعرف مواضع الشكّ وحالاتها الموجبة لها، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له.»[6]. أي الحالات التي يصحّ فيها الاعتماد على مبدأ الشكّ باعتباره وسيلةً منهجيةً للدرس والتحليل العلميّ، الذي لا يقبل

(١) الحيوان، ٣/٤٧٦.
(٢) نفسه، ٦/٤٠١.
(٣) نفسه، ٣/٥٤٠.
(٤) نفسه، ٣/٥٤٠.
(٥) البيان، ١/ ١٤٠.
(٦) الحيوان، ٦/٤٠١.

المسلّمات لمغالطتها العقل.

٦٠. مواضع اليقين: * «فاعرف مواضع الشكّ وحالاتها الموجبة لها، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له»[١]. أي الحالات التي ينبغي فيها التسليم بالحقيقة، لأنّ الشكّ إذا خرج عن مواضعه المنهجيّة تحوّل إلى عائق فكريّ وعمليّ. فإذا كان الشكّ ضروريًّا للبحث العلمي، فإنّ اليقين ضروريّ للتقدّم وتحقيق نتائج في ذلك البحث.

٦١. نازعت: * «نازعت الملحدين والشُّكّاك فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود.»[٢]. ونازع لغةً: غالب، وهنا بمعنى الصراع الفكري في المذاهب والآراء.

٦٢. النتائج[٣]: «فصار حظّ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتّصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم: التناكح والنتائج والمزاج والنور، والظلمة والدفاع، والبقاع والساتر، والغامر والمنحلّ، والبطلان والوجدان، والأثير والصداق، وعمود الصبح وأشكالاً من هذا الكلام نصًّا. وإن كان غريبًا من فوضى، مهجورًا عند أهل ملتنا ودعوتنا وكذلك هو عند عوامنا وجمهورنا، ولا يستعمله إلا الخاصّ، وإلا المتكلمون..»[٤].

٦٣. النّزاع: * «وللحمام حسن الاهتداء، وجودة الاستدلال، وثبات الحفظ

(١) الحيوان، ٤٠١/٦.

(٢) نفسه، ٤٠١/٦.

(٣) نفسه، ٥٣٨/٣.

(٤) نفسه، ٥٣٨/٣.

والذكر، وقوة النـزاع إلى أربابه، والإلف لوطنه...» [1]. النـزاع: مصدر من (نزع) إلى وطنه: حنّ واشتاق.

٦٤. النّفّاع: * «قال خطيب: هذا فرق ما بين السّارّ والضار، والدّفّاع والنّفّاع.» [2]. (نفّاع) صيغة مبالغة من (نفع) بمعنى النّافع، أو الكثير النّفع.

٦٥. النُّور: * «فصار حظّ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتّصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم: التناكح والنتائج والمزاج والنور، والظلمة والدفاع...» [3]. النور هنا بمعنى اصطلاحيّ خاصّ، قد يفيد مفهوم الكشف عن الحقيقة.

٦٦. الوجدان: * «فصار حظّ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتّصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم: التناكح والنتائج والمزاج والنور، والظلمة والدفاع، والبقاع والساتر، والغامر والمنحلّ، والبطلان والوجدان،...»[4].

٦٧. اليقين: * «ويتخطى المقدمات متكشفًا بلا أمارة، فرجع حيران بلا يقين..» [5]. مصدر من يقن ييقن، بمعنى تحقّق وثبت. والعلم الذي لا شكّ معه. وفي الفلسفة: اطمئنان النفس إلى حكم مع الاعتقاد بصحته.

(١) الحيوان، ٣/٤٧٦.

(٢) البيان، ١/ ١٤٠.

(٣) الحيوان، ٣/٥٣٨.

(٤) نفسه، ٣/٥٣٨.

(٥) نفسه، ٣/٥٤٣.

٦٨. يلتمسون: * «.. فإنّ الناس يلتمسون وينتصبون له،..»[١]. اشتقت صيغة (افتعل = التمس) من (لمس)، ولمس الشيء: مسّه، والتمس الشيء: طلبه. وفي القانون: الالتماس: طلب في إعادة النّظر.

٦٩. ينتصبون له: * «.. فإنّ الناس يلتمسون وينتصبون له، ويكلفون به،..»[٢]. وانتصب: مطاوع نصب. وانتصب للشيء: قام له وتهيّأ.

٤-٣- التوليد في مصطلحات اللهو والمجون:

٤-٣-١- التوليد الشكلي:

تحدّث الجاحظ عن المجون والماجنين والمستمتعين بالنعمة والمؤثرين للّذّة والمتمتّعين بالقيان وبالغلمان.. مع ما يصحب ذلك من دعة وترف ونعيم.. وقد ساعد على تغلغل القيم الأجنبية وخاصة الفارسية بما جلبته من مفاهيم فانتشر الفساد والتّكالب على جمع المال والحرص على الملذّات. وقد استفاد أنصار هذا التّيّار من حرّيّة فكريّة وثقافيّة وحتى سلوكيّة وجنسيّة كتعاطي البغاء... ومن مظاهره انتشار مصطلح (المجون) وما يتصل به من مفردات بعضها موروث ولكنّ أغلبها جديد ناجم عن المؤثرات الاجتماعية الحادثة في البيئة العباسية. وقد علّق الجاحظ على هذه الظاهرة بقوله: «إن ذلك شيء لا تعرفه الأوائل»[٣]. وهذا دليل

---

(١) الحيوان، ٥٤٢/٣.

(٢) نفسه، ٥٤٢/٣.

(٣) الرسائل، ١٢٣/٢.

على أنّ المجون ظاهرة اجتماعية عباسية[1].

«ويمكن أن نعتبر مؤلَّفات الجاحظ من أخصب المصادر التي تكشف التطور العميق الذي عرفته المرحلة، وذلك بسبب رغبته في التعبير عن الواقع الحضاري في عصره، دون أن يكون من همّه حماية مستوى بعينه، بما أنّ العصر نفسه هو الذي خلقها. وكان الجاحظ حريصًا على تحليل العلاقات النفسيّة والاجتماعية ووصف لمستوى المعيشة وما بالدُّور العباسية من أصناف المأكولات والملابس والطّبخ وغيرها من دقائق الحياة الاجتماعية. فكان يكتب في كلّ موضوع بلغة أصحابه..»[2].

وقد وردت في كتابات الجاحظ ألفاظ كثيرة تعكس الحياة الماجنة والتحرّر

(١) قد شرح معنى المجون ابن هلال في كتاب الفروق بقوله: *المجون: صلابة الوجه وقلّة الحياء، من قولك: مجُن الشيءُ يمجُن مجونًا: إذا صلُب وغلُظ، ومنه سمّيت الخشبة التي يدقّ عليها القصّار (مَيْجَنَة)، وأصلها البقعة تكون غليظة في الوادي، وناقة وجناء أي صلبة شديدة، وقيل غليظة الوجنات* (اللقاني، ص٢٤١).

وأضاف حسن ظاظا: «والمجون كلمة مولّدة لا تعرفها العرب، وإنّما تعرف أصلها الذي ذكرناه.» (كلام العرب، ١٤٣). ويمكن أن نعتبر مؤلفات الجاحظ من أخصب المصادر التي تكشف التطور العميق الذي عرفته المرحلة، وذلك بسبب رغبته في التعبير عن الواقع الحضاري في عصره، دون أن يكون من همّه حماية مستوى بعينه، بما أنّ العصر نفسه هو الذي خلقها. وكان الجاحظ حريصًا على تحليل العلاقات النفسية والاجتماعية ووصف لمستوى المعيشة وما بالدور العباسية من أصناف المأكولات والملابس والطبخ وغيرها من دقائق الحياة الاجتماعية. فكان يكتب في كلّ موضوع بلغة أصحابه..

(٢) اللقاني، ص٢٤١.

الخُلُقي. فإنّ اللغة تعكس البيئة، وهذه الحياة الماجنة تتحكّم في اختيار الألفاظ، كما تنعكس العلاقات الاجتماعية في بنية اللغة فتنعكس في الكلمات. ولم يستثن الجاحظ من معجمه الكلمات المحظورة أو تلك المتّصلة بالعلاقات الجنسية. فهو يقول: «وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الحِرِ والأَيْر والنِّيك ارْتَدَعَ، وأظْهَرَ التَّعزُّزَ، واستعمل باب التورُّع، وأكثر مَنْ تَجِدُه كذلك، فإنّما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنُّبل والوَقَار، إلا بقدر هذا الشَّكل من التّصنّع، ولم يكشف قط صاحبُ رِياءٍ ونِفاق، إلاّ عن لُؤْم مُسْتَعْمَلٍ، ونَذالَة مُتمكِّنةٍ... وبعد، فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع استعملها أهل هذه اللغة وكان الرأي ألا يُلفظ بها ولم يكن لأوّل كوْنها معنىً إلا على وجه الخطأ، لكان في الحَزْم والصَّوْن لهذه اللغة أنْ تُرفع هذه الأسماءُ منها وقد أصاب كلَّ الصَّواب الذي قال: لكلّ مقام مقال.»[1]. ويَعدّ اللسانيون اليومَ هذه المفردات لغة بحالها ذات قاموس خاص بها، فممّا يعكس خصائص الحياة الجديدة ظهورُ كلماتٍ دالَّة عنده على مفاهيم جديدة منها:

١. تخالص: وقال الجاحظ عن القينة: * «لا تكاد تخالص في عشقها، ولا تناصح في ودّها لأنّها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين»[2]. وواضح أنّ أبا عثمان يكثر من الاعتماد على بناء (فاعَل) كما في قوله : (تخالص).. ولعله أراد بهذه الصيغة في هذا المقام ضرورة توفر عنصر الادّعاء والتظاهر أمام معشوقها.

٢. تحظّى: * «ويتحظّون الأمة»[3]. صيغة مزيدة على وزن (تفعّل = تحظّى) من

(١) الحيوان، ٣/٤١٣.

(٢) الرسائل، ٢/٧١.

(٣) نفسه، اللقاني، ١٥٨.

(حظي). وفي اللسان: «حظي: إذا كان ذا حظوة، ومنـزلة.. وحظيت المرأة عند زوجها.. وامرأة حظيّة».. ولكنّه لا يورد هذه الصيغة (تحظّى) كما لم يوردها القاموس ولا الوسيط. يقول السامرائي: «لم يرد في كتب اللغة الفعل (تحظّى)، أي اتّخذ المرأة حظيةً مفضلةً على غيرها. وهذا ممّا ولّده الجاحظ»[1].

٣. الرّبيط: * ويقول عن المقين: «..يعرف كيف يشدّ الطول المرخى ويفتح العين المغضية حين يحسب الرّبيط أنّه أوشك على غايته والظفر بسؤله.. »[2]. فالمربوط والرّبيط والمتربّطين: مولّدات شكلية من مادة (ربط) متّصلة بمحبّي القيان والواقعين في شراكهم. أما المعجم فيفسّر الرّبيط والمربوط بالراهب.. ولعلّ ثمّة صلة بين الأصل اللغوي للكلمة، وبين ما ذكره الجاحظ حيث إنّ الربيط أيضًا راهب العشق والهوى للقينة.

٤. المُباثَّة: * «لئن منعت الجميع مؤاكلتي لأوحشنّهم جميعًا بعد المباسطة والمباثّة والملابسة والمؤاكلة»[3]. بثّ الشيء: فرّقه، وبثّ الخبر: نشره.. يقول السامرائي: «غير أنّي لم أجد بناء (باثّ يباثّ)، على (فاعل يفاعل) مثل (شارك يشارك)، والمصدر (مباثّة) مثل (مشاركة). وهذه الصيغة تعني عند الجاحظ المباسكة والممالحة. وهذا من الكلم التي ولدها الجاحظ.. وكأن الزمخشري في (الأساس) أدرك أن (المباثة) فصيحة أحجمت عن إيرادها المعجمات فذكرها..»

٥. المُباسَطَة: * «لئن منعت الجميع مؤاكلتي لأوحشنّهم جميعًا بعد المباسطة

(١) من معجم الجاحظ، ص١١٦.

(٢) الرسائل، ١٧٧/٢.

(٣) الحيوان، ٣٩٤/٥.

والمباثّة والملابسة والمؤاكلة»[1]. يقول السامرائي: «لم أجد المباسطة بمعنى الملاطفة والمحادثة في كتب اللغة.. فاختيار بناء (المفاعلة) من مادة (البسط) من مولدات الجاحظ. وقد أوردها الزمخشري في (الأساس) في مادة (بسط)»[2] .

٦. المُتربِّطون: * وقال الجاحظ عن القينة: «لا تكاد تخالص في عشقها، ولا تناصح في ودّها لأنّها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين»[3]. صيغة اسم مفعول مشتقة من (تربّط). وكان الجاحظ قد استعمل صيغتي: اسم المفعول (المربوط)، والصفة المشبهة (الرَّبيط)، وكأنّ في استعمال الصيغة (مُتَربّط) دلالة إضافية على مسؤولية المربوط في قبول الوقوع في شراك القَيْنة.

٧. المقيّن: * «والمقيّن يأخذ الجوهر ويعطي العرض، ويفوز بالعين ويعطي الأثر، ويبيع الريح الهابة بالذهب الجامد وفِلَذ اللُّجين والعسجد»[4]. والمُقَيِّن: اسم فاعل من (قيّن)، يقال: تقيّنت العروس: تزيّنت، ولا يوجد في المعاجم إلا كلمة (المقيّنة)، وهي التي تزيّن النّساء. أمّا (المقيّن) فوظيفة محدثة تطلق على الرّجل صاحب القيان، وهذه حرفة لم يعرفها العرب. ولهذا لم يوجد هذا المصطلح في لغتهم.

٨. المناصحة: *وقال الجاحظ عن القينة: «لا تكاد تخالص في عشقها، ولا تناصح في ودّها لأنّها مكتسَبَة ومجبولة على نَصْب الحِبالة والشَّرَك للمتربِّطين»[5].

---

(١) الحيوان، ٥/٣٩٤.

(٢) من معجم الجاحظ، ص٤٠.

(٣) الرسائل، ٢/١٧١.

(٤) نفسه، ٢/١٧٨.

(٥) نفسه، ٢/١٧١.

يعتمد الجاحظ بشكل كبير على الصيغ الأكثر تعبيرية ومنها المصدر الصناعي، مع أنّ الشائع هو استعمال المصدر العادي (النُّصْح).

٩. مؤاجر: * «وجاء القواد بغلام مؤاجَر»(١). هذه الكلمة محدثة في العصر العباسي بسبب شيوع المجون. وتقال للغلام الذي يؤجر نفسه إلى غيره لقاء أجر فيفعل به الفعل القبيح. وهو معنى لم تنصّ عليه المعجمات الحديثة.

٤-٣-٢- التوليد الدلالي:

١. أصْحاب السِّتارات: * فإنّ بعض القيان كنّ يضربن ستارةً تحُول بينهم وبين المستمعين يغنّين من ورائها(٢). ولذلك ظهر مصطلح (أصحاب الستارات).

٢. أصحاب السُّرور: * «..الأشربة والرّاغبين بأنفسهم عن قبول شيء عن الناس أصحاب السّتر والستارات والسرور والمروءات.. أصحاب السرور... المستمتعين بالنعمة..» (٣). استعمل الجاحظ هذا المصطلح للتعبير عن فئة راقية من المجتمع العباسي اختزل نعيمها في عبارة «أصحاب السرور».

٣. أصحاب المروءات: * «المستمتعين بالنّعمة والمُؤْثرين للّذّة المُتَمَتِّعين بالقيان وبالإخوان، المُعِدّين لوظائف الأطعمة وصنوف الأشربة والراغبين بأنفسهم عن قبول شيء عن الناس أصحاب السّتر والستارات والسرور والمروءات وأصحاب السرور... المستمتعين بالنعمة..»(٤). واستعمل هذا المصطلح «أصحاب المروءات»

---

(١) الحيوان، ٢٦/٣.

(٢) الرسائل، ١٤٣/٢.

(٣) نفسه، ١٤٣/٢.

(٤) نفسه، ١٤٣/٢.

للتعبير عن الفئة المتمتعة بصنوف ملاذّ الحياة.

٤. الإيقاع/ الموقّع: * ويقول متحدّثا عن الزّنج: «وهي أطبع الخلق على الرّقص الموقّع الموزون، والضّرب بالطّبل على الإيقاع الموزون، من غير تأديب ولا تعليم.» [(١)]. والإيقاع: مولّدة. يعرّف الخوارزمي الإيقاع بأنّه «النّقلة على النّغم في أزمنة محدودة المقادير، والنّسب أصناف، وأنواع الإيقاعات العربية: الهزج، خفيف الرمل، والرمل، ..» [(٢)].

٥. تقطيع: * «والمغنّي قد يوقّع بالقضيب على أوزان الأغاني، والمتكلّم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه. ففرّقوا ضروب الحركات على ضروب المعاني..» [(٣)]. والتّقطيع في الموسيقا وفي العروض تحويل الأصوات إلى مقاطع. وتقطيع الكلام منه. وهو ضرب من الإيقاع لزيادة التأثير في السامع.

٦. الخِصْيان: * «وذكرت الخصيان وحسن قدودهم ونعمة أبشارهم والتلذّذ بهم، وأنّ ذلك شيء لا يعرفه الأوائل.»[(٤)]. وفي الوسيط: «خصاه: فهو مخصيّ وخصيّ». وانتقلت هذه الظاهرة من الحيوان إلى الإنسان مع استفحال ظاهرة المجون. ولذلك قال الجاحظ: «ذلك شيء لا يعرفه الأوائل». فإنّ هذه الظاهرة مرتبطة بدخول قيم أجنبية في البيئة العربية.

(١) الرسائل، ١/١٩٥.
(٢) مفاتيح العلوم، ص١٤٠-١٤١.
(٣) البيان، ٣/١١٩.
(٤) الرسائل، ٢/١٢٣.

٧. الفتك: * «ولولا أن أدخل في الحكم بعض الفَتْك»[١]. والفتك هنا بمعنى المجون. يقول السامرائي: «وهذا معنى غريب في الفتك الذي لا يخرج عن الجَوْر والخراب في اللغة المعاصرة.»[٢] .

٨. الفُرّاغ: * «وما بال أهل العلم والنّظر.. يكتبون كتب الظرفاء والملحاء والفُرّاغ والخُلعاء»[٣]. استعمل صيغة (فُعّال = فُرّاغ) جمعًا لـ (فارغ)، وأراد بها هنا (المتفرّغين) فحياة المجون واللهو تبدو نتيجة لحياة الفراغ.. ثم قرن (الفارغ) بـ (الخليع) لتبرز الدلالة المقصودة.

٩. القضيب: * «والمغنّي قد يوقّع بالقضيب على أوزان الأغاني،..»[٤]. أصل القضيب هو الغصن. لكنّ المقصود هنا: أداة صغيرة في شكل قضيب، يستعملها المغنّي للإشارة إلى إيقاع الأصوات الموسيقية.

١٠. المجون: قال الجاحظ في الحيوان[٥]: «سُئِل بعض المجّان كيف أنتَ في دينك؟ قال: أُخَرِّقه بالمعاصي وأُرَقِّعه بالاستغفار» . وذكر على لسان أحد المجّان هذا البيت:

«نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نمزّق»[٦]

---

(١) الحيوان، ١٣١/٣.

(٢) من معجم الجاحظ، ص٣٢٠.

(٣) الحيوان، ٢٥/١.

(٤) البيان، ١١٩/٣.

(٥) الحيوان، ٥٠٦/٦.

(٦) نفسه، ٥٠٦/٦.

وقد علّق الجاحظ على هذه الظاهرة بقوله: * «إن ذلك شيء لا تعرفه الأوائل»(١). وهذا دليل على أنّ المجون ظاهرة اجتماعية عباسية. وقد شرح المعجم الوسيط دلالة (مَجَنَ): مجن الشيءُ مجونًا: صلُب وغلظ؛ ومجُن فلان مجونا، ومَجانة: قلّ حياؤه، فهو ماجن. ومجن: خلط الجدّ بالهزل.. فأصل دلالة (المجون) صلابة الوجه وقلّة الحياء.. ومنه سمّيت الخشبة التي يدقّ عليها القصّار (مَيْجَنَة)، وأصلها البقعة تكون غليظة في الوادي، وناقة وجناء أي صلبة شديدة، وقيل غليظة الوجنات.. ويقول حسن ظاظا: «والمجون كلمة مولّدة لا تعرفها العرب، وإنّما تعرف أصلها الذي ذكرناه.»(٢).

١١. المربوط: يقول الجاحظ عن حيل القَيْنة: * «وأكثر أمرها قلّة المُناصحة واستعمال الغدر والحيلة في اسْتِنْطَاف ما يَحويه المَرْبوط والانتقال عنه، وربّما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة..»(٣). والمربوط هنا في اصطلاح المجون عاشق القينة. ويبدو أنّ في إطلاق هذا المصطلح تأكيدًا على شدّة نفوذها على معشوقيها فهم أشبه بالمربوطين.

١٢. مومس: * يقول حسان في بعض قريش:

«أجَمَعْت أنَكَ أنتَ ألْأَمُ مَنْ مشى ... في فُحش مومسة، وزهو غراب»(٤)

استعمل الجاحظ (مومس) بمعنى تاجرة الهوى أو البغي. والكلمة من اليونانية

---

(١) الرسائل، ١٢٣/٢.

(٢) انظر: اللقاني، ص٢٤١.

(٣) الرسائل، ١٧٥/٢.

(٤) الحيوان، ٤٢٤/٣.

(ميمس) بمعنى الراقصة .. ثم دخلت العربية بمعنى «محترفة الدعارة الوثنية الدينية بجوار المعبد، وكانت المومس في الجاهلية تختار لها بنات يساعدنها في الرقص والخدمة الشهوانية الوثنية المقدسة، وتسمى الواحدة منهنّ (الخريع). وكانت أكثر الراقصات انتشارًا بين المومسات ما يمثّل بالحركات غرام أُساف ونائلة وما كان من أمرهما»[١]. وقد ماتت الكلمة زمنًا ثمّ عادت مواكبةً للتطور الاجتماعي، ولا شكّ أنّ معناها قد تطوّر ليصبح دالاً على تاجرة الهوى أو البغي. وقد وردت الكلمة عند المعرّي في قوله: خصاؤك خير من زواجك حرّة فكيف إذا أصبحتَ زوجًا لمومس[٢].

١٣. النّخّاس: [٣]يقول الجاحظ: «ابتاع نخّاس من أعرابي غلامًا فأراد أن يتبرّأ من عيبه ، قال: اعلم أنّه يبول في الفراش قال: إن وَجد فراشا فلْيبُلْ فيه..» [٤]. والنّخّاس: هو بائع الدواب في الأصل ومنه نخس الدابة نخْسًا: طعن مؤخّرها أو جنبها بالمنخاس لتنشط.. والنِّخاسة: حرفة النّخّاس. والنخاس: بائع الدواب والرّقيق[٥].

١٤. النكاح: * «وقد زعم بعض القراء أنّه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن

(١) عن اللقاني، ص٢٦٤.

(٢) نفسه، ص٢٦٤.

(٣) البيان، ٤/٩-٢/١٧٦.

(٤) نفسه، ٤/٩-٢/١٧٦.

(٥) انظر: المعجم الوسيط.

إلا في موضع التزويج.» [1]. لكنّ الاستعمال الحديث يستعمل النّكاح في الغالب في معنى المواقعة.

١٥. النّهاريّ: * «وقالت له امرأة: ويحك يا أبا قماقم! إنّي قد تزوجت زوجًا نهاريًا، والساعة وقته، ولست على هيئة، فاشتر لي بهذا الرغيف آسًا..» [2]. لعلّ من مظاهر حياة اللهو والمجون الغريبة في العصر العباسي، ظاهرة اللاتي يتزوّجن شرعًا في الظاهر زوجًا يسمّى زوجًا نهاريًّا، ويتسمّين بـ «النهاريات».

١٦. نهاريّة: «فأما المكيّ فإنّه تعشّق جارية.. ثم تزوجها نهارية.. وأنّها كانت ذات صنان.. وأنّها كانت تعالجه بالمرتك..» [3].

٥- خ اتم . . ة

تحتاج اللغات لقياس درجة نموّها، إلى درس المولّدات فيها باستمرار درسًا علميًا يكشف عن التّصوّر المنهجيّ الذي يتحكم في هذه الظاهرة اللغوية. ولا شكّ أنّ هذا الأمر قد تأكّد في دراسة هذه النّماذج من المولّدات في العربية في عصر الجاحظ، حين أصبحت العربية لغة الحواضر والعلوم والرقيّ الفكريّ.. وما بذلته في سبيل ذلك من «جهد» للتأقلم مع الواقع الجديد.

كما يكشف البحث أنّ العربية لغة متطوّرة فعلاً وفق قواعدها الداخلية. وقد أثبت الجاحظ ذلك بما أقدم عليه من تطويع لقواعد التوليد بنوعيه: الشكلي، أي باستغلال ما تسمح به قواعد الاشتقاق الصّرفي لتوليد دوالّ جيدة؛ والدّلالي، أي

(١) البيان، ١/١٩-٢٠.

(٢) البخلاء، ٢/٤٧.

(٣) الحيوان، ٥/٣٤٥.

باعتماد قواعد المجاز والاستعارة وغيرها لتوليد مدلولات جديدة في دوالّ قديمة.

على أنّ هذا التّوليد ما كان له، في نظرنا أن يبلغ ما بلغه من أهمية واتّساع، سمح للعربية بالانتقال من لغة البدو إلى لغة العلوم والفكر والحضارة.. لولا عاملان هما:

(1) قابلية النّظام اللغوي لاستيعاب مظاهر التّطوّر في اللغة، فإنّ اللغة من حيث هي جهاز مستقلّ عن الواقع خارج اللغة، متمتّعة بتلك الاستمرارية عن طريق بنيتها نفسها فهي مؤسّسة قابلة لاستيعاب التجربة الإنسانية في الكون والتعبير عنها بدوالّ ومدلولات جديدة؛

(2) خضوع اللغة باعتبارها مؤسّسة منصهرة في المجتمع لقانون نموّه. فحدوث التغيير اللغوي إذن مرتبط من هذه الناحية، بتطوّر الجماعة اللغوية واتّساع مجالات حياتها الاجتماعية والفكرية والحضارية، وهو ما أدركه الجاحظ مبكّرًا فلم يسع إلى الوقوف ضدّه، بل اعتبره جزءًا من حركة اللغة الطبيعية، يقتضي الحاجة إلى استعمال اللغة استعمالاً متجدّدًا يناسب ما جدّ في حياتها من الأشياء والمفاهيم.

وما يمكن ملاحظته في الأخير هو ميل الجاحظ إلى استغلال الصيغ الصرفية الممكنة لغويًّا لنقل الدلالة إلى مستوى أبلغ من ناحية درجة الإبلاغ والتعبيرية. وقد يعود ذلك إلى رغبة في الاستفادة من دلالات الصيغ إضافة إلى دلالات الجذور والكلمات. فيكثر في كتاباته استعمال الأوزان المزيدة كصيغ:

- استفعل (كاستزار: أي طلب الزيارة؛ واستحرق نفسه: أي طلب حرقها، واستأكل مستأكل..). واعتماد دلالة الصيغة في العربية تعبير موجز عمّا تتضمّنه من دلالات: كطلب الشيء، ووجود الشيء على حالة، والتظاهر

وغيرها..

- فاعل (كآكل والمؤاكلة، وساهل والمساهلة).

- تفعّل (كتربّط فهو متربِّط، من ربط فهو مربوط، وتحظّى بدل حظي، وتكفّر بمعنى أخفى مِنْ كفر..).

- المصدر الميميّ لقوة تعبيريته (كالمناصحة بدل النّصح، والمباثّة بدل البثّ..).

- والمصدر الصناعيّ (كالأيسية، والليسيّة) إلخ..

وصيغة اسم المفعول فيما شاع للصفة المشبهة (كمضعوف بدل ضعيف، ومسمون بدل سمين..).

- واستعمال المزيد بدل الثلاثي الشائع (كأبْرَدَ بدل بَرَدَ؛ وأضلَّ بدل ضلَّ..).

إنّ المتتبّع للجهد الذي بذله الجاحظ في جعل اللغة العربية لغة حيّة لا تتحرّج من استعمال ما تجيزه قوانينها الصرفية، بقطع النّظر عن علاقة ذلك بالسماع أو بالاستعمال الفصيح، يعثر لديه على اشتقاقات وصيغ لا يقرّها المعجم إلى اليوم على رغم أنّها على أوزان العربية ووفق أقيستها المتعارف عليها. وفي هذا دليل على أنّ الجاحظ أراد أن يحرّر حركة التوليد في العربية في نطاق الأقيسة والقواعد، فلا هو يجمّدها كما فعل المتشدّدون، ولا هو يخلّ بخصائصها كما هدّدت بذلك لغة العامة ومن جاراهم.

الفصل الثالث

العامي

١- العاميّ واللحن:

رأينا أنّ الجاحظ قد مهّد لمسألة التطوّر اللغوي بالتمييز – في مستوى الفصيح نفسه- بين عربية الجاهلية وعربية الإسلام، ممّا يثبت وجود تغيّر حتميّ يكون تعبيرًا عمّا يصْحب أيَّ تحوُّل اجتماعيّ أو ثقافيّ أو دينيّ .. من جديد في مستوى المفاهيم والقيم، ومن ثمّ في مفردات اللغة المعبّرة عنها. وقد وصف الجاحظ هذا التغيّر فيما بات يعرف بالألفاظ الإسلامية، فعدّه انتقالاً فكريًّا وحضاريًّا يُجاوز مجرّد تغيير في المفردات إلى تحوّل جوهريّ في بنية المجتمع ونمط عيشه وتفكيره. فقد ربط بين المفردات الجديدة ودلالاتها الدينية والذّهنيّة المتّصلة بالانقلاب الاجتماعي الذي أحدثه مجيء الإسلام في النّموذج الجاهليّ البدويّ: فانتقلت ألفاظ المنافق والكافر والمشرك والصيام والصلاة والصَّرورة والزّكاة وغيرها.. إلى دلالات عقائديّة خاصة بالدّين الجديد وبالمرحلة الحضاريّة الجديدة التي أسّس لها.. وما تحوُّل الاستعمال عن ألفاظ من نوع : «المِرْباع والنَّشيطة»، و«الإتاوة والحُمْلان»، و«أبيْتَ اللَّعْن، وربّي»، و«ساق إليها صداقها»، و«بنى على أهله».. [1]، في الحقيقية إلا تحوّل في مستوى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية.. من نمط قائم على هذه المفاهيم القبلية في التّنظيم السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ إلى نمط محدث مُسْتَمَدّ من عقيدة جديدة، ومن انتقال من عالم البداوة إلى عالم الحضارة والاستقرار في المدن وما يتطلّبه ذلك من أسس جديدة. فلم يعُد ممكنًا مثلاً استعمالُ عبارة «ساق إليها صداقها»، أو عبارة

(١) الحيوان، ٥/٣٢٧-٣٣٤.

«بنى عليها» لارتباط ذلك بحياة البدواة وانتفائه في حياة المدن.

وما ينطبق على الألفاظ الإسلامية ينطبق كذلك على ألفاظ اللغة العامَّة في المجتمع العباسيّ في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وخاصة في المستوى المقول. فقد عرف المجتمع انقلابًا فكريًا وثقافيًا وحضاريًّا بعوامل التطور الحضاريّ والرُّقيّ العلميّ والتنوّع الثقافي الذي ميّز هذه المرحلة من تاريخ العربية.. وقد ذكر الجاحظ على ألسنة أبطاله نماذج من التغيّر اللّغويّ والدلالي في الاستعمال العام. لكنّ هذه التغييرات وإن لم يُدِنْها الجاحظ، باعتبارها ضربًا من الواقعيَّة اللغويّة القائمة أساسًا على التّبسيط والتّيسير والقياس.. فإنّها ستعدّ لحنًا وضربًا من أوهام العامّة وأغلاطهم.. لأنّها تغييرات تقع خارج عصور الفصاحة. ولن تكتسب حق الانتساب إلى المعجم، فهي من العاميّ الذي يدخل في باب اللّحن شأنه شأن المولّد خارج عصور الفصاحة أيضًا.

والجاحظ نفسه اهتمّ في باب اللحن بهذا المستوى الذي بدأ يغزو لغة الاستعمال ممّا سيصبح له شأن في العربية الحديثة ومنها عربية الجاحظ نفسه.

لكنّه وإنْ سكت عن التّعليق عن تغييرات دلالية من نوع: «افتحوا سيوفكم»، بمعنى «سلّوا سيوفكم» (١)، فإنّه لن يمنع نفسه من التّعليق على تغييرات أخرى رآها أشدَّ خطرًا مثل: قول قائل: «اجْلِسْ على اِسْتِ الأرض». فردّ: «ما كنت أحسب أنّ للأرض اِستًا» (٢).. وقال إبراهيم بن سيابة: «أنا لا أقول: متّ قبلك، لأنّي إذا

(١) البيان، ٢/٢١٠.

(٢) نفسه، ٢/ ٢١١.

قلت: متّ قبلك، مات هو بعدي. ولكن أقول: متّ بدلك» [1].. وقول آخر: «هذه عصاتي».. أو«وحيٍّ على الفلاح» [2]..

بل إنّ الجاحظ رفض اللحن في الإعراب [3]، وعالج أثره في الأصوات، فميّز بين نطق الأهوازي والخراساني والزّنجي والسّندي، والنّبطيّ، والصقلبيّ والهنديّ [4]، ...كما أشار إلى أنّ الكثير من أصوات اللغات الأجنبية لا تعرفه العربية، ولا يصوّره الخطّ العربيّ [5]. وقد تنبّه إلى أثر هذا الازدواج اللغوي فيما آلت إليه عربية الاستعمال. فبيّن أنّ العربية والفارسية تختلفان، «فإذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كلّ واحدة منهما الضيم على صاحبتها» [6].

لكنّ نقده الشّديد وجّهه إلى ما سمّاه «لحن أصحاب التّقعير»، فقال: «اعلمْ أنّ أقبح اللّحن لحن أصحاب التّقعير والتّقعيب، والتّشديق والتّمطيط والتّفخيم، وأقبح

(١) البيان، ٢/ ٢١٥.

(٢) نفسه، ٢/٢١٩.

(٣) نفسه، ٢/٢١٠-٢١٣.

(٤) نفسه، ١/٢٣.

(٥) نفسه، ١/١٦.

(٦) نفسه، ١/١٣٩. اهتمّ الجاحظ بأثر النّطق في اللحن، فميّز بين نطق الأهوازي والخراساني والزنجي والسندي. فالنبطيّ يجعل الزاي سينًا والعين همزة؛ والصقلبيّ يجعل الذال المعجمة دالاً؛ ... وقد وجّه الجاحظ عناية إلى الأخطاء الخاصة في التعبير (البيان، ١٣٢)؛ وأسماء عيوب اللسان: «وليس اللجلاج والتمتام والألثغ والفأفاء، وذو الحبسة والحُكلة والرُّتة وذو اللفف والعجلة في سبيل الحصر في خطبته، والعييّ في مناضلة خصومه..» (البيان ١/ ١٢-١٣) .يجعل الجيم زايًا.كما أشار إلى أنّ الكثير من أصوات اللغات الأجنبية لا يصوّره الخطّ العربيّ.(البيان، ١/٣٢-٣٣).

من ذلك لحن الأعاريب النّازلين على طرق السّابلة، وبقرب مجامع الأسواق. ولأهل المدينة ألسن ذلاقة ، وألفاظ حسنة، وعبارة جيّدة»[1]. «واللّحن في عوامهم فاش، وعلى من لم ينظر في النّحو منهم غالب.»[2].

كما اهتمّ بالأخطاء الخاصّة في التّعبير[3]؛ وأسماء عيوب اللّسان: «وليس اللجلاج والتّمتام والألثغ والفأفاء، وذو الحبسة والحُكلة والرُّتة وذو اللّفَفِ والعجَلة في سبيل الحصر في خطبته، والعييّ في مُناَضلة خصومه..»[4].

وقد سوّغ سرعة انتشار اللّحن ربّما بمبدأ التّيسير والسّهولة أو تأثُّرًا بالشائع. فقد قال: «كان أبو معمر يحدثنا فيلحن، يَتْبَع ما سَمع»[5]. أي إنّ اللحن أصبح ظاهرة شائعة لا يستطيع أن ينجو منها إلا من كان قادرًا على التمييز بين الخطأ والصواب، وهذا لا يتأتّى دائمًا إلا لمن أدرك النّحو وتشرّب خصائص العربية. لكنّ مشكلة انتشار الخطأ هي في شيوعه ويسره، وهذا ما جعل الجاحظ يستنتج أنّ المتكلمين قد يستخفّون «ألفاظًا ويستعملونها، وغيرها أحقّ بذلك منها. ألا ترى أنّ الله لم يذكر الجوع في القرآن إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر.

(١) قال الجاحظ: «وعاب الرسول ﷺ الفدادين.. ورُحْب الغلاصم وهَدَل الشفاه، وأعلمنا أنّ ذلك في أهل الوبر أكثر، وفي أهل المدر أقلّ.. فما ظنّك بالمولّد القرويّ والمتكلف البلدي.» (البيان، ١/١٣).

(٢) البيان، ١/١٤٦.

(٣) نفسه، ١/١٢٢.

(٤) نفسه، ١/١٢ .١٣.

(٥) نفسه، ٢/٢١٠.

والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنّك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنّه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرَضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعًا. والجاري على أفواه العامة غير ذلك. لا يتفقّدون من الألفاظ ما هو أحقّ بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أنّه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج.»[1].

أي إنّ الجاحظ يميل إلى اعتبار المستوى العاميّ نتيجة التّعميم وتغليب التبسيط المجازيّ، مقابل ما كانت تتميّز به العربية الفصيحة من تخصيص الدلالات حسب خصائص الاستعمال ووجوهه.

لكنّ الجاحظ لا يتردّد مع ذلك، في اعتماد لغة الاستعمال نفسها، عندما يتعلق الأمر بنقل وصف أو تسجيل حوار مراعاةً لطبيعة المتكلمين وما يشيع في لغتهم من ألفاظ خاصة، رغم التشدّد اللغوي الذي كان يمنع من استعمال لغة الناس ويعدّها لحنًا ينبغي أن يصوّب. وربّما عدّت أعماله من هذه الناحية، من المراجع الهامة التي تكشف واقع عصره : الاجتماعيّ بما فيه من مجون وجدّ، وزندقة وتديّن..؛ واللغويّ بما فيه من لحن وتوليد وواقعية تناسب ما يصفه من شخصيات وأعمال.. فلم يصبغ جميع ذلك برونق من البيان الذي امتلك ناصيته، بل قدّمها عارية إلا من صدق الوصف وعفوية الاستعمال.

(١) البيان، ١/١٩-٢٠.

حتى قال المستشرق الألماني (يوهان فك): «ومن النفاسة بمكان ما ذكره الجاحظ عن اللهجات، واللغات الخاصة، وألسنة الحرف والمهن. فهو يبيّن أنّ كلّ مصر يتكلم على لغة من نزل به من العرب. ويذكر أمثلة لفرق ما بين مكة والبصرة في الاستعمال اللغوي» (١). ويضيف: «وفي كتاب البخلاء يعرض صورةً غاية في الدّقّة من الوجهة اللغوية لأسلوب المحادثة بالبصرة في ذلك العهد» (٢).

ولعلّ من أطرف ما نقرؤه عند أديب من حجم الجاحظ، التزامه بمجاراة اللحن حسَبَ فئات المتكلمين فيما يُنشئ من قصص، ليكيّفها حسب أبطالها إن كانت من العامة أو من الخاصة. فيقول: «وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنًا أو كلامًا غير مُعْرَب ولفظًا معدولاً عن جهته، فاعلموا أنّا إنّما تركنا ذلك لأنّ الإعراب يُبغّض هذا الكتابَ ويُخرجه من حَدّه إلا أن أحكيَ كلامًا من كلام مُتَعاقلي البخلاء، وأشحَّاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه.» (٣) .

٢- العاميّ ووظائف اللغة الاجتماعية:

للّغة عند الجاحظ وظائف أهمها الوظائف الاجتماعية والإبلاغيّة. وهذه لن تنجز إلا بإنطاق المتكلّمين في بيئاتهم الطبيعية: في السوق والعمل والمنزل.. ويعلّل ذلك بقوله: «لكلّ صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها.. وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة، أو في مخاطبة العوام

(١) فك: العربية، ١٢٤.

(٢) نفسه، ص ١٢٤؛ وانظر: البخلاء، ١/٨٦.

(٣) البخلاء، ١/٧٨.

والتجار، أو مخاطبة أهله، وعبده وأمته، أو في حديثه إذا تحدّث، أو خبره إذا أخبر. وكذلك فإنّه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأَعْراب وألفاظ العوامّ وهو في صناعة الكلام داخل، ولكلّ مقام مقال، ولكلّ صناعة شكل.»[1].

لذلك يبدو في أعماله احتفاء بلغات المهن الخاصة والفئات الاجتماعية [2] لقدرتها على نقل حقائق المتكلمين، وأولى هذه الحقائق اللغة، فهي شديدة التكيّف مع طبيعة المتكلمين بها المهنية والاجتماعية. ومن أمثلة ذلك قوله: «وقلت لملاّح لي وذلك بعد العصر في رمضان: انظر كم بين عين الشمس وبين موضع غروبها من الأرض قال: أكثر من مُرْدِيَّيْن ونصف... وقال آخر: وقع علينا اللّصوص، فأول رجل دخل علينا كان في طول هذا المُردِيّ وكانت فخِذُه أغلظ من هذا السُّكّان. واسودّ صاحب السفينة حتى صار أشدّ سوادًا من هذا القير. وأردت الصعود مرّة في بعض القناطر، وشيخ ملاح جالس. وكان يوم مطر وزلق فزلق حماري فكاد يلقيني لجنبي لكنّه تماسك فأقعى على عجزه فقال الشيخ الملاح: لا إله إلا الله ما

(١) الحيوان، ٣/٣٦٨.

(٢) فقد تحدّث الجاحظ عن عدّة مهن منها: الصفارون (الحيوان، ٤/٣١١)، وأصحاب الركايا (٥/١١٠)، والقرادين (الحيوان، ٢/١٧٩-١٨٠)، والملاحين والمدادين (الحيوان، ٢/١٢٦)، وأصحاب الخلقان (الحيوان، ٢/١٠٥)، والحوائين والراقين (الحيوان، ٤/١٩٠)، والخناقين (الحيوان، ٢/٢٦٤-٢٦٥) .

ولعلّ هواية الجاحظ في الحديث عن العوام وألفاظهم وملحهم وظرفهم هي التي دفعته إلى تسجيل تلك الحكايات عن القرادين والملاحين والحوائين والمشعوذين والمكدين.. وهي التي جعلت كتاباته ممتلئة بألفاظ ولهجات الطبقات السفلى في المجتمع.. فيعرض للغة اللصوص والمتسولين وخاصة في كتاب البخلاء. (اللقاني، ٣٦٢) .

أحسن ما جلس على كوْثَله.»[1].

نلاحظ عددًا من الألفاظ الخاصة بطائفة الملاحين: المُرْدِيّ، السُّكّان، القِير، الكَوْثلة.. فهي جانب من المعجم اللغوي لهذه الفئة الاجتماعية من عامة الشعب. ويؤكّد الجاحظ أنّ لكلّ طائفة معجمها وألفاظها المحبّبة إلى نفوسها. ممّا يترك لدى قارئه الإحساس بتباين هذه الفئات لغويًّا مثل تباينهم اجتماعيًا. وهنا لا بدّ من العناية بوظيفة اللغة في المجتمع. فإنّ اللغة ليست مجرّد وسيلة للتفاهم فحسب بل هي جزء من نشاط الإنسان وسلوكه. فإنّ مفردات اللغة في أيّ مجتمع تعكس في تصنيفها للأشياء النّشاط العمليّ للجماعة في تناولها لهذه الأشياء.

ومن الألفاظ الطريفة التي لا وجود لها في كتب اللغة واستعملها الجاحظ قوله: «ولنا المُواجَأَة في الأزقّة، والصّبر على قتال أهل السّجون، فسل عن ذلك الخَليديّة والكَتيفيّة والبَلاليّة والخَربيّة.»[2].

يبدو أنّ هذه الكلمات هي أسماء لطوائف من أهل الشَّغَب: فالخلاديّ، نسبة إلى «محلّة الخُلْد» في بغداد، قريبًا من قصر «الخُلد» الذي بناه المنصور سنة ١٤٥هـ، أما البلالية فطائفة من المقاتلة بالبصرة منذ بدء ثورة الزنج، وأما الخربية، فطائفة من الشّيعة كانت لا تُحقِّر السَّرِقة والنَّهبَ، وأما الكتيفية فالذين شُدّت أكتافهم[3].

إنّ هذا الحرص عند الجاحظ يظهر في الواقعية اللغوية. خاصة في تخيّر المستوى

(١) البيان، ١٧٦/٢.

(٢) الرسائل، ٢٧/١.

(٣) اللقاني : ص٣٤٧.

اللغوي والتعبير المناسب لطبيعة شخصياته وقدراتها الثقافية والاجتماعية ممّا يُثري هذا التنوّع اللغويّ، ويقدّمه في شكل يتماشى والسمات اللغوية لفئة البخلاء والمُكدين مثلاً، أو الفصحاء والأعراب وغيرهم.. إنّ الجاحظ لم يستثن في عنايته بالطّبقات الاجتماعيّة تفاصيل لغتها بما يبدو أشبه بمعجم لغويّ خاصّ بها.

فإنّ النّاظر في حديثه عن المُكدين مثلاً يكتشف معجمًا خاصًا بهذه الفئة. وأول مفردات هذا المعجم مصطلح «التَّكْدية» نفسه، فمع أنّ الكلمة قديمة فصيحة، جاء في القرآن: ﴿أفَرَأَيتَ الذي تَوَلَّى وأَعْطَى قَليلاً وَأَكْدَى﴾ (١). (فكدى المُكدي أي: سأل)، فإنّ (التَّكدية) تُجاوز في اصطلاح الجاحظ مجرّد السُّؤال والاستجداء، إلى تضمُّن معاني الاحتيال للمال، واستغلال غفلة الناس بمختلف الأساليب غير المشروعة (٢). يقول الجاحظ: «قالوا: وإنّك لتعرف المكدّين. قال: وكيف لا أعرفهم؟ لم يبق مخطرانيّ، ولا مستعرض الأقفية، ولا شحّاذ، ولا كاغانيّ، ولا بانوان، ولا قرسي، ولا عوّاء، ولا مشعّب، ولا مزيدي، ولا إسطيل إلا وقد كان تحت يدي. ولقد أكلتُ الزكوريّ ثلاثين سنة. ولم يبق في الأرض كعبيّ ولا مُكدٍّ إلا وقد أخذت العِرافة عليه..» (٣).

ولشدّة خصوصية هذا المعجم اضطرّ الجاحظ إلى تفسير ما ورد فيه من ألفاظ غريبة على بقية المتكلمين منها: الإسطيل: هو «المتعامي...»(٤)؛ والزكوريّ: «خبز

(١) سورة النّجم، الآية ٣٤.

(٢) البخلاء، ١/٨٥.

(٣) نفسه، ١/٩٦.

(٤) نفسه، ١/٩٩. وريح السبل: داء العين كما جاء في اللسان.

الصدقة..» (1)؛ والقرسي: «الذي.. لا يشكّ من رآه أنّ به الأُكْلة..»(2)؛ والكعبيّ: «أُضيف إلى أبي كعب الموصلي..»(3)؛ والمخطراني: «الذي يأتيك في زيّ ناسك...»(4)؛ والمزيدي: «الذي يدور ومعه الدريْهمات ويقول: هذه دراهم قد جمعت في ثمن قطيفة.».. (5)؛ ومستعرض الأقفية: «الذي .. يعترضك اعتراضًا، ويكلمك خفيًّا».. (6)؛ والمشعّب: «هو الذي يحتال للصبيّ حين يولد ، بأن يُعميَه أو يجعله أعسم أو أعضد ليسأل الناسَ به أهلُه.».. (7)؛ و«المكدي: صاحب الكداء» (8)؛ والمعدّس: «وهو الذي يقف على الميّت يسأل في كفنه..»(9)؛ والعوَّاء: «وهو الذي يسأل بين المغرب والعشاء..» (10)؛ والكاغاني: «الذي يتجنّن ويتصارع ويُزيد، حتى لا يُشكّ أنّه مجنون..» (11)..

(1) البخلاء، 1/100.

(2) نفسه، 1/98.

(3) نفسه، 1/100.

(4) نفسه، 1/97. جاء في الشرح: (بابك) : اسم ملك فارسيّ. قوّر لسانه تهكمًّا لأنّه كان وثنيًّا لا يحبّ أن يسمع الأذان.

(5) نفسه، 1/ 99.

(6) نفسه، 1/98.

(7) نفسه، 1/98.

(8) نفسه، 1/ 100.

(9) نفسه، 1/99.

(10) نفسه، 1/98.

(11) نفسه، 1/97.

وفي مؤلَّفات الجاحظ صور كثيرة من الاستعمالات العاميّة تعمّد ذكرها لبلاغتها وتعبيريتها التي اعترف أحيانًا بتفوقها على الفصيح. فقد ذكر نماذج من هذه التّعابير العامية وامتدح يسرها وبلاغتها. من ذلك قوله:

* «مرت بنا جارية. فقال بعضنا: ينبغي أن يكون مولى هذه الجارية ...، فقالت: «كما يكون»،.. فلم أسمع بكلمة عامية أشنع ولا أدلّ على ما أرادت ولا أقصر من كلمتها هذه.» (١).

*«ويزعمون أنّ الحصاة التي إن غمرها الماء في الإناء كانت نصيب أحدهم، تُسمّى المَقْلَة. وهذا الحرف سمعته من البغداديين. و لم أسمعه من أصحابنا. وقد برِئتْ إليك منه.» (٢).

لم يعدّ الجاحظ هذا المستوى العاميّ خطأ مردودًا، بل عالجه في الغالب باعتباره انفتاحًا لغويًّا على التطور الاجتماعي والحضاري، مع شيوع مفاهيم الحداثة، وانحسار مفاهيم البداوة... فبعد أن كانت العربية لغة مُقتصِرة على العقيدة والحياة البدويّة الخشنة البسيطة، أخذت الحياة المُوسِرة بأساليب التّرَف العباسيَّة فانتقلت اللغة للتعبير عن مظاهر الحكم والعلم والدين والاجتماع والأدب والفكر.. وكان من نتائج ذلك أن هُجرت ألفاظ البداوة، وشاعت أساليب جديدة على الذّوق العربيّ، بسبب انتشار العُجْمة والعاميّة حتى طغى هذا المستوى على لغة

---

(١) الحيوان، ٤٧٩/٦.

(٢) البخلاء، ٢/ ١٨٧. (جاء في الشرح: في اللسان: المقلة: حصار القسم.. ومقل المقلة: ألقاها في الإناء. وفي حديث عليّ كرَّم الله وجهه: لم يبق فيها إلا جرعة كجرعة المقلة..فالكلمة عربية..).

التخاطب بين العامّة والخاصّة(1)..

٣- معالجة لنماذج من العاميّ في مؤلفات الجاحظ:

رأينا أن نصنّف ما استخرجناه من مستوى عاميّ إلى صنفين: صنف أول قام الجاحظ نفسه بشرحه خوفًا من استغلاقه على الأفهام بما أنّ هذا المستوى هو في الغالب من لغات خاصة لا يستعملها جميع متكلمي العربية، إنّما كان الجاحظ يستعمل لكلّ مقام مقاله المناسب له، ومن هنا جاءت هذه الألفاظ الخاصة بدلالات محدّدة ممّا اضطرّ الجاحظ إلى شرحها لتيسير فهمها على القارئ. وبعضه لم يشرحه وإنّما أشار إلى انتمائه العاميّ؛ وصنف ثان قائم على ما قدّرنا انتماءه إلى المستوى العاميّ من خلال مقاييس كعدم وجود الكلمة بنفس تلك الدلالة في المعاجم، ومراجع استعنّا بها منها: كتاب ألفاظ الحياة الاجتماعية للّقاني، وكتاب من معجم الجاحظ للسامرائي..

٣-١- ما شرحه الجاحظ:

١. اِست الأرض:* «قال: اجلس على است الأرض». قال سويد: ما كنت أحسب أنّ للأرض استًا» (2). اعتبرنا هذا التعليق (ما كنت أحسب أنّ للأرض استًا) دليلاً على «عامية» هذا الاستعمال.. فمع ما شاع في العربية قديمًا من إطلاق

(١) لمفهوم العامة عند الجاحظ دلالة خاصة تجعلها مكوّنًا مهمًّا من مكونات المجتمع. فهو يقول: «إذا سمعتموني أذكر العوام فإنّي لستُ أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة.. وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا، ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منّا..» (البيان، ١/١٣٧) .

(٢) البيان، ٢/ ٢١١.

أسماء بعض أعضاء الإنسان والحيوان على مسمّيات ماديّة أو معنوية على سبيل التجوّز، فإنّ الاستحداث يلقى دائمًا رفض المتشدّدين: فما الذي يمنع من أن نقول: «است الأرض» إذا كان الفصحاء قالوا: «رأس الجبل، وبطن الأرض، وقلب الفكرة وعين الحقيقة».. . والاست: من مادة (سَتَه) سَتْهًا: عظم عجزه، فهو أسته، وهي ستهاء، جمع سُتْه. والاِست: عجز الإنسان أي مؤخرته، فكأنّما الأرض جسم، وسطحها هو العجز منه. وقد أثار هذا التجوّز في نصّ الجاحظ استغراب (سويد)، فردّ: «ما كنت أحسب أنّ للأرض اِستًا» ممّا يدلّ على حداثة هذا المجاز في استعمال عربية ذلك العصر، بخلاف استعمالات أخرى شاعت و لم تعد تثير استغرابًا كبطن الوادي، أو كبد السماء...

٢. إسطيل: * «لم يبق في الأرض مخطرانيّ ولا مستعرض.. ولا إسطيل..» [١]. وقد عرّف الجاحظ (الإسطيل): «هو المتعامي: إن شاء أراك أنّه منخسف العينين، وإن شاء أراك أنّه لا يبصر، للخسف ولريح السبل..» ويقول السامرائي: «لم أجد للإسطيل ذكرًا في معجمات العربية» [٢]. أي إنّ الكلمة من مفردات عصر الجاحظ. وشرحه هو المعتدّ به.

٣. افتحوا سيوفكم: * «افتحوا سيوفكم، يريد سلّوا سيوفكم» [٣]. نعرف أنّ العرب الفصحاء لا يخلطون بين مجالات استعمال الأسماء والأفعال. وعلى حركة استخراج السيف من غمده يطلق العرب فعل (سلّ)، بينما من لا يدرك دقة هذا

(١) البخلاء، ١/٩٩.

(٢) من معجم الجاحظ، ص٢٠٥.

(٣) البيان، ٢/٢١٠.

الفعل ممّن لم يتمرّس بالعربية قد يفكر في فعل (فتح) باعتبار عملية فتح الغمد واستخراج السيف منه. وهذا دليل على أنّ جزءًا ممّا غيّر بنية العربية الدلالية وحتى الذهنية أي في مستوى المتصورات والمفاهيم راجع إلى إسقاط ما للعقليات الأعجمية من مناهج على منطق العربية في التفكير والتصوّر والتعبير.

٤. التِّكش: شرحها الجاحظ بقوله: *«إنّ التكش عندهم الذي لم يؤدّبه فتى ولم يخرجه.» ثم يوضح الطريقة: «وإنّ الشّطّار ليخلو أحدهم بالغلام فيقول له: لا يكون الغلام فتى أبدًا حتى يصادق فتى وإلا فهو تِكش.»[(١)]. ولا وجود للكلمة في المعاجم ممّا يجعل استعمالها ودلالتها خاصة بعصر الجاحظ وبيئته.

٥. الجرار: شرحها الجاحظ بقوله: * «عود يُعَرَّض في فم الفصيل أو يُشقُ به لسانه لئلا يرضع..»[(٢)]. ولا توجد هذه اللفظة بهذه الدلالة في المعاجم المتداولة. فالجاحظ هو من وضع مدلولها. يقول السامرائي: «ولم أجد الجرار بهذا المعنى أي (عود) في جميع معجمات العربية. غير أنّي وجدت (أجرّ) في (اللسان) : أن يشقّ لسان الفصيل لئلا يرضع. وعلى هذا يكون الجاحظ قد انفرد بذكر (الجرار) كما شرحه هو في (البيان)..».

٦. العَوَّاء: * «وهو الذي يسأل بين المغرب والعشاء. وربّما طرّب إن كان له صوت حسن وحلق شجيّ»[(٣)]. واللفظة من اصطلاحات المكدين زمن الجاحظ.

(١) الحيوان، ١٦٨/١.

(٢) البيان، ٢١٤/١.

(٣) نفسه، ٩٨/١.

٧. القرسيّ: * «الذي يعصِب ساقه وذراعه عصْبًا شديدًا، ويبيت على ذلك ليلة، فإذا تورّم واختنق الدم مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين وقطر عليه شيئًا من سمن وأطبق عليه خرقة، وكشف بعضه، فلا يشكّ من رآه أنّ به الأُكْلة أو بليّة شِبْه الأكلة..» [١]. وهي من مصطلحات المكدين التي انفرد الجاحظ بذكرها.

٨. القطّاع: * «الذي يعضّ على اللقمة، فيقطع نصفها، ثم يغمس النصف الآخر في الصّباغ.» [٢].. والكلمة من توليد العامة والمكدين للتعبير عن مظهر من مظاهر سوء المؤاكلة. وصيغة اسم الفاعل من (قطع) دليل عمّن يقطع اللقمة بفمه ثم يغمسها في الإدام.

٩. الكاغاني: عرّفه الجاحظ بقوله: * «الذي يتجنّن ويتصارع ويُزيد، حتى لا يُشكّ أنّه مجنون، لا دواء له، لشدّة ما يُنـزل بنفسه، وحتى يتعجّب من بقاء مثله على مثل علّته.» [٣]. قال السامرائي: «ولم يشر أحد من القدامى إلى أنّ الكلمة أعجمية أو معربة» [٤]. فربّما كانت من ابتداعات الجاحظ أو ممّا كان سائدًا في عامة عصره.

١٠. اللَّطّاع: * «وهو الذي يلطع إصبعه، ثم يعيدها في مرق القوم أو لبنهم أو سَويقهم وما أشبه ذلك.» [٥]. وقد وردت «يلطع» في البيان في قول الجاحظ:

(١) البيان، ١/٩٨.

(٢) نفسه، ١/ ١٣٩.

(٣) البخلاء، ١/٩٧.

(٤) من معجم الجاحظ، ص٣٢٦.

(٥) البخلاء، ١/ ١٣٩.

«كان رسول الله ﷺ يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويلبس العباء ويجالس المساكين ويمشي في الأسواق ويتوسّد يده ويُقِصّ من نفسه ويلطع أصابعَه..» [1].

وهذا مظهر آخر من مظاهر المؤاكلة التي اهتمّ الجاحظ بوصف عيوبها عند البخلاء وفي طبقات الفقراء والمكدين عامة.

١١. المُبَلْعم: * «الذي يأخذ حروف الرغيف أو يغمز ظهر التمرة بإبهامه، ليحملا له من الزبد والسّمن ومن اللبأ واللبن، ومن البيض النيمبرشت أكثر» [2]. والمبلعِم: صفة مشتقة من (البلعوم) جاء في القاموس المحيط: «البلعم والبلعوم: مجرى الطعام في الحلق» ولعلّ المقصود بهذه الصيغة البَلوع والبلاّعة أي واسع البلع.

١٢. المخطراني: * شرحها الجاحظ بقوله: «الذي يأتيك في زيّ ناسك، ويريك أنّ (بابك) قد قوّر لسانه من أصله لأنّه كان مؤذّنًا هناك، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب فلا ترى له لسانًا البتة. ولسانه في الحقيقة كلسان الثور. وأنا أحد من خدع بذلك. ولا بدّ للمخطراني أن يكون معه واحد يعبّر عنه أو لوْح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته.» [3].

١٣. المَدّاد: * شرحها الجاحظ بقوله: «الذي ربما عضّ على العَصَبَة التي لم تنضج، وهو يمدّها بفيه، ويده توتّرها له، فربّما قطعها بنترة، فيكون لها انتضاح على ثوب المؤاكل..أو هو الذي إذا أكل مع أصحابه الرطب أو التمر أو الهريسة..

---

(١) البيان، ٣٠/٢.

(٢) البخلاء، ١/ ١٣٨؛ وانظر: اللقاني، ٦٥.

(٣) البخلاء، ٩٧/١. جاء في شرح المحققين: (بابك) : اسم ملك فارسيّ، قوّر لسانه تهكمًا لأنّه كان وثنيًّا لا يحبّ أن يسمع الأذان.

فأتى على ما بين يديه مدّ ما بين أيديهم إليه.» [1]. وهذا مظهر آخر من مظاهر عيوب المؤاكلة التي ألحّ الجاحظ على وصفها وتمييزها بمصطلحات دقيقة. فالمدّاد: صيغة مبالغة من (مدّ) أي مدّ يده لرغيف غيره.

١٤. المِرْسال: * شرحها الجاحظ بقوله: «.. إذا وضع في فيه لقمة هريسة أو ثريدة أو حَيْسَة أو أروّة، أرسلها إلى جوف حلقه إرسالاً..» [2]. يقول السامرائي: «هذا من المولد الذي ولدته العامة، ولعل الجاحظ هو الذي ولّده. فليس في كتب اللغة شيء من هذا. إنّما المرسال: الناقة السهلة السير..» [3].

١٥. المَزيدي: * «المزيدي: الذي يدور ومعه الدريْهمات ويقول: هذه دراهم قد جمعت في ثمن قطيفة، فزيدوني فيها رحمكم الله. وربّما احتمل صبيًّا على أنّه لقيط. وربما احتمل في الكفن» [4]. المزيديّ نسبة إلى المزيد، اسم فاعل من (أزاد) بمعنى أعطاه زادًا. وهو ضرب من ضروب احتيال المشعوذين لاستزادة الأموال. ولهذا قام المصطلح على الجذر (زاد).

١٦. المُستَعرِض: * «الذي يعارضك، وهو ذو هيئة، وفي ثياب صالحة. وكأنّه قد هاب من الحياء، ويخاف أن يراه معرفة. ثم يعترضك اعتراضًا، ويكلمك خفيًّا» [5]. ويعلق المحقق: «واللفظة من اصطلاحات المكدين ومشتقة من مادة (ع ر

(١) البخلاء، ١/ ١٣٩.

(٢) البخلاء، ١/١٣٧.

(٣) من معجم الجاحظ، ص١٦٧.

(٤) البخلاء، ١/ ٩٩.

(٥) نفسه، ١/٩٩.

ض) ومعناها في هذا السياق هو من يقتل الناس دون أن يميّز بين مسلم صغير أو كبير. ولا وجود لهذه الدلالة في اشتقاقات الكلمة في المعاجم».. كما يرى السامرائي أنّ للكلمة دلالات أخرى أقدم استعملها الخوارج واللصوص.. (1).

١٧. المُشعِّب: * عرّفه الجاحظ بقوله: «هو الذي يحتال للصبيّ حين يولد ، بأن يُعميَه أو يجعله أعسم أو أعضد ليسأل الناسَ به أهلُه. وربّما جاءت به أمه أو أبوه، ليتولى ذلك منه بالغرم الثقيل. لأنّه يصير حينئذ عُقدة وغَلَّة: فإما أن يكتسبا به، وإما أن يكرياه بكراء معلوم. وربما أكروا أولادهم ممّن يمضي إلى إفريقية، فيسأل بهم الطريق أجمع، بالمال العظيم. فإن كان ثقة مليئًا وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً.» (2). يبدو (المشعب) بهذه الدلالة الخاصة من ظواهر التكدية في هذا العصر، أما المصطلح فلعلّه من مولدات الجاحظ.

١٨. المُقدّس: * عرفه الجاحظ بقوله: «وهو الذي يقف على الميّت يسأل في كفنه، ويقف في طريق مكة على الحمار الميّت، فيدّعي أنّه كان له.» ويزعم أنه قد أحصر (عيق عن المضيّ في سفره بسبب موت الحمار)، وقد تعلم لغة الخراسانية، واليمانية والإفريقية، وتعرف تلك المدن والسكك والرجال. وهو متى شاء كان من إفريقية ، ومتى شاء كان من أهل فرغانة، ومتى شاء كان من أي مخاليف اليمن شاء. (والمقدس في المعاجم: الراهب) (3). ولعلّ (المقدس) بهذا المعنى ضرب من اللغة الخاصة التي لم تحفل بها المعاجم، لكونها من صنع العامة الذين جدّ الجاحظ في

(١) من معجم الجاحظ، ص٢٩٣.

(٢) نفسه، ٩٨/١.

(٣) البخلاء، ٩٩/١.

وصف لغتهم.

١٩. المَقْلة: * «ويزعمون أنّ الحصاة التي إن غمرها الماء في الإناء كانت نصيب أحدهم، تُسمّى المَقْلَة. وهذا الحرف سمعته من البغداديين. ولم أسمعه من أصحابنا. وقد برِئتْ إليك منه.» [١]. لكن جاء في اللسان: «..ومقل المقلة: ألقاها في الإناء. وفي حديث عليّ كرَّم الله وجهه: لم يبق فيها إلا جرعة كجرعة المقلة.. فالكلمة عربية..».

٢٠. الواغل: * «الذي يدخل على القوم في طعامهم من غير أن يدعوه»[٢]. وجاء في الوسيط: «وغل في الشيء: أمعن.. وعلى القوم في شرابهم وغْلاً، ووغْلانًا ووُغولاً: دخل عليهم فشرب معهم، من غير أن يدعى إليه». ولم يبق من هذه الدلالة إلا التوغّل في الشيء بمعنى الذهاب والإمعان.

٢١. حنطة: * «وكان واصل إذا أراد أن يذكر البُرّ قال: القمح أو الحنطة، والحنطة لغة كوفية، والقمح لغة شامية. وهذا وهو يعلم أنّ لغة من قال: برّ، أفصح من لغة من قال: قمح أو حنطة..» [٣]. تجنّب واصل استعمال (الراء) في كلمة (برّ) وهي الفصيحة، أوقعه في لغة غير فصيحة، وأهمية هذه الملاحظة تكمن في تأكيد الجاحظ أنّ (الحنطة) كوفية، وهذا معناه انتماؤها في الغالب إلى المستوى العامي.

(١) البخلاء، ٢/ ١٨٧.

(٢) نفسه، ١٢٣/١؛ وانظر: شرح المحققين.

(٣) البيان، ١٧/١.

٢٢. القدرة.. والحُزْقة: * «هو السيِّئ الخلق البخيل. وعلى هذا فالكلمة (الحَزَق) بفتحتين من الكلم الذي انفرد به الجاحظ» (١).

٢٣. دفّاع: * «الذي إذا وقع في القصعة عظم، فصار مما يليه، نحّاه بلقمة من الخبز حتى تصير مكانه قطعة من لحم. وهو كأنه يطلب بلقمته تشريب المرق، دون إراغة اللحم.» (٢). وهذه الدلالة خاصة بالسياق الذي يذكره الجاحظ وليس في دلالة الجذر ولا في صيغة المبالغة ما يوحي بهذه الدلالة.

٢٤. دلّاك: * «الذي لا يجيد تنقية يديه بالأشنان، ويجيدها بالمنديل» (٣). وهي صيغة مبالغة من (دلك)، وفي الوسيط: (الدلّاك): من يدلك الجسد للتمريض أو التنظيف. لكنّ الدلالة خصوصية لأنّها متعلقة بنوع من المؤاكلين الذين يعمدون إلى دلك أيديهم بالمنديل لتنظيفها بدل غسلها بالماء، وهو الأنظف.

٢٥. صرع الشيطان: * «.. أما والله لو أنّي جنية لصرعته في اليوم ألفين. وهذا يدلّ على أنّ صرع الشيطان للإنسان ليس هو عند العوام إلا على جهة ما يعرفون من الجماع..» (٤).

٢٦. الكعبيّ: * «الكعبيّ: أُضيف إلى أبي كعب الموصلي، وكان عريفهم بعد خالويه سنةً على ماء.» (٥). ويقصد الجاحظ بقوله: (عريفهم) أي رئيس

(١) من معجم الجاحظ، ص٩٩.

(٢) البخلاء، ١/ ١٣٩.

(٣) نفسه، ١/ ١٣٧.

(٤) الحيوان، ٦/٤٧٨.

(٥) البخلاء: ١/١٠٠. وانظر شرح المحققين.

المكدين من شيعته.

٢٧. لَكَّام: * «هو الذي في فيه اللقمة ثم يلكمها بأخرى قبل إجادة مضغها أو ابتلاعها.» (١). لا شكّ في أنّ الكلمة من ألفاظ العامة بسبب دلالتها المتّصلة بحياة المكدين والمتسولين وطرق مؤاكلتهم الغريبة التي ابتدعوا فيها ألوان الحيلة للفوز ببغيتهم وهي أكبر قدر الطعام.

٢٨. متّ قبلك: * «أنا لا أقول: متّ قبلك، لأنّي إذا قلت: متّ قبلك مات هو بعدي. ولكن أقول: متّ بدلك» (٢). المستوى العامي قد يظهر في مستوى التركيب أيضًا. وهذا التعبير يعدّه الجاحظ عاميًّا لضعفه وأدائه المعنى على غير وجهه الأصليّ. ولذلك وجب تصويبه.

٢٩. محلقم: * شرحها الجاحظ بقوله: «الذي يتكلّم واللقمة قد بلغت حلقومه.» (٣) فاشتقّ (محلقم) اسم مفعول من (حلقم)، وكان من المفروض أن تعبّر هذه الصيغة عمّن أصيب حلقومه، لكنّها عبّرت في استعمال العامة على من يتكلم واللقمة في حلقومه. وهذه صفات شديدة الاتصال بحياة هذه الطبقات المعدمة التي تظهر في سلوكها عند الأكل شذوذًا دالاًّ على عيوب وفساد وانحراف ربما مأتاه تردّي أوضاعهم وشدّة عوزهم وسغبهم..

٣٠. مُحوّل: * شرحها الجاحظ بقوله: «هو الذي إذا رأى كثرة النوى بين

---

(١) البخلاء، ١/ ١٣٧.

(٢) البيان، ٢/ ٢١٥.

(٣) البخلاء، ١/ ١٣٨.

يديه احتال له حتى يخلطه بنوى صاحبه.» [1]. اشتقاق صيغة (مفعِّل) اسم فاعل من (حوّل) ولكن لمجرّد التعبير عن حالة خاصة في سوء المؤاكلة، وهي تحويل ما بين يدي الآكل من نوى كثير (وهو علامة على كثرة الأكل) إلى نوى صاحبه حتى يخلطه به فيخفي حجم ما أكل.

٣١. مُخضّر: * شرحها الجاحظ بقوله: «الذي يدلك يده بالأشنان من الغَمَر والوَدك، حتى إذا اخضرّ واسودّ من الدّرَن دلك به شفته.» [2].

٣٢. مُسَوِّغ: * «الذي يعظّم اللّقم، فلا يزال قد غصّ، ولا يزال يسيغه بالماء»[3]. وفي الوسيط: «ساغ الشراب والطعام في الحلق: سهل انحداره ومدخله فيه». لكنّ المقصود هنا المبالغة لدى هذا الضرب من المؤاكلين الذين يتوخّون السرعة ومقدرة السّوغ لديهم للاستئثار بكلّ الأكل.

٣٣. مَصّاص: * «الذي يمصّ جوف قصبة العظم، بعد أن استخرج مخّه واستأثر به دون أصحابه.» [4]. صيغة مبالغة (فعّال) من (مصّ)، والدلالة منطبقة على معنى الفعل وصيغة البناء.

٣٤. مُغربل: * «الذي يأخذ وعاء الملح ، فيديره إدارة الغربال ليجمع أبازيره يستأثر به دون أصحابه لا يبالي أن يدع ملحهم بلا أبزار» [5]، صيغة اسم فاعل

(١) البخلاء، ١/ ١٣٩.

(٢) نفسه، ١/ ١٢٢.

(٣) نفسه، ١ / ١٣٨.

(٤) نفسه، ١/ ١٣٧.

(٥) نفسه، ١/ ١٢٢.

(مفعلل) من (فعلل= غربل). والدلالة منطبقة على معنى الفعل ودلالة البناء.

٣٥. مُقوّر: «الذي يقوّر الجراذق، ويستأثر بالأوساط ويدع لأصحابه الحروف.» [١]. جاء في الوسيط: «قار الشيءَ: خرقه من وسطه خرقًا مستديرًا»، فالمقوّر: هو من اتّصف بهذا الفعل الرديء في المؤاكلة، ولعلّ المقصود بالاستحواذ على أفضل ما في الطعام إفساد نظام الطعام نفسه، وتعطيل شهية المؤاكلين فينفرد بالغنم وحده. وهذه ظاهرة أخرى من عيوب المؤاكلة كما وصفها الجاحظ تكشف عمّا كان يسود المجتمع الفقير خاصة من جوع ونهم إلى الأكل تنتفي أمامه جميع القيم والقواعد.

٣٦. نشّاف: * «الذي يأخذ حرف الجرذقة فيفتحه ثم يغمسه في رأس القدر ويشرّبه الدسم يستأثر بذلك دون أصحابه.» [٢]. والنّشّاف صيغة مبالغة من (نشف)، وفي الوسيط: «نشف الشيء: جفّفه»، ولعلّ هذا المصطلح الجاحظي يأخذ دلالته من هذه الخاصية، فهذا المؤاكل يعمد إلى تنشيف دسم القدر ليستأثر به لنفسه، فأطلق عليه النّشّاف.

٣٧. نَشَّال: * «الذي يتناول من القدر، ويأكل قبل أن تنـزل القدر ويتتامّ القوم..» [٣]. ومن معاني نشل الشيء: أسرع نزعه. ويقول السامرائي: «ولم يشر أحد من أهل اللغة والأدب إلا صاحب «القاموس» الذي أورد ما شاع في عصره

(١) البخلاء، ١/ ١٢٢؛ وانظر: اللقاني، ص٦٥.

(٢) نفسه، ١ / ١٣٦.

(٣) نفسه، ١/ ١٣٦.

من اللغة.. »[1] .

٣٨. نفّاض: * «الذي إذا فرغ من غسل يديه في الطست نفض يديه من الماء فنضح على أصحابه»[2]. صيغة مبالغة (فعّال= نفّاض) من (نفض) للتعبير عن سوء المؤاكلة، وهو هنا بنفض اليدين بعد الاغتسال على الناس وعلى مأكولاتهم.

٣٩. نَهّاش: * «وهو الذي ينهش اللحم كما ينهش السبع.»[3]. صيغة المبالغة (فعّال= نهّاش) من (نَهَشَ) تنطبق على وصف مظهر آخر من مظاهر فساد المؤاكلة عند هذه الفئة من المتسولين والمكدين، حتى خرجت به من صفة الإنسان إلى الحيوان المفترس.

٣-٢- ما لم يشرحه الجاحظ، وبحثنا عن دلالته في مصادر أخرى:

١. إشْكَنّك: * «وما من إشْكَنّك فهو مجموع للبناء»[4]. يقول السامرائي: «(إشكنّك) من الكلم الغريب الذي لا نجده في فصيح العربية، وليس هو من المعرب. فقد خلت كتب المعرب منه. غير أنّنا نستطيع أن نقطع أنّ هذه الكلمة من الكلمات العراقية.. فهي تعني مجموع بقايا الحجارة المكسرة التي تكثر عند البناء.. ومازالت الكلمة معروفة متداولة عند البنائين وغيرهم في العراق.. وهذا دليل على أنّ الجاحظ يأخذ الكلمة إن جدّت الحاجة إليها بصرف النظر عن كونها غير

(١) من معجم الجاحظ، ص١١٦.

(٢) البخلاء، ١/ ١٣٧.

(٣) نفسه، ١/ ١٣٩.

(٤) البخلاء، ٢/٢٩.

فصيحة، ذلك أنها من الكلم الخاص الذي قد تفتقر إليه العربية الفصيحة» [1].

٢. البلالية: * «ولنا المواجأة في الأزقة ، والصبر على قتال أهل السجون، فسل عن ذلك الخليدية والكتيفية والبلالية والخربية» [2]. يبدو أنّ هذه الكلمة من أسماء طوائف من أهل الشغب: فالبلالية طائفة من المقاتلة بالبصرة منذ بدء ثورة الزنج..[3] . وفي المعاجم لا وجود لهذه المادة ولعلّ أقرب ما يشير إليها قول اللسان في مادة (أبلّ): «الأبلّ: الشديد الخصومة والجدل..».

٣. تدنيق: * «وكذلك كان في إمساكه وفي بخله وتدنيقه وفي نفاقه»[4]. والتدنيق والمداقنة كناية عن البخل.. اشتقّ هذا المصدر من اسم العلم (الدانق) وهو سدس الدينار. فالتدنيق حينئذ اشتقاق مصدر يفيد الحرص على عدم إنفاق شيء من (الدانق) وهو رمز جمع المال ومنعه. وما يلفت الانتباه هنا هو قياسية الاشتقاق من أسماء الأعلام لتوليد مشتقات دالة على مفاهيم محدثة. وهذا دليل على قدم الظاهرة في العربية وهو ما ينفيه المتشددون إلى اليوم.

٤. التشييخ: * «ويصرن (أي النساء) إلى حال التشييخ»[5]. يقول السامرائي: «هذا مصدر لا نعرفه في العربية المعاصرة، بل نعرفه في العامية العراقية. يقال مثلاً

(١) من معجم الجاحظ، ص١٩.

(٢) الرسائل، ١/٢٧.

(٣) انظر: اللقاني، ص٣٤٧.

(٤) البخلاء، ١/٤٣.

(٥) الحيوان، ٣/٢٩١.

للخسّ: (مشيّخ) إذا فات أوانه وأصبح لا يؤكل» [1].

٥. حارّ /بارد: * «.. ولو ولّد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ثم أضافها إلى صالح بن حنين... لعادت باردة..» [2]. إنّ وصف النادرة بالباردة أو الحارة شائع في المستوى العام.. فنقول : «نكتة باردة أو ساخنة».

٦. حزق: «فشكت إليها الحزق» [3]. والحَزَق: الشحّ. ويقول السامرائي: «لم أجد في كتب اللغة إلا قولهم: الحَزِق: الضيق».

٧. الخربية: * «ولنا المواجأة في الأزقة ، والصبر على قتال أهل السجون، فسل عن ذلك الخليدية والكتيفية والبلالية والخربية» [4]. يرى الحاجري أنّ الخربية طائفة من الشيعة كانت تشتهر بأنّها لا تحتقر السرقة والنهب [5]. ويذكر الدارسون أنّ البصرة قد قامت في صدر الإسلام أيام خلافة عمر بن الخطاب على ميناء فارسيّ صغير يعرف (بالخريبة). (ياسين، ٤٦).

٨. الخليدية : * «.. فسل عن ذلك الخليدية والكتيفية والبلالية والخربية»[6]. ويرى الحاجري أنّ الخليدية قد تكون نسبة إلى (محلة الخلد) في بغداد، وهي التي

---

(١) من معجم الجاحظ، ص٢٣٥.

(٢) البخلاء، ٣١/١.

(٣) الحيوان، ٢٨٩/٣.

(٤) الرسائل، ٢٧/١.

(٥) انظر : اللقاني، ص٣٤٧.

(٦) الرسائل، ٢٧/١.

حول قصر الخلد.. [1]. وقصر الخلد بناه المنصور ببغداد.

٩. دَرْبَخ: * «أنّه كان يدربخ للبغال والحمير» [2]. المعنى في كلام الجاحظ: (مطاوعتها فيما تطلب). وفي المعاجم: الدربخة: الإصغاء والتذلل. ويقول السامرائي: «إنّها وثيقة الصلة بـ .(درخ) التي تؤدي المعنى نفسه في العامية..» [3].

١٠. دقّ: * «والثياب لا بدّ لها من دقّ» [4]. المقصود بالدقّ هنا: ضرب الثوب بعصا من خشب لإزالة ما علق به من أوساخ شديدة. وما زالت هذه الظاهرة إلى الآن تعتمد في غسل الصوف خاصة.

١١. الرّاشن: * ذكر المحققان: «الراشن: هو الذي يتعهّد مواقيت طعام القوم، وهو الذي يقال له الطفيلي.» [5]. و(الرّاشن) صيغة مبالغة من (رشن)، ومعناه في الوسيط: «المتشمّم للطعام المتحيّن له.».

١٢. الرّقّ: * «والضفادع والرّقّ والسّلاحف» [6]. الرق: هو العظيم من السلاحف. ويقول السامرائي: «وما زالت الكلمة في العراقية الدارجة بلفظ التأنيث (رقّة). ولا نعرفها في الفصيحة المعاصرة .» [7].

(١) انظر : اللقاني، ص٣٤٧.

(٢) الحيوان، ٣/٢٠٤.

(٣) من معجم الجاحظ، ص١٤٥.

(٤) نفسه، ٢/٧٠.

(٥) من معجم الجاحظ، ١/١٢٣.

(٦) الحيوان، ٢/ ١٢٥.

(٧) من معجم الجاحظ، ص١٨٣.

١٣. الزواقيل: * «سَلْ عنّي صعاليك الجبل وزواقيل الشام» [١]. والزواقيل عند الفيروزآبادي: اللصوص. ويبدو أنّ هذا الاسم كان معروفًا بالشام، وذكره الطبري في حوادث ١٩٦ في الشام [٢].

١٤. السُّكان: * «وكانت فخذه أغلظ من هذا السُّكّان» [٣]. جاء في الوسيط: «السُّكَّان: ما تُسكّن به السفينة وتُمنع من الحركة والاضطراب، وتُعدّل به في سيرها.» والمصطلح بني على صيغة (فُعّال) لإفادة الآلية من دلالة الفعل (سكّن).

١٥. الضيفن: * «أنا والله أحتمل الضيف والضيفن، ولا أحتمل اللُّعْموظ، ولا الجَرْدَبيل. والواغل أهون عليّ من الرّاشن» [٤]. وذكر الشارحان أنّ الضيفن: ضيف الضيف.

١٦. العين المالحة: * «قد أخبرتك أنّ عينك مالحة، وأنّك تصيبني بعين» [٥]. والمقصود بالعين المالحة: الشريرة التي تجلب الأذى لمن تقع عليه. وهي من العبارات العامية التي لا تزال قائمة في الاستعمال العامي المعاصر.

١٧. القير: * «واسودّ صاحب السفينة حتى صار أشدّ اسودادًا من هذا

(١) نفسه، ١/٩٤.

(٢) من معجم الجاحظ، ص ١٩٢.

(٣) البيان، ٢/١٧٦.

(٤) البخلاء، ١/١٢٣.

(٥) البخلاء، ٢/٨٢.

القير»[1]. جاء في الوسيط: القير والقار: الزّفت. وهو مادة سوداء صلبة تسيلها السخونة، تتخلّف من تقطير الموادّ القطرانية.

١٨. الكتيفية : * «يبدو أنّ هذه الكلمة من أسماء طوائف من أهل الشغب. الكتيفية: الذين شدّت أكتافهم» [2]. ولا وجود لهذه الكلمة في المعاجم وإنّما نجد في الوسيط: «الكتيفة: الجماعة من الناس»، وربما منها خصصت للجماعة من أهل الشغب؛ ففي اللسان: «الكتيفة: الحقد والعداوة».

١٩. الكَوْثلة: * «.. فأقعى على عجزه، فقال الشيخ الملاح: لا إله إلا الله، ما أحسن ما جلس على كوثله.» [3]. والكوثل، وقد تشدّد اللام: مؤخر السفينة أو (سكانها).

٢٠. اللُّعْمُوظ: * «أنا والله أحتمل الضيف والضيفن، ولا أحتمل اللُّعموظ ولا الجردبيل..» [4]. جاء في الوسيط: «اللعموظ واللعموظة: اللّعمظ، والمتطفل، والذي يخدم بطعام بطنه، جمع لعاميظ. نلاحظ أنّ هذه الكلمة قد اختفت تمامًا من الاستعمال لتسيطر بدلها كلمة طفيليّ، وهي حسب الجاحظ مولدة أي أدنى فصاحة من اللعموظ.

٢١. المُردِيّ: * «.. وقع علينا اللّصوص، فأوّل رجل داخل دخل علينا

---

(١) البيان، ١٧٦/٢.

(٢) البخلاء، ٩٥/١. وانظر: اللقاني، ص٣٤٧.

(٣) البيان، ١٧٦/٢.

(٤) البخلاء، ١٢٣/١.

السفينة كان في طول هذا المرديّ» [1] . خشبة يدفع بها الملاح السفينة. ذكر هارون أنّ بعض المعاجم ترتب (المردي) في (ردى) وحقها ترتب في (مرد). فقد قالوا : إنّ (المرد): دفع الملاح السفينة بـ (المردي).

٢٢. المُزَمّلة: * «بلغني أنّ عندك مزّمّلة، ويومنا يوم حارّ، فابعث إليّ بشربة ماء..» . المزملة: آنية يبرد فيها الماء شبه الخابية، تستعمل بأرض العراق، وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة.. [2]

٢٣. مَشُوم: * وقالت جحشويه في شعر:

تواعدني لتنكحني ثلاثًا ولكن يا مَشُوم بأيّ أيْر [3].

وفي الوسيط: (مشوم) صيغة مخفّفة عن (مشؤوم). يقال: شأمهم: جرّ عليهم الشّؤم، فهو مشؤوم. ويقال: شأم عليهم.

٢٤. مُصحَّح: * «كان على ربض الشاذروان شيخ له من أهل خراسان، وكان مُصّحَّحًا بعيدًا من الفساد.» [4]. استعمل اسم المفعول (مصحّح) بمعنى سليم من العيب. والشائع استعمال صيغة (فعيل= أي صحيح).

٢٥. المطامير: * «رهبان الزنادقة سيّاحون، كأنّهم جعلوا السياحة بدل تعلق النّسطوري في المطامير.» [5]. والمطامير: «أماكن تهيّأ تحت الأرض.. يطمر فيها

(١) البيان، ١٧٦/٢.

(٢) البخلاء، ٢٧/٢.

(٣) الحيوان، ٤٧٩/٦.

(٤) البخلاء، ٥٦/١.

(٥) الحيوان، ٤٥٨/٤.

الطعام. أي يخبّأ فيها. والمطمورة أيضًا السجن تحت الأرض. وهذا ما يتّفق مع كلام الجاحظ..» . وهذه دلالة خاصة بالعصر العباسي، عندما تحوّلت المطمورة من خزن الحبوب إلى سجن.

٢٦. المُكْدي: * «صاحب الكداء»(١). ودلالة (المُكدي) في بخلاء الجاحظ دلالة خاصة تجمع بين التسوّل وضروب الاحتيال على الرزق والنفاق للإيقاع بالضحايا في شراكه. وقد بيّن الجاحظ هذه الصلة في قوله: «قالوا: وإنّك لتعرف المكدين؟ قال: وكيف لا أعرفهم؟ لم يبق مخطرانيّ، .. إلا وقد كان تحت يدي. ولقد أكلتُ الزكوريّ ثلاثين سنة. ولم يبق في الأرض كعبيّ ولا مكد إلا وقد أخذت العِرافة عليه..» (٢).

٢٧. المِنْحاز: * يقول الجاحظ: «ويدع دقَّ الثوب، والدقَّ في الهاون والمنحاز.» (٣). والمنحاز: هو الهاون، ويسمّى المنحاز والمهراس (والمهراس من العامية العراقية). والمنحاز في الأصل: داء يصيب الإبل في رئتها فتسعل منه شديدًا. جاء في الوسيط: «نحز الشيء: دقّه وسحقه في المنحاز،.. والمنحاز: ما يُدقّ فيه كالهاون».

٢٨. نَحْفَش: * «ونحفش لأنفسنا قليلاً» (٤). ونحفش هنا بمعنى: نجمع. يقول

(١) الحيوان، ١/ ١٠٠.

(٢) نفسه، ١/٩٦.

(٣) نفسه، ٨٤.

(٤) نفسه، ١٤٩.

السامرائي: «لم أجد في المعاجم ما يفيد هذا المعنى الذي أراده الجاحظ»[1].

٢٩. النُّشْرة: * يقول الجاحظ: «وكذلك يقولون في النُّشرة وحلّ العقد»[2]. والنُّشرة: رقية يعالج بها المجنون والمريض. والكلمة حسب إبراهيم السامرائي مازالت معروفة لدى العامة «نَشرة»، بفتح النون. وهي ما يقرؤه أحد الزهاد على رأس مريض.. ويقولون في العامية العراقية: «نشَر له»[3].

(١) من معجم الجاحظ، ص٤٠٤.

(٢) الحيوان، ٤/١٨٥.

(٣) من معجم الجاحظ، ص٤٠٣.

٤- خ اتم . ـة:

لقد أصبح المجتمع العربيّ يضمّ أشتاتًا من الأعراق متنوّعة الخصائص ولكنّها كانت جميعًا منضوية تحت الإسلام مدفوعة إلى المشاركة في الحياة الاجتماعية والعسكرية وحتى السياسية [1].. وكان ذلك سببًا في ظهور لغة عمليّة لتيسير التّفاهم بين العرب وغير العرب من أفراد المجتمع الإسلامي. وقد تأثّر العرب أنفسهم بهذا المستوى من المقول، حتى انتشر بين الأعراب والبدو، فانتفت عنهم - في نظر اللغويين- صفة الفصاحة، أواخر القرن الرّابع الهجريّ.

وكانت هذه الخصائص في الحقيقة أوّل مظاهر نشأة العاميات العربية. وقد حفظت لنا منها مقدارًا كبيرًا المؤلّفاتُ المعروفة بكتب لحن العامة، وهي في مجموعها قائمة على خصائص وسمات عامة يجوز لنا أن نعتبرها مظاهر عامة لهذا التّطوّر، فقد عمد النّحاة ابتداءً من القرن الثاني الهجريّ إلى جمع ما شاع على ألسنة مستعملي العربية من كلام فيه مخالفة لسنن الفصاحة، فوصفوه بلحن العامة، أو ما نعنيه في بحثنا بالعاميّ. فاعتبروه صورًا فاسدة من الاستعمال اللغوي.. [2].

لقد كانت هذه الحركة حريصة على حماية الفصحى، فاعتبرت ما خالف المستوى الفصيح لحنًا وأشارت إليه في الغالب تحت باب: «ما وضعته العامة في غير موضعه»، وقد أوردت نماذج كثيرة خالفت فيها العربية استعمال العربية الفصيحة المشتركة.

---

(١) فك: العربية، ص١٨-٢١.

(٢) voir, Pellat: Lahn Alamma Encyclopèdie de L'Islam, 5/609-614. Paris 1986

والحقيقة أن القرآن ومن بعده العلوم الإسلامية قد دلّت على أنّ التطور ضرورة ماسّة تلزم كل نشاط إنسانيّ ينشد التوسّع الفكري والمعرفي، فالتّطور الذي شهدته العربية في مستوى المكتوب والمقول، يثبت أنّه امتداد لما حدث في العربية في عصر الاحتجاج نفسه، ويؤكد أنّ العربية لغة متطورة طيلة مراحلها الأولى واستمرت خلال مراحلها التالية لاتتوقف عن التحول المواكب لحاجات اللغة والمجتمع، رغم حركة التصحيح اللغوية التي اقتصرت على الاعتراف بجزئه الأول الواقع داخل عصور الاحتجاج، ورفضت ما عدا ذلك مما أنتجه مستعملو العربية بطرق النموّ نفسها التي نمت بها العربية المعتدّ بفصاحتها.

ولذلك لا نعثر في المعجم العربي على صدى مناسب لكلّ ذلك، حتّى ليبدو دوره أحيانًا متأخرًا عن النشاط الفعلي للغة، فلا يبدو شريكًا فيه. وإذا كانت حياة اللغة هي التجديد، فإنّ هاجس المعجم هو القديم. وكان من نتائج كلّ ذلك أن بقي المعجم يدور داخل الأرصدة اللغوية القديمة، ولا يكترث بالمستحدثات اللغوية المولّدة. مع أنّ التوليد قام بدور أساسيّ في تطوير العربية، وخاصة في وضع مصطلحاتها العلمية. لكنّ اللغويين رأوا فيه أثرًا من آثار الثقافة الدّخيلة، فلم يهتمّوا بمظاهر التطوّر فيه، و لم تجد مصطلحاته طريقها إلى المعجم العربي.

لذلك بدت لنا تجربة الجاحظ طريفة لمخالفتها السائد، واحتفائها بالمستويات اللغوية المختلفة وخاصة العاميّ منها باعتباره مظهر الحياة الفعليّ. فإنّ العربية إلى اليوم تحتاج إلى درس تجاربها التاريخية الثرية درسًا علميًّا قصد إثبات حقيقة التطور فيها، وبناء تصوّر منهجيّ يستفيد من تجارب السابقين، ويكشف أنّ ما تحقّق في

عصور النهضة لم يكن إلا بسبب هذا الوعي بترابط اللغة مع حقيقة المتكلم، وهو ما يؤول إلى إحداث تطابق بين نموّ اللغة ونموّ معجمها. ولا شكّ أنّ هذا الأمر قد تأكّد في العصر الحديث خاصة، حين أصبحت العربية لغة الصحافة والنّشر والإشهار ولا شيء يوقف تطورها السّريع، وما تتعرّض له في سبيل ذلك من «عدول»، في المنطوق وفي المكتوب.

* * *

الفصل الرابع

الاقتراض

١- الحاجة إلى الاقتراض:

من بين الوحدات المعجمية المكوِّنة لرصيد لغة ما، وحدات مُقْتَرَضَة من لغات أخرى. ويتمثّل ذلك في أخذ لغة مورد وحداتٍ معجميةً من لغة مصدر. وهذه ظاهرة لسانيّة ملازمة لنشاط اللغات عامةً، لا تخلو منها لغة من اللغات الحيّة. ويُطلق عليها اليوم في اللسانيات الحديثة مصطلح "الاقتراض". ويُثبت تاريخ العربية المعلوم أنّها عرفت ألفاظًا أجنبيَّة في عصور الاحتجاج نفسها، أي في الشِّعر الجاهليّ، وفي القرآن، وفي النّصوص الإسلاميّة الأولى، وتواصل ظهورها على امتداد تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في المظهرين العامِّ والاصطلاحيِّ. فلم تَخْلُ مرحلة من مراحل العربية من الاقتراض، لكنّ أشدّها حاجةً إليه مرحلة عصر النّهضة العباسيَّة، أي أثناء تداخل الرّوافد الإسلامية على اختلاف مكّوناتها في منهل ثقافيّ واحد هو اللغة العربية، وخاصة مع ازدهار حركتي الترجمة ثم الإنشاء العلميّ...

إنّ ثمّة عوامل ساعدت على انتشار الأعجميّ في هذه المرحلة الإسلامية المبكّرة أهمّها التطوّر الحضاري الذي أصاب جميع مظاهر الحياة العربية بعد ظهور الإسلام فكريًّا وماديًّا، فقد دخلت مفاهيم جديدة تتّصل بحياة الناس اليومية، فاضطرّوا إلى هجر الألفاظ القديمة التي لم تعد تناسب الفكر الجديد، يضاف إلى هذا أنّ التّعامل مع الأمم الأخرى التي تخالفهم طبيعةً وحضارةً جعلهم يدخلون ألفاظًا ليس لها بديل في حضارتهم ويستغنون عن أخرى لم تعد الحاجة إليها قائمةً لتغيّر طبيعة الحياة من مسْكن ومأكل، ونظام اجتماعيّ، وحياة اقتصادية، وفكرية.. كما أنّهم حمّلوا بعض

ألفاظ اللغات الجديدة دلالات ليس لها في الأصل، فهي ألفاظ مقترضة أخضعها الاستعمال لخصوصيات معنوية ذات ظلال دلالية جديدة يستدعيها الزمان والمكان(١). وقد ذكر الثّعالبي أسماء تفرّد بها الفرس دون العرب، فاضطرّ العرب إلى تعريبها أو أخذها كما هي(٢).

كما كان لتغلغل العربية في مناطق تستوطنها لغات أخرى من إفريقيَّة غربًا إلى الهند شرقًا أثر لغويّ كبير، فقد استمرّت اللغة اليونانية في غربيّ الدولة، والفارسية في شرقيّها، قرنًا كاملاً لسان الحكم والإدارة(٣). وحتى في المدن الناشئة كالبصرة والكوفة كانت اللغة الفارسية تحتلّ مكان التصدّر في القرن الأوّل. كلّ ذلك كان سببًا في تعاظم التّداخل اللغويّ، ممّا أثّر في اللسان العربي كما يشير إلى ذلك ابن خلدون بقوله: «فلأنّ البعد عن اللّسان إنّما هو بمخالطة العجمة»(٤).

وهكذا تبادلت العربية التأثّر والتّأثير مع بقية اللغات المجاورة لها وخاصة الفارسيّة واليونانيّة(٥)، وقد استفادت العربية من أسبقية هذه اللغات في ميادين الحكم والإدارة وألوان الحياة الحضرية الجديدة، كما أنّ ازدياد نفوذ الأعاجم في القرن الثاني الهجريّ مع ظهور دولة بني العباس، أدّى إلى تسرّبهم إلى قصور الخلفاء عن طريق الجواري

(١) أحمد نعيم الكراعين: علم الدلالة بين النظر والتطبيق، ص٢١.

(٢) السيوطي: المزهر، ١/٢٦٢-٢٨٦.

(٣) يوهان فك: العربية، ص٢٤-٢٥.

(٤) ابن خلدون: المقدّمة، ص١٠٧٩.

(٥) ينظر: رفائيل نخلة: غرائب اللغة العربية، باب: تأثير العربية دون سواها في نحو مئة من لغات العالم. وفيه يحصي اللغات التي استعملت الخطّ العربيّ كالتركية والإيرانية والكردية... وهي ٣٧لغة. كما يضع قائمة بالألفاظ العربية التي اقترضتها لغات أوروبة، ص١٢٧.

والغلمان، وإلى الأسواق والحياة العامة، فكان المجتمع الإسلاميّ يضمّ أشتاتًا من الأعراق متنوّعة الخصائص(١)...

وقد تحدّثت المصادر العربية القديمة عن هذه الظاهرة تحت مصطلح «التّداخل اللغويّ»، فعالجه النّحاة العرب من زوايا ومواقف مختلفة، بل إنّ السّيوطي(٢) مثلاً، يستعمل المصطلح نفسه، ويحيل على ابن جنّي الذي عرّف «التّداخل اللغوي» بقوله: «إذا اجتمع في الكلام الفصيح لغتان فصاعدًا»(٣)، على أنّ اجتماع لغتين في اللسان الواحد يؤدّي كما يقول الجاحظ، إلى أن «تُدخل كلٌّ واحدة منهما الضّيم على صاحبتها»(٤).

وقيمة الملاحظتين تكمن في كون الأولى دليلاً على وجود تعدّد اللغات في اللسان الواحد وفي العربية تحديدًا، بسبب الاحتكاك الثّقافي والحاجة إلى التّرجمة، وتهتمّ الثانية بما ينتج عن ذلك التّداخل من تحوّل يشمل جميع أنظمة اللغة، فإنّ «الضّيم» الذي يدخل على اللغات إذا التقت في نفس اللسان إنّما تكون نتيجته مظاهر من التداخل اعتُبر البعض منها لحنًا واعتُبر البعض الآخر، ولاسيما الألفاظ، دخيلاً معرّبًا(٥). وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقوله: «فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصليّ أبعد... فعلى مقدار ما يسمعونه من العجم ويربّون

---

(١) فك: العربية، ص١٨-٢١.

(٢) السيوطي: المزهر، باب: «معرفة تداخل اللغات »، ٢٦٢/١.

(٣) ابن جنّي:الخصائص، ٣٧٢/١.

(٤) البيان، ٢٨٤/١.

(٥) الطيب البكوش: العلاقات بين الألسن ومستوياتها، الحوليات، ٣٦/١١-٣٤. ١٩٩٥.

عليه يبعدون عن الملكة الأولى»[1] .

فمهما تكن طبيعة الاتّصال بين اللغات وعوامل الحيطة التي تتميّز بها كلّ لغة، فإنّ النتيجة دائمًا حصول تداخل بينها، فإنّ ثمّة عوامل قويّة تؤكّد أنّ معرفة المتكلّم للغتين ليست سوى مزيج من ظواهر أساسيّة، ومشكل المتكلّم -عندها- هو الالتزام بقواعد متباينة في سياق واحد وهذا يُفضي دائمًا إلى تداخل قواعد نظام ما مع قواعد نظام آخر. أي إذا كانت لغتان في حالة اتّصال، فإنّ التداخل اللغويّ يمكن أن يحدث في كلّ المستويات ابتداء من أبسط بنية صوتية إلى مستوى النّحو حيث يصبح التركيب أيضًا معنيًّا بالتداخل.

٢- مكانة الاقتراض في الدراسات الحديثة:

لهذه الأسباب نُزّلت ظاهرة الاقتراض اللغويّ في الدّرس اللسانيّ الحديث منـزلة مهمّة قصد معرفة تداخل الألسن ودوره في تطوّر اللغة عامة، وتطوّر المعجم خاصة. وأثره في حلّ معضلة التواصل مع الواقع والتأثير فيه، خاصة في البيئات المتتاخمة المتداخلة اللغات.

وقد أُخضع في اللغات الحيّة للاستقراء العلميّ الموضوعي وحُلّلت مقترضاته وأُرّخ لها.. غير أنّ منـزلته في الدّرس اللغوي العربي لا تزال ضعيفة بسبب هيمنة مفهوم الفصاحة، فكثيرًا ما عُدّ الرّصيد الأعجميُّ الذي أصبح جزءًا من اللغة العربية غير ذي شأن، وقاومته كتب اللحن وامتنع المعجم عن الاعتراف به إلا نادرًا، ورغم اتّساع الاقتراض في العصور اللاحقة ليشمل شتّى العلوم والمعارف، فإنّه لا

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص٥٥٨.

يزال يُعامل معاملة العاميّ والمولّد، وهذا يؤدّي إلى إهماله وإهمال دوره في تطوير اللغة.

وقد رأينا أن نعالجه في هذا البحث باعتباره مستوى لغويًّا عامًا، من ناحيّة، ووسيلةً من وسائل نموّ اللغات لا غنًى عنها، من ناحية ثانية، وقد دلّت الملاحظة منذ القديم على أنّ اللغات يستعين بعضها بألفاظ بعض، حدث هذا في العربية الفصحى وفي عامياتها قديمًا ويحدث الآن[1]. فقد عرفت العربية ألفاظًا أعجمية وردت في الشعر الجاهليّ، وفي القرآن، وفي الحديث، وتواصل ظهورها أثناء عصر الاحتجاج وبعده في المظهرين العام والاصطلاحي.

وتُثبت الدّراسات الحديثة أنّ ذلك من علامات تطوّر اللغة وحيويّتها، لأنّ اقتصار لغة ما على رصيدها الخاصّ يحرمها من الاستفادة من تجارب الآخرين ويفقدها القدرة على مجاراة نسق الحضارة والمشاركة فيها، وصورة اللغة التي لم تتأثّر بلغات الشعوب المجاورة لها صورة مثاليّة لم تعرفها التجارب الإنسانية.

والحقيقة أنّ اللغة تكتسب عناصر جدّتها وتطورها بعاملي التّوليد الداخلي؛ والاقتراض الخارجيّ. وإذا كان العامل الأوّل مظهرًا من مظاهر المقدرة اللغوية تُحقّقه أنظمتها وبُنَاهَا الدّاخلية؛ فإنّ العامل الثاني لا يقلّ أهمية لأنّ المقترضات تتحوّل إلى جزء أصيل من رصيد اللغة، يتّخذ له حيّزًا في نظامها اللغويّ.

وهذا الاقتراض قد يكون ضروريًا، يُلجأ إليه نظريًّا لسدّ الخانات الفارغة في اللغة المورد بوسائلها الدّاخليّة، ولكنّه قد يكون نتيجة مواقف الإعجاب بأنماط

(١) إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، ص١٠٩-١١٧.

ثقافية وحضارية أجنبية. فالأول إبلاغيّ (dénotatif) (١)، يتعلّق بتسمية الأشياء والمفاهيم التي تظهر في بلدان أجنبية؛ والآخر إيحائيّ (connotatif)، وهو غير ضروريّ، يرجع إلى رغبة المتكلّم في التأقلم مع الثقافات الأقوى. وقد ذكر الجاحظ الضّربين من الاقتراض.

٣- الاقتراض في الدرس اللغوي العربي القديم:

فإنّ لغات الشعوب الأكثر تحضّرًا وقوة هي التي تفرض في الأخير تأثيرها في لغات الشعوب الأضعف منها، وقد خضع العرب للغات الشعوب الذين كانوا أسبق منهم حضارة كالفارسية واليونانية واللاتينية(٢)، دون أن يمنع ذلك العربية من أن

(١) Guilbert :La créativité lexicale , p91.

(٢) فقد كان للعرب علاقات تجارية وتاريخية مع الأمم المجاورة لهم، فكانوا يستوردون البضائع من بلاد العجم وبلاد ما بين النهرين والولايات البيزنطية، وكانت أسواقهم السنوية تجلب تجار هذه الممالك إليها. ويشهد القرآن بأنّ للعرب رحلتين في الصيف وفي الشتاء إلى سورية وفلسطين، واليمن. كما كان للعوامل السياسية دور في تأكيد الروابط اللغوية بين العرب وغيرها من اللغات، يمكن أن نجمله في تغلغل النفوذ اليوناني عن طريق فتوحات الإسكندر في الشام ومصر وبلاد ما بين النهرين(في القرن ٤ق. م) ، ثم احتلال الرومان مصر وسورية وفلسطين وقسم من العراق فترة امتدّت من(القرن١ق. م) إلى(القرن٧م) ، كانت فيها اللاتينية لغة الحكم والإدارة، بينما كانت الآرامية (وهي مجموعة لهجات تضمّ الآرامية والنبطية والسريانية) ، تنتشر في بوادي الشام وسواد العراق، وتقوم بدور الوسيط بين اللغة العربية واللغتين اليونانية واللاتينية، وهو ما أدّى إلى انتشارها انتشارًا واسعًا في المعاملات التجارية والدبلوماسية. وفي نفس الوقت لم تقطع العربية صلات الجوار التقليدية مع الفرس في الشرق، فقد كان المناذرة يحكمون العراق باسمهم، وكان كسرى يجهّز كلّ سنة قافلة تباع في (عكاظ) ، وكان بعض العرب يقصدون فارس للعلم، كما استعان كسرى بمترجمين عرب في بلاطه منهم عديّ بن زيد الشاعر. كما شهد جنوب الجزيرة =

تحافظ على روابطها مع اللغات السامية ومنها بالخصوص الحبشية والآرامية[1]. فإنّ هذه الصلات كانت أساس ما حدث بين العربية وهذه اللغات من تداخل منذ أقدم العصور تجسّده القصائد الجاهلية نفسها:

فقد رُوي لعديّ بن زيد[2] في بيت واحد ثلاث كلمات أعجمية هي: القنديل والكنيسة، والفصح، في قوله:

بزجاجة ملءِ اليدين كأنّها   قنديلُ فُصْحٍ في كنيسة راهب

والقنديل: معرّب من اليونانية، ثم دخل الآرامية ومنها إلى العربية، والكنيسة: معبد اليهود والنصارى من الآرامية(كنوشتا)، والفُصح: عيد تذكار قيامة المسيح من الموت، من الآرامية (فصحا).

=

تأثيرًا متبادلاً بين الفرس والأحباش، وقد تجسّد هذا الصراع في غزو أبرهة مكة لعزل العرب عن الشمال، وفرض الثقافة الحبشية والديانة المسيحية عليهم. ينظر: عبد العزيز محمد حسن: التعريب في القديم وفي الحديث، ص٩-١٠.

(١) صارت اللغة الآرامية حوالي (ق٥ ق.م.) اللغة العامة الرسمية في بلاد الشرق الأدنى القديم، وقد نابت مناب العبرية والكنعانية، كما جعل الفرس الآرامية لغتهم الدبلوماسية. وقد اقتبست العربية من السريانية حتى بعد ظهور الإسلام، مئات الكلمات المختصة بالزراعة والصناعة والتجارة والعلوم، وكان من هذه الألفاظ ما هو سريانيّ محض وما هو من أصل يونانيّ ونُقل إلى العربية بصيغته السريانية. عن: رفائيل نخلة اليسوعي: غرائب اللغة العربية، ص١٧٠.

(٢) شاعر جاهليّ (ت ٥٩٠م). كثير التنقّل بين الفرس والرّوم، وكان يكتب بالعربية والفارسية. يمتاز شعره برقّة العاطفة وعمق الثقافة.

كما روي عن الأعشى[1] استعماله الأعجميّ في شعره من ذلك: المستق، والون، والبربط، والصّنج في قوله:

ومُسْتُقُ صينيّ ووَنٌّ وبربط يُجاوبه صَنْج إذا ما ترنّما

والمستق الصينيّ: آلة موسيقية، والكلمة مأخوذة من (مشته) الفارسية بمعنى: الذي يُؤخذ باليد؛

والونّ: آلة موسيقية يعزف عليها بالأصابع من (ونج) الفارسية؛

والبربط: وهو العود وأصلها في الفهلوية(barbut) وفي اليونانية(barbitos) شبه بصدر البطّ، والصدر بالفارسية (بَر) فقيل بربط؛

والصّنج: آلة موسيقية فارسية أصلها (جنك) وهي في البهلوية (cang).

ونكتفي بهذين النّموذجين فهما على سبيل التمثيل لا التحليل العام.

لكنّ هذا الاقتراض على كثرته لدى الجاهليين، لم يكن له فيما بعد شأن مهمّ في جمع العربية ووضع أنظمتها، فلم ينظر إليه على أنّه مكوّن من مكوّنات معجمها، بل كثيرًا ما اختلف حتى في طبيعته وفي منـزلته في النّصوص الفصيحة.. لكنّ تجسّده في النصوص الدينية ومنها القرآن، أكّد تلك الصّلات التي أوجدها العرب بغيرهم من الشعوب حتى انعكس فيه ذلك التّنوّع اللغويّ. وهو ما ألجأ اللغويين إلى البحث فيما يعرف بـ «غريب القرآن» تحت مُسمّيات منها: مجاز القرآن، ومعاني القرآن، وغريب القرآن، والمشكل في القرآن...

فقد قامت المحاولة الأولى لتفسير غريب القرآن على يد ابن عبّاس(ت٦٨هـ)،

(١) شاعر جاهليّ (ت ٦٢٩م)، عُرف بترحاله، ومن الطبيعي أن يكون قد شاهد مظاهر من حضارة الأمم فجرت صورها في ذهنه بألفاظها التي خبرها بها.

لكنّ أوّل من ألف كتابًا في غريب القرآن كما ذكر ياقوت[1]: أبو سعيد أبّان بن تغلب بن رياح البكري(ت١٤١هـ)، وأوّل كتاب وصل إلينا في غريب اللغة، هو «الغريب المصنف» لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي(ت٢٢٤هـ)، وكذلك «غريب الحديث» له، وأول كتاب وصلنا في غريب القرآن لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ).

وبصورة عامّة كان ذلك سببًا في نهوض الدراسات اللغوية نهوضًا مُبكّرًا، وغايتها الأساسيّة التّفريق بين الفصيح ومختلف اللغات واللهجات التي كانت تتعايش في الجزيرة وانعكست في النصّ القرآنيّ.

وإذا ما تجاوزنا مسألة الغرابة باعتبارها قد تشمل اللهجات العربية ذاتها، إلى التّجسيد العمليّ لمسألة التّداخل اللغويّ في العربية، نجده يظهر فيما يعرف بالاقتراض، ففي القرآن ألفاظ عجز العلماء عن تحديد أصولها، وهي دليل على تكامل اللغات وانصهارها منذ القديم، فإنّ الاستبرق، والقسطاس، والسجيل، والمشكاة... وهي كلمات أعجمية وردت في القرآن لكنّ من القدامى من لم ينف عروبتها واعتبر ذلك من باب توافق اللغات، فقالوا بأنّ وضع العرب فيها وافق لغة أخرى كالصابون والتّنّور فإنّ اللغات فيها متّفقة. فابن جنّي مثلاً يرى أنّ التّنّور لفظة اشترك فيها جميع اللغات من العرب وغيرهم. والثعالبي ذكر في فقه اللغة قائمة في لغتي العرب والفرس على لفظ واحد منها: التّنّور، الخمير، الزمان، الدين، الكنـ ـز، الدينار، الدرهـ ـم...[2].

(١) ياقوت: معجم الأدباء، ١٠٨/١.

(٢) ينظر: السيوطي: المزهر، باب: معرفة تداخل اللغات، ٢٦٤/١.

واجتهد آخرون[1] في تحديد عجمة ألفاظ واردة في القرآن فقالوا: أباريق، سجّيل، استبرق، دينار، ياقوت، مِسْك..(من الفارسية)؛ وطه، واليمّ، والطّور، والرّبّانيون (من السريانية)؛ والرّقيم، والشيطان، وإبليس، والصّراط، والقسطاس، والفردوس (من اليونانية)؛ وجهنّم، وملائكة، وأخدود، وكفلين..(من الحبشية)؛ وهيْت لك (من القبطية)...

إنّ هذا التّداخل اللغوي في القرآن طبيعيّ، رغم نزوله باللغة العربية. فإنّ العربية ليست بدعًا بين اللغات، وهذه اللغات تتبادل جميعًا التأثّر والتأثير، فتقرض غيرها وتقترض منها، ومن يتصوّر العربية قد نمت بإعرابها عن خصائصها الذاتية فحسب فقد أخطأ.

وقد آل البحث في هذا الميدان إلى ظهور معاجم مختصّة فيه[2]، حدّدت خصائص اللفظ الأعجميّ كالخروج عن الأوزان العربية، والقواعد الصوتية، فقالوا مثلاً: هو ما كان أوّله نونًا ثمّ راء كـ (نرجس)؛ وآخره زايًا بعد دال مثل (مهندز) ثمّ أبدلوا الزاي سينا؛ وأن يجتمع فيه الصاد والجيم كـ (صولجان)؛ وأن يجتمع فيه الجيم والقاف نحو (المنجنيق)؛ وأن يكون رباعيًّا وخماسيًّا خاليًّا من حروف الذلاقة (ب، ر، ف، ك، ل، م، ن) كـ (الجوسق) بمعنى القصر.

ومن قواعد تعاملهم مع الأعجميّ إخضاعه للغتهم أبنيةً وأصواتًا، ففي الأعجميّ أصوات لا تتكلّم العرب بها، فإذا اقترضوها حوّلوها إلى أقرب الأصوات من

(١) يعقوب إميل بديع: فقه اللغة العربية وخصائصها، ص٢١٩.

(٢) الجواليقي (ق٥-٦هـ): مؤلف أوّل معجم في الأعجميّ: المعرب من الكلام الأعجمي، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٢، مصر ١٩٦٩.

مخرجها، وذلك كالصوت الذي بين الباء والفاء (v) كـ .(فرند): فمرة تُبدل منها الفاء ومرة تُبدل منها الباء، و(الجصّ) فارسيّ معرّب [كجّ] أُبدلت فيه الجيم من كاف أعجميّة لا تشبه كاف العرب. قال الجواليقي: إنّ العرب كثيرًا ما يجترئون على الأسماء الأعجميّة فيغيّروها بالإبدال، وقد ينقلوها إلى أبنيتهم ويزيدون وينقصون[1].

٤- الاقتراض في مؤلفات الجاحظ:

رأينا في هذا البحث أن نعالج مدى اهتمام الجاحظ بمسألة المقترضات في عربية عصره باعتبارها مظهرًا لا غنًى عنه –كما بيّنّا- لفهم مرحلة تأسيسية معيّنة من تاريخ اللغة العربية، ووسيلةً لكشف ملامح معجمها التاريخيّ الذي لا ينبغي أن يستثني جزءًا مهمًّا من رصيدها.

ومع أنّ الاقتراض في اللغة المكتوبة يظلّ دائمًا بعيدًا عن حقيقة الاستعمال بسبب ما يصحب الكتابة عادة من تهذيب يقرّب النصّ من المستوى الفصيح فيذهب ذلك بجزء من المقترضات التي تظهر خاصة في المستوى المنطوق، فقد لاحظنا أنّ مؤلّفات الجاحظ لا تخلو من رصيد مهمّ من المقترضات دعت إليها الضّرورة حينًا، وهي عند الجاحظ الواقعية ومناسبة المقال للمقام؛ والتزم بها الجاحظ حينًا آخر بسبب حرصه على واقعية لا يريد التفريط فيها، يظهر ذلك في الحوار بين البحّارة والعُمّال والمُكدين وغيرهم من عامة الناس، وفي وصف أحداث وأعمال ومهن ومأكولات وملابس.. حتى بدا اقتراض الدّوالّ موازيًا لطبيعة المدلولات

(١) السيوطي: المزهر، ٢٦٩/١.

الوافدة، فإنّ الجاحظ قد تجنّب البحث عن مقابل عربيّ طالما المستعمل والشائع هو اللفظ الأعجميّ. وهكذا يبدو الاقتراض في عصر الجاحظ مرتبطًا أساسًا باللغة الفارسية في مجالات تفوّقها حضاريًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا.. لذلك فإنّ أغلب المقترضات التي استخرجنا هي في اتّجاه واحد أي من الفارسية واليونانيّة..خاصة إلى العربية.

على أنّ من هذه المقترضات التي استخرجنا ما لم يُدمج في نظام اللغة، فبقي مستعصيًا على نظامها الصرفي و لم يلحق بأبنيتها، أي بأنماطها الصيغية المعلومة في العربية، وهذا الضّرب يُطلق عليه «الدّخيل» (emprunt intégral)؛ ومنها ما أُدمج في نظام العربية فأُلحق بأبنيتها الصرفية فصار مَقِيسًا على نمط صيغي عربيّ معلوم، وهو المعروف بـ «المعرّب» (emprunt intégré).. ومفهوم «التعريب» يعني في الغالب تغيير الكلمة الأعجمية «بالنّقص أو بالزّيادة أو بالقلب»(1). وهذا الرّأي يستند إلى حدوث تغييرات في الكلمات المعرّبة في القديم فقد ذكر سيبويه في «باب ما أُعرب من الأعجمية»: أنّ العرب كانوا يتصرّفون فيما أعربوه من الكلمات الأعجمية، وضرب لذلك أمثلة(2).

والضّربان المذكوران من المقترضات قديمان في العربية، وقد أثبت استقراؤنا في هذا البحث أنّ الأعجميّ قائم عليهما معًا.

ومن أمثلة الضرب الأول «الدّخيل» (emprunt intégral) في كتابات الجاحظ: «بالْ» فارسية، أي المِسْحاة، الباذروج فارسية، وهي بالعربية الحوْك،

---

(1) انظر: ابن مراد : مقدمة لنظرية المعجم، ص١٦٢.

(2) الكتاب، ٣٠٣/٤.

والجهارسوك[1] فارسية، وهي بالعربية التقاء أربع طرق، والوازار[2] فارسية، وهي بالعربية السوق، وَيْذي فارسية، وهي بالعربية المجذوم..

ومن أمثلة الضرب الثاني المعرّب (emprunt intégré) في كتابات الجاحظ: كُرْبُج[3]، معرب من الفارسي «قريق» بمعنى الحانوت. انظر: لسان العرب، والبارجين[4] ، فارسيتها: (برجنيدن) ومعناها الالتقاط. وهي أداة من أدوات الأكل قريبًا من الشّوكة[5]، والكامخ[6]، من المشهّيات، فارسيّ معرّب، أصله (كامه)[7].

وقد لاحظنا في تتبّع نماذج من الأعجميّ في مؤلفات الجاحظ أنّ الجاحظ قد عالجه معالجة نظريّة تكشف وعيه بأهميته في جميع اللغات؛ واستعمله في المستوى العمليّ، عندما لم يعتبره عيبًا في اللغة، وخصّص له حيّزًا يناسب أهميته وانتشاره في لغة عصره.

٤-١- المعالجة النّظريّة:

فأمّا المعالجة النظريّة فيمكن تبيّن أهميتها من بعض آرائه ومنها مثلاً:

(١) التّنبيه إلى أهميّة الصلات الاجتماعية بين الشعوب وأثرها في ظاهرة

---

(١) البيان، ١٩-٢٠.

(٢) نفسه، ١٩-٢٠.

(٣) نفسه، ٣/ ٥١.

(٤) البخلاء، ٦٨.

(٥) انظر: اللقاني: ألفاط الحياة الاجتماعية في كتابات الجاحظ، ص٣٨٥.

(٦) البيان، ٤ /١٢.

(٧) انظر: اللقاني ، ص٧٨. فقد استندت في تحليل موسّع إلى الجواليقي وغيره من اللغويين القدامى والمعاصرين.

الاقتراض. فيقول: «وأهل الأمصار إنّما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب، ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر..»[1].

«ألا ترى أنّ أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس من قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسمون البطيخ الخربز، ويسمون السميط الزردق، ويسمون المَصوص المَزور، ويسمون الشطرنج الأشترنج، في غير ذلك من الأسماء. وكذلك أهل الكوفة فإنّهم يسمون المسحاة بالْ، وبالْ بالفارسية. ولو علق ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه إذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب. ويسمي أهل الكوفة الحَوْك الباذروج، والباذروج بالفارسية، والحوْك كلمة عربية. وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها مربّعة، ويسميها أهل الكوفة الجِهارسوك، والجهارسوك بالفارسية. ويسمّون السوق والسويقة «وازار»، والوازار بالفارسية. ويسمون القثاء خيارًا، والخيار بالفارسية. ويسمون المجذوم وَيْذي بالفارسية»[2] .

(٢) البحث في خصائص اللغات واختلافها في طرائق التعبير عن المفاهيم والأشياء، وهذا أمر مهمّ لأنّه يؤسّس لقناعة الجاحظ بعدم رفض الأعجميّ واعتباره جزءًا من رصيد العربية الضروريّ في حالة عدم امتلاك العربية المقابل المناسب؛ وقد يكون بذخيًا إذا كان لأهداف أخرى منها التظاهر، كما سنرى.. فإنّ اللغات حسب الجاحظ، تختلف في مُتَصَوَّراتها الذهنيَّة ومفاهيمها التي تبني عليها رؤاها في التعبير.

(١) البيان، ١/١٨.

(٢) نفسه، ١٩-٢٠.

ففي الاقتراض الضروريّ يقارن الجاحظ بين العرب وغيرهم من الشعوب في كيفية التعبير عن بعض المفاهيم. فيقول: «والإنسان رديء الإبصار بالليل، والذي لا يبصر منهم بالليل، تسميه الفرس: بشكور، وتأويله أنّه أعمى بالليل، وليس له في لغة العرب اسم، أكثر من أنّه يقال لمن لا يبصر بالليل هديد، ما سمعت إلا بهذا. فأما الأغطش فإنّه السيّئ البصر بالليل والنهار جميعًا. وإذا كانت المرأة مقربة العنق، فكانت رديئة البصر، قيل لها «جهراء». وأنشد الأصمعي في غير النساء:

جهراء لا تألو إذا هي أظهرت بصراً ولا من عَيلة تغنيني

وذكروا أنّ الأجهر الذي لا يبصر في الشمس..»[1].

«ومما يدلّ على أنّ الرّوم أبخل الأمم، أنّك لا تجد للجود في لغتهم اسمًا. وقد زعم ناس أنّ ممّا يدلّ على غشّ الفرس، أنّه ليس للنصيحة في لغتهم اسم واحد يجمع المعاني التي يقع عليها هذا الاسم.. ففي لغتهم اسم للسلامة، واسم لإرادة الخير، وحسن المشورة، وحملك بالرأس على الصواب. فللنصيحة عندهم أسماء مختلفة، إذا اجتمعت دلّت على ما يدلّ عليه الاسم الواحد في لغة العرب. فمن قضى عليهم بالغشّ من هذا الوجه فقد ظلم»[2]. ويضيف: «إنّما يسمي الناس ما يحتاجون إلى استعماله. ومع الاستغناء يسقط التكلف..»[3] .

(٣) الاقتراض غير الضروري أو البذخيّ: لا يغفل الجاحظ التنبيه إليه باعتباره جزءاً من رؤية لسانية عامة، تحوّل الاقتراض إلى عنصر زائد عن الحاجة، وتنتقل

(١) الحيوان، ٣/ ٦٠٣.

(٢) البخلاء، ٢/ ١٥٣.

(٣) نفسه، ٢/ ١٥٣.

وظيفته من وظيفة ضرورية لحلّ مصاعب في الخطاب، إلى وظيفة بذخية، فيها يبدو الاقتراض ضربًا من التقليد، ولكنّه مع ذلك يؤدّي وظائف نفسية واجتماعية كالتّأثّر والإعجاب والتّباهي باستعمال لغات أخرى، خاصة إذا كانت ذات قيمة حضارية.. وفي هذا النّوع من الاقتراض يقول الجاحظ: «وقد يتملّح الأعرابيّ بأن يدخل في شعره شيئًا من كلام الفارسية، كقول العمانيّ للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها:

مَن يلقه من بطل مُسْرَنْدِ ... في زَغْفة محكمة بالسّرْد

تجول بين رأسه و(الكرد) (يعني العنق)»(1).

٤-٢- المعالجة التطبيقيّة:

وأما المعالجة التطبيقيّة العمليّة، فقائمة على الواقع اللغوي، فإنّ استناد الجاحظ إلى أثر التاريخ الغابر في إثبات ظاهرة الأعجميّ في القديم، تثبت أنّ الحاضر عليها أدلّ؛ فمجتمع الجاحظ البصريّ أشدّ مجتمعات المشرق الإسلامي تنوّعًا واختلافًا وتعدّدًا لغويًّا ومذهبيًا. فقد قامت البصرة في صدر الإسلام أيام خلافة عمر بن الخطاب على ميناء فارسيّ صغير يعرف (بالخريبة). وكان لها موقع جغرافي مهمّ، لكونها مركزا تجاريًّا يتوسط الشرق والغرب، وهو ما ساعد على نموّها واتّساعها في زمن قصير. فهاجرت إليها قبائل عربية (تميم، وقريش، وكنانة وثقيف، وعبد القيس والأزد..) كما سكنها الفرس، واستوطن البصرة أيضًا جماعة من السّند يسمون الزّطّ، وجماعة من النّبط الآراميين (الصابئة)، والسبابجة الوافدون من جنوب شرقي آسيا، واليونانيون، والزنوج فكانت هذه العناصر مجتمعة تكون مجتمع البصرة المشتغل

(1) البيان، ١/١٤١.

بالتجارة والزراعة والصيد وغيرها.. ومن الطبيعي أن يكون نتيجة كلّ ذلك مزيج من اللغات والثقافات؛ فللعرب غلبة الدين واللغة وللفرس غلبة أسباب الحضارة، ولليونانيين والهنود غلبة الفلسفة والمنطق والطبّ.. وهكذا بعدت صورة المجتمع في البصرة عن النقاء العربي عادات ولغة ونظمًا حتى صار الخطأ في الكلام مألوفًا. (ياسين، ٤٦).

فكان لجميع هذه المكونات أثر في نزوع البصريين إلى الدّراسات الفلسفية والكلامية غذّته صراعات مذهبية، واختلاط في المجتمع المتعدّد الأعراق والثقافات. فقد درس سيبويه الفلسفة والمنطق شأنه في ذلك شأن أغلب رجال مدرسته، إذ صرفته هذه الدراسة إلى منهج في اللغة متأثر بها. وهو في الحقيقة منهج أثّر في أغلب العلوم العربية الإسلامية بقيامها على التحليل والبرهان، وإرجاع جميع الظواهر إلى العقل، وإخضاعها للأسباب والمسببات، وهذا واضح جدًّا في العلوم الصحيحة، وربما كان ذلك أيضًا في الدراسات النحوية وحتى الفقهية والكلامية حتى ظهرت في هذه العلوم مفاهيم: العلة والقياس وألوان الاستدلال الذهني (الحلواني، ٨٩).

وكان الجاحظ سليل هذه المدرسة العقلية مبتكرًا ومجدّدًا، دون أن يتنكّر لثقافته الأصيلة فهي دليل عبقريته ومظهر علمه وثراء فكره، وهو ما قرّب الفلسفة والعلوم من ذهنه وعقله، فمزج كلام أرسطو بحكمة الجاهليين بدقائق علوم الدين، وجعل اللغة العربية لغة الحياة التي تنطق بكلّ ذلك وتحتفي بكلّ فكر وفنّ.. وهكذا اتّسعت ثقافته لمختلف ضروب المعرفة فمن كتب فلاسفة اليونان إلى حكماء الهند وبلغاء فارس.. وكان ممّا استشفّه من كلّ ذلك ثقافة موسوعيّة، فلم يقف عند مصدر واحد من مصادر المعرفة بل رجع إلى كلّ ما أمكنه الرجوع إليه.. حتى قيل: لم يترجم

كتاب إلا قرأه أبو عثمان واستظهره فوق ما استظهر من ملفات عربية[1].

فكان من آثار هذه البنية الاجتماعية بين مكوّنات المجتمع العباسي، وتنوّع ثقافته ومصادر ثرائه العلميّ والمعرفيّ:

(١) انتشار الألفاظ الأعجمية بنوعيها الضروريّ والبذخيّ، حتى باتت جزءًا مهمًّا من رصيد العربية المستعملة، فضلاً عمّا ظهر من مصطلحات العلوم والفنون بسبب انتشار العلوم وترجمتها إلى العربية المكتوبة خاصة.

(٢) الاختلاف في نطق الأصوات العربية وما ينتج عن ذلك من لحن. وقد اهتمّ الجاحظ بأثر النّطق في تحديد أصل المتكلم وجنسه فيقول: «وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة، العربية المعروفة، ويكون لفظه متخيّرًا فاخرًا، ومعناه شريفًا كريمًا، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنّه نبطيّ. وكذلك إذا تكلم الخراسانيّ على هذه الصفة، فإنّك تعلم مع إعرابه وتخيُّر ألفاظه في مخرج كلامه، أنّه خراسانيّ. وكذا إذا كان من كتاب الأهواز»[2]، فميّز بين نطق الأهوازي والخراساني والزنجي والسندي. فالنبطيّ يجعل الزاي سينًا والعين همزةً؛ والسنديّ يجعل الجيم زايًا[3]، والرومي والفارسيّ يجعلان الحاء هاء[4]، والصقلبي يجعل الذال المعجمة دالاً في الحروف[5].. كما تنبّه الجاحظ إلى أنّ «لكلّ لغة حروفا تدور في أكثر

(١) انظر : عبد المنعم خفاجي:أبو عثمان الجاحظ، الفصل الثاني: ثقافة الجاحظ، ص٩٤-١٥٣.

(٢) البيان، ١/٦٩.

(٣) نفسه، ١/٧٠.

(٤) نفسه، ١/٧٣.

(٥) نفسه، ١/ ٧٤.

كلامها كنحو استعمال الرّوم للسين، واستعمال الجرامقة للعين. وقال الأصمعيّ ليس للروم ضاد، ولا للفرس ثاء، ولا للسرياني ذال..»[1]؛ كما تحدث عن ازدواج اللغات: فالعربية والفارسية تختلفان، «فإذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كلّ واحدة منهما الضيم على صاحبتها»[2]. فإنّ الكثير من أصوات اللغات الأعجمية لا يصوّره الخطّ العربيّ أيضًا[3].

(٣) سهولة تصنيف الشعوب التي تكوّن المجتمع العباسي وفق خصائصها الاجتماعية والثقافية ومنها ذكر الجاحظ مثلاً: أسماء أطعمتها، وهذا دليل على وجوب التزام لغة كلّ فئة عند الحديث عنها، فيقول: «ذهبت الروم بالجُشَمِ والحشو، وذهبت فارس بالبارد والحلو. وقال عمر: لفارس الشّفارق والحموض، وقال دَوْسَرَ المديني: لنا الهرائس والقلايا، ولأهل البدو اللّبأ والسِّلاء والجراد والكمأة والخبزة في الرائب والتمر بالزبد.. ولهم البُرمة والخلاصة والحيس والوطيئة»[4] ...

٥- معالجة نماذج من الأعجميّ في مؤلّفات الجاحظ:

وهذه نماذج تقدّم صورة مختصرة عمّا استعمله الجاحظ من الأعجميّ في مختلف مؤلفاته، مصحوبة بذكر مصادرها، مع تعاليق حول أصل الأعجميّ المذكور:

٥-١- ما استعمله الجاحظ من الأعجميّ دون تحديد أصوله:

١- إشكنج: * «وما كان من القراطيس فللطراز.. وما كان من قطع الخشب

(١) البيان، ١/ ٦٤-٦٥.

(٢) نفسه، ١٣٩/١.

(٣) نفسه، ١٦/١.

(٤) البخلاء، ١٣٠/٢.

فللأكافين.. وما كان من قطع الخرق فللتنانير.. وما كان من إشكنج فهو مجموع للبناء..» (1). جاء في شرح المحققين: إشكنج: غير عربية، معناها باللاتينية: قطع الحجارة الصغيرة والحصى.. ويذكر القاموس المحيط ولسان العرب، في مادة (دهق): «خشبتان يغمز بهما الساق، فارسيته: أشكنجة».

٢- أُشنان: * «كان في غداة كلّ جمعة يحمل معه منديلاً فيه جردقان، وقطع لحم سكباج.. وصُرّة فيها .. أُشنان..» (2). جاء في الوسيط: «الأُشنان: شجر من الفصيلة الرّمراميّة، ينبت في الأرض الرّمليّة، يُستعمَل هو أو رمادُه في غسل الثّياب والأيدي». ويذكر السيوطي أنّه فارسيّ معرّب(3).

٣- البارجين: * «والله إنّي لأفضّل الدهاقين حين عابوا الحسو وتقزّزوا من التعرّق وبهرجوا صاحب التمشيش، وحين آكلوا بالبارجين وقطعوا بالسّكين، ولَزَموا عند الطعام السّكتة وتركوا الخوض، واختاروا الزّمزمة.»(4). والبارجين يبدو أنّها فارسية (برجنيدن) ومعناها الالتقاط. وهي أداة من أدوات الأكل قريبًا من الشّوكة(5).

٤- البايْكير: * ويقول في وصف صيد الطيور: «وإذا مرّ بالقرى والعمران سقط. وإذا سقط أخذ بالبايْكير والقُفّاعة والمِلْقف وبالتّدبيق وبالدُّشاخ ورمى أيضًا

(١) البخلاء، ٢/ ٧٤.

(٢) نفسه، ١/ ٥٦.

(٣) المزهر، ٢٧٩/١؛ وانظر كذلك: غرائب اللغة العربية، ص٢١٦.

(٤) نفسه، ٦٨.

(٥) انظر: اللقاني، ص٣٨٥.

بالجُلاهِق، وبغير ذلك من أسباب الصيد.» [1]. وهي كلمة فارسية مركّبة من: بايْ وهو نوع من الطير يسمّى بالعربية بوهة، ومن كير ومعناه جاذب، ومحصّل اللفظين: جالب البوهة. ويراد بذلك مصيدة.. [2].

٥- البربند: * «فطلبوا في الجيران إنسانًا يصعد تلك النخلة.. فلمّا جاء به ونظر إلى النخلة قال: وهذه لا تُصعد ولا يُرتقى إليها إلا بالتّبليا والبَرْبند.» [3]. والبربند: فارسية ومعناها الرّبط، والتّبليا: آرامية بمعنى المصعد من الحبال. والكلمتان شائعتان في جنوب العراق، وتلفظان الآن: (تِبَلْيَة، وفروند). والأداتان معروفتان لصعود النّخل[4].

٦- الجردبيل: * «أنا والله أحتمل الضيف والضيفن ولا أحتمل اللُّعْموظ ولا الجردبيل والواغل أهون عليّ من الراشن»[5]. والجردبيل: فارسية معربة تعني الذي يضع يده على الطعام لئلا يتناوله غيره أو الذي يأكل بيمينه ويمنع بشماله.. وأصلها «كَرْدَبان» أي حافظ الرغيف.. وقد تعرّبت هذه الكلمة وظهرت بعض اشتقاقاتها كالفعل والفاعل فقد ذكر ابن سيده عن أبي عبيدة أنّه قال: «جردبْتُ على الطعام وجرذمت». وعن ابن دريد «رجل مجردب نهم». ويذكرها بنفس المعنى الأب نخلة

(١) الحيوان، ٣/٢١٨-٢١٩.

(٢) انظر: اللقاني، ص٢٧٨.

(٣) البخلاء، ٢١٢. (انظر: اللقاني، ص٣٨٧) .

(٤) انظر: اللقاني، ص٣٧٨.

(٥) نفسه، ١/١٢٣.

اليسوعي ويقول: إنّها مكوّنة من (guerdeh) (رغيف) و(بان) [1].

٧- الجُلاهِق: * ويقول في وصف صيد الطيور: «وإذا مرّ بالقرى والعمران سقط. وإذا سقط أخذ بالبايْكير والقُفّاعة والمِلْقف وبالتّدبيق وبالدُّشاخ ورمى أيضًا بالجُلاهِق، وبغير ذلك من أسباب الصيد.» [2]. قال الجواليقي: فارسيّ معرّب (جلاهق) والواحدة (جلاهقة). وقال الأب نخلة: جلاهق: معناها: بندق يرمى، مكونة من (جُلَهْ: كبة غزل) [3].

٨- الخشكار: * «قلت: فتأمر به للعيال، فيقوم الحُوّارى المتلطّخ مقام الخُشْكار النظيف..»[4]. ذكر ابن مراد: «هو الدقيق الذي لم تنـزع نخالته، فارسيّ»[5]؛ ويقول الأب نخلة: «هو خبز السُحالة، فارسيته: (خشك: يابس)، و(آرْد: طحين)»[6].

٩- الخِوان: * «والخوان من جزعة والغَضَار صيني ملَمَّع أو خَلَنْجية كَيْماكيّة، والألوان طيّبة شهيّة، وغذية قدية..» [7]. والخِوان بكسر الخاء وضمّها: المائدة يوضع عليها الطعام. وذهب الجواليقي إلى أنّ الكلمة فارسية معرّبة[8]. ويقول الأب نخلة:

(١) عبد القادر المغربي: الاشتقاق والتعريب، ٩٣؛ وانظر: غرائب اللغة العربية، ص ٢٢٢.

(٢) الحيوان: ٣/٢١٨-٢١٩.

(٣) المعرّب، ص١٤٤.

(٤) البخلاء، ١/ ١٧٥.

(٥) ابن مراد : المصطلح الأعجمي، ٢/٣٥٥.

(٦) غرائب اللغة العربية، ص٢٢٦.

(٧) البخلاء، ١/ ٥٥.

(٨) المعرّب، ص١٧٧.

«خوان: مائدة فارسيتها (khân) من (خوردن: أكل)» [1].

١٠- الدرياجة: * «كلفهم أن ينصبوا له الشُّصوص للسمك، ويَسْكُروا الدَّرْياجة على صغار السّمك، لا يَدخلوا في السواقي فيُدخلوا أيديهم في جِحرَةِ الشّلابي والرّمان. فإذا أصبنا من السمك شيئًا جعله كبابًا على نار الخبز تحت الطابق.. إن أراد أن يعجّل عليكم الطعام أطعمكم الفَرْدَ، أو إن أحبَّ أن يتأنّى ليطعمكم الجَوْهرى.»[2]. وذكر الحاجري في تعليقه: «هذه إحدى الكلمات التي لم تعن المعاجم بتدوينها.. وهي طريقة يعتمدها صيادو السمك في البصرة. يفصلون قسمًا صغيرًا من الماء بالقصب .. ليمكن للسمك الدخول في الماء أثناء المدّ.. ويسمون القسم المحصور (درياجة) وهي البحيرة بالفارسية.» [3]. وجاء في شرح العوامري والجارم: «الدرياجة: مجهولة، لعلّها معربة..».

١١- الزّكورى: * شرحه الجاحظ بقوله: «خبز الصدقة، كان على سَجْنى أو على سائل»[4]. ويضيف المحققان: سجنى: جمع سجين، كأنّه على النسب إلى سجن. فقد يكون الزكورى خبزًا يعطى المسجونين والشّحّاذين.. ولفظ الزّكورى: لا يوجد في المراجع. ولعلّه كان شائعًا في عصر الجاحظ بهذا المعنى، وإن لم تتناوله المعاجم. وقيل: زكر: كدّى على الأبواب. وأصل الكلمة «زكور» الفارسية، وهي

(١) غرائب اللغة العربية، ص٢٢٦.

(٢) البخلاء، ٢/ ٥٤.

(٣) من معجم الجاحظ، ص ١٤٦.

(٤) البخلاء، ١/١٠٠.

بمعنيين: «الشحيح واللّص»[1].

١٢- السّاج: * «وأنت رِجل في أصحاب الفسيل. ورجل في الكلاّء: نطلب من هذا وِقْرَ جِصّ، ومن هذا وقر آجرّ، ومن هذا قطعة ساج..»[2]. جاء في شرح المحققين: الساج: نوع من الخشب ينبت بالهند.

١٣- السراويل: * «ولا تعرفون الأقبية ولا السّراويلات، ولا تعليق السيوف ولا الطّبول ولا البنود، ولا التجافيف ولا الجواشن..»[3]. واللفظ فارسيّ معرب[4]. ١٤- السّرناي: * «قد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام، وتكون له طبيعة في التجارة وليست له طبيعة في الفلاحة، وتكون له طبيعة في الحداء أو في التغيير، أو في القراءة بالألحان وليست له طبيعة في الغناء، وإن كانت هذه الأنواع كلّها ترجع إلى تأليف اللُّحون، وتكون له طبيعة في الناي وليس له طبيعة في السّرناي..»[5]. وذكر المحققان: «وأصل الناي: فارسيّ (ناي نرمين) ثمّ عرّب في الشعر القديم. والسرناي: فارسية معرّبة معناها البوق عربيته الصفارة..».

١٥- الشّبور: * «فنفخ المضل ورفع بها صوته –وتكلم وهو يصيح فقال الأصمعي: لو نفختَ بالشّبّور لم ينفعْكَ- تكلَّمْ بكلام النّمل وأصبْ.» ويفسّر

(١) عن اللقاني، ص٣٤٢-٣٤٣.

(٢) البخلاء، ٢/ ٧٧.

(٣) نفسه، ١٨/٣.

(٤) انظر: غرائب اللغة العربية، ص٢٣٤.

(٥) البيان، ٢٠٨/١.

الجاحظ الشبور بقوله: «والشبور شيء مثل البوق[1]. والكلمة بالفارسية وهو شيء يكون لليهود، إذا أراد رأس الجالوت أن يحرّم كلام رجل منهم، نفخوا عليه بالشبور»[2]. وفيما يذهب الجاحظ نفسه إلى اعتبار الكلمة فارسية، يذهب ابن منظور في اللسان إلى أنّها عبرية. (شوفار) ومعناها البوق الذي يستعمل في الأعياد الكبرى..

١٦- الشّبّوط: * «واشترى مرّة شبّوطة، وهو ببغداد.» [3]. وجاء ذكره لـ(الشبوط) في الحيوان: «الشبوط كالبغل: وإنّ أمها برية وأباها بحريّ»[4]. وهو ضرب من أجود السمك طعمًا وأرفعه ثمنًا. والكلمة عدّها الجواليقي معرّبة[5].

١٧- الشّصوص: * «كلفهم أن ينصبوا له الشُّصوص للسمك، ويَسْكُرُوا الدّرْياجة على صغار السّمك، لا يَدخلوا في السواقي فيُدخلوا أيديهم في جِحرَةِ الشّلابي والرّمان..» [6]. ذكرها الأب نخلة: «شصّ: حديدة عقفاء، لصيد السمك،

(١) أما لفظ البوق فهو المزمار النحاسيّ المعروف وأصله (buccina) وهو عند الرومان البوق العسكريّ من (bucca) ومعناها الفم الذي ينفخ في البوق. عن: حسن ظاظا: الساميون ولغاتهم، ص١٦١. ويفسّر المعجم لفظة القضيب بالغصن أو السيف القطاع (الوسيط) . لكنّها في نصّ الجاحظ بمعنى العصا ينقر بها الأرض وقت الغناء.

(٢) الحيوان، ٤/١٥.

(٣) البخلاء، ١/٧٨.

(٤) الحيوان، ٦/٣٩٥.

(٥) المعرّب، ص٢٥٥.

(٦) البخلاء، ٢/ ٥٤.

فارسيتها: شَست»[١].

١٨- الطبرزد: * «والسكر الطبرزد»[٢]. فارسيّ أصله (تبرزد)، وهو السكر الأبيض الصلب[٣]. يقول السامرائي: «(التبر): الفأس بالفارسية، و(زد): ضرب، لأنّه كان يُدقَّق بالفأس».

١٩- الطّراز: * «وما كان من القراطيس فللطّراز.. وما كان من قطع الخشب فللأكافين.. وما كان من قطع الخرق فللتنانير.. وما كان من إشكنج فهو مجموع للبناء..»[٤]. يقول حسن ظاظا: «الطراز: له في العربية معنيان، أحدهما التطريز، وهو فنّ من فنون الخياطة، أصله من الفعل (درز) بمعنى خاط بالإبرة، ومن العربية دخل الفعل إلى الفارسية، لا العكس، كما يظنّ بعض اللغويين؛ ومنه جاء لفظ فارسيّ هو (درزي) أي خيّاط، الذي أصبح في العامية (ترزي). أما المعنى الثاني لكلمة طراز، فهو الطريقة والخطة، وهو من كلمة (تراز) الفارسية التي معناها المستوى، والميزان، والهيئة»[٥].

٢٠- الطّفْشَلِيَّة: * «..الطباخ ربّما أتى باللون الطريف.. والعادة في مثل ذلك اللون أن يكون لطيف الشخص صغير الحجم وليس كالطّفْشَلِيَّة، ولا كالهريسة، ولا

---

(١) غرائب اللغة العربية، ص٢٣٦.

(٢) الحيوان، ٣/٢٧٣.

(٣) الجواليقي : المعرّب، ص٢٢٨؛ وانظر: السامرائي: من معجم الجاحظ، ص٢٦٥.

(٤) البخلاء، ٢/ ٧٤.

(٥) الساميون ولغاتهم، ص١٥٤.

كالفُجْليّة، ولا كالكُرُنْبيّة..» [1]. والطّفشيل: ضرب من اللحم يعالج بالبيض والجزر والعسل، فارسيّ معرّب. وهو بالفارسية: (تفشلة أو تفشيلة) [2] .

٢١- الطّومار: * «والإيجاز ليس يُعنى به قلّة عدد الحروف واللفظ وقد يكون الباب من الكلام مَن أتى عليه فيما يسمع بطن طومار..» [3] ... «ومنافع الكلب لا يحصيها الطوامير»..[4].. والطوامير: هي القراطيس. واختلف في أصل الكلمة بين أصليّ ودخيل. فإذا كان أصل الطومار الصحيفة فهي في النصّ الأخير للجاحظ : (ما يجتمع في جوف السمكة من البيض). لكنّ الجاحظ يقول أيضًا: «وقد زعم ناس من أهل العلم أنّ السّمك كلّه يلد، وأنّهم إنّما سمّوا ذلك الحبّ بيضًا على التشبيه والتمثيل لأنّه لا قشر له ولا مخّ ولا بياض، ولا غِرْقِيء، وأنّ السّمك لا تخرج أبدًا إلا فارغة البطن أو محشوّة، ولم نرَ الحبّ الذي بقرب مبالها أعظم، ولم نرها ألقت إحدى تلك الطوامير، وبقّت الأخرى.» [5].

٢٢- الطَّبَرْزينات: * «ثم من العيّ نُصُب المساحي والمرور والقُدُم والمعاول والمناجل والطَّبَرْزينات ثم يكون من ذلك نُصب السّكاكين والسيوف والمشامل.»[6]. ويذكر المحققان: «الطّبَرْزين: هو الفأس كان يُستعمل في القتال عند الفرس، مركب

(١) البخلاء، ١٢٥/١.

(٢) عن اللقاني، ص٨٥.

(٣) الحيوان، ٩١/١.

(٤) نفسه، ١/ ١٥٣.

(٥) الحيوان، ٧/ ١٢٧.

(٦) نفسه، ١٧٩/٧.

من كلمتين: (تير) و(زين) بمعنى السّرج. سمي بذلك لالتزام وضعه بجانب السرج.».

٢٣- العماريس: * «فأين أنتم عن العماريس»[1]. والعماريس: جمع عُمْروس وهو الجدي. وذكر اللسان أنّ اللفظة شامية.

٢٤- الفانيذ: * «فقد رأيتُ صاحب سَفَطٍ قد اعتقد مئة جريب في أرض العرب.. ثم قال: اشتكيت أيامًا صدري من سُعال كان أصابني، فأمر قوم بالفانيذ السّكري.. وبالنّشَاسْتَجْ..» [2]. جاء في شرح المحققين: «الفانيذ: ضرب من الحلواء، معرّب». وفي القاموس المحيط: «البانيد: نوع من الحلواء، معرب (بانيد)». وذكر الأب نخلة: «فانيد: نوع حلوى يصنع بدقيق الشعير والتّرنجبين والسكر. فارسيته: (بانيد)» [3].

٢٥- الفلور: *«والفلور الذي يحتال لخصيته، حتى يريك أنّه آدر. وربّما أراك أنّ بها سرطانًا أو خُراجًا أو غَرَبًا.. أو ربما أرى ذلك في دبره بأن يدخل فيه حلقوما ببعض الرئة، وربما فعلت ذلك المرأة بفرجها»[4]. قال السامرائي: «هذا من الكلام الخاص الذي حفلت به مؤلفات الجاحظ، ولم تذكره كتب اللغة»[5]. جاء في اللسان: «فلر: الفلاورة: الصيادلة، فارسيّ معرّب». أي إنّ (فَلْوَرَ) يبدو أنّها مفرد (فلاورة).

---

(١) نفسه، ٤٦٢/٥.

(٢) البخلاء، ١/ ٦٦.

(٣) غرائب اللغة العربية، ص٢٣٩.

(٤) الحيوان، ٨٧/١.

(٥) من معجم الجاحظ، ص٣٢٨.

٢٦- القباء: ثوب يلبس فوق الثياب ويتمنطق عليه[١] . ذكر دوزي في معجمه أنّها فارسية الأصل[٢].

٢٧- القرسطونات: * «وهم أتوكم بالحكمة وبالمنفعة التي في الحمامات وفي الاصطرلاب والقرسطونات.» [٣]. وهو نوع من الموازين الرومانية ينسب إلى صاحبه قاريستون. ذكره السيوطي فيما عرّب من الرومية، وهو القرصطون.. [٤] .

٢٨- الكاز: * يقول الجاحظ متحدثًا عن الحيّة: «نابها يُقطع بالكاز، فينبت حتى يتمّ نباته في أقلّ من ثلاث ليال.» [٥]. والكاز: هو المقصّ بالفارسية. وقد استعمل الجاحظ المقابل العربي في مكان آخر من البيان: «فلتكن الدنيا في عيونكم أصغر من حُثالة القَرْظ وقُراضة الجلمين» وهو المقصّ يجزّ به أوبار الإبل[٦] .

٢٩- الكامخ: * «فأتوه بخبز وزيتون وكامخ فقال (قاسم): أنا لا أشرب النبيذ إلا على زهومة»[٧]. من المشهّيات، فارسيّ معرّب، أصله: (كامه)، ويجمع على كواميخ[٨].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط.

(٢) انظر : اللقاني، ص٢٠٥.

(٣) الحيوان، ١/٨١.

(٤) انظر: السيوطي: المزهر، ١/٢٦٧؛ واللقاني، ص٤١٥.

(٥) الحيوان، ٤/١١١.

(٦) البيان، ٢/ ٦٠.

(٧) نفسه، ٤ /١٢.

(٨) انظر اللقاني ، ص٧٨. فقد استندت في تحليل موسّع إلى الجواليقي وغيره من اللغويين القدامى والمعاصرين؛ وانظر: غرائب اللغة العربية، ص٢٤٢.

٣٠- الكرابج: * «قصدا لبعض الكرابج فابتاعا من الطعام ما اشتهيا»(١). وذكر المحققان: «الكرابج: جمع كُربُج، معرب من الفارسية «قريق» بمعنى الحانوت. انظر: لسان العرب.». يقول الأب نخلة: «كُرْبج: كُرْبق: جانوت. فارسيته: (كربه)»(٢).

٣١- الكوسج: * «فإنّ سمكًا يقال له: الكوسج غليظ الجلد أجرد يشبه الجري وليس بالجري.. وهذا الخبر شائع عند الأبلة وعند جميع البحريين»(٣). يقول الأب نخلة: «الكوسج: سمك خرطومه كالمنشار. فارسيته: (كوسه)» (٤) .

٣٢- المرقشيشا: * «.. فكنت أشتري المرقشيشا بالغلاء والقداحة الغليظة بالثمن الموجع. وكان علينا أيضًا في صنعة الحرّاق وفي معالجة العُطْبة مؤنة وله ريح كريهة. والحراق لا يجيء من الخرق المصبوغة.. ولا من الخلقان، فكنّا نشتريه بأغلى الثمن.»(٥). المرقشيشا: هو الاسم الذي يطلقه علماء الكيمياء في القرون الوسطى على بعض المعادن الكبريتية التي تقدح النار.. ويرى الكرملي أنّها آرامية (كيماقاشيثا).

٣٣- المهارق: * «والمهارق ليس يُراد بها الصحف والكتب، ولا يقال للكتب: مهارق، حتى تكون كتب ديْن أو كتب عهود وميثاق وأمان» (٦). والمهارق جمع

(١) البيان، ٣/ ٥١.

(٢) غرائب اللغة العربية، ص٢٤٢.

(٣) الحيوان، ٦/٥٥٣.

(٤) غرائب اللغة العربية، ص٢٤٤.

(٥) الحيوان، ٤/٤٥٩.

(٦) نفسه، ١/٧٠.

مُهرق: مصقلة للثياب والورق؛ نسيج من حرير أبيض، يصمّغ ويصقل ثم يكتب عليه. فارسيته (مُهْره). وكانت العرب تصقل الثياب البيض وتكتب فيها كتب العهود. وقال المعجم الوسيط: إنّه فارسيّ معرّب[1].

٣٤- النّشَاسْتَجْ: * «فقد رأيتُ صاحب سَفَطٍ قد اعتقد مئة جريب في أرض العرب.. ثم قال: اشتكيت أيامًا صدري من سُعال كان أصابني، فأمر قوم بالفانيذ السّكري.. وبالنّشَاسْتَجْ..» [2]. رأى الجوهري أنّ "النّشا" هو النشاستج، فارسيّ معرّب حذف شطره تخفيفًا. ويعني مادة لزجة مستخرجة من الحنطة. فارسيته (نشاسته) [3].

٣٥- النَّمَكْسُود: * «من الناس من يشتهي اللحم الغابّ، ومنهم من يشتهي النَّمَكْسُود. وليس بين النمكسود وبين المصلوب اليابس كبير فرق، وإنّما يذبحون الديكة والبطّ والدجاج والدّرّاج من أول الليل ليسترخي لحمها وذلك أوّل التجيّف»[4]. وهو نوع من اللحم فارسيّ بمعنى: المملّح أو المقدَّد[5].

٣٦- الهاون: * «ويدع دقَّ الثوب، والدقَّ في الهاون والمنحاز.» [6]. الهاون: يسمّى المنحاز والمهراس (والمهراس من العامية العراقية). والهاون: يرى الجواليقي أنّه

(١) انظر : غرائب اللغة العربية، ص٢٤٦.

(٢) البخلاء، ١/ ٦٦.

(٣) غرائب اللغة العربية، ص٢٤٧.

(٤) الحيوان، ١/٢٢٩.

(٥) انظر: اللقاني، ص٩٧.

(٦) البخلاء، ٨٤.

أعجميّ معرّب. ويضيف الأب نخلة: فارسيته (hâvan)[1].

٣٧- برنكان: * «سكر زبيدة ليلة فكسا صديقًا له قميصًا، فلما صار القميص على النّديم خاف البدوات، وعلم أنّ ذلك من هفوات السّكر، فمضى من ساعته إلى منزله فجعله برنكانًا لامرأته»[٢]. فسّر القاموس البرنكان بأنّه: الكساء الأسود، ويقال له: البركان والبركانيّ. وذكر الجواليقي أنّه الكساء مطلقًا، وأنّه بالفارسية[٣].

٣٨- بهط: * «وقد أُتيتم بِبَهَطَّةٍ ، أو بجُوذابة، أو بعصيدة، أو ببعض ما يجري في الحلق ولا يُساغ بالماء.. وهو طعام يد لا طعام يدين..»[٤]. جاء في شرح المحققين: البهطّ: الأرز يطبخ باللبن والسمن، معرب من الهندية. معرب، هنديته: «بهتا». فالكلمة هندية أو كما يقول الخوارزمي: «إنّها سنديّة»، ثم دخلت الفارسية ومنها إلى العربية[٥].

٣٩- تبليا: * «فطلبوا في الجيران إنسانًا يصعد تلك النّخْلة.. فلمّا جاء به ونظر إلى النخلة قال: «وهذه لا تُصعد ولا يُرتقى إليها إلا بالتَبِليا والبَرْبند.»[٦]. تبليا: قد تكون آرامية بمعنى المصعد من الحبال. والكلمة شائعة في جنوب العراق، وتلفظ الآن: (تِبَلْيَة). يقول السامرائي: «هي أداة من حبال مضفورة محبوكة لتسلّق النخل.. وقد

(١) المعرب، ص٣٩٤؛ وانظر: غرائب اللغة العربية، ص٢٤٨.

(٢) البخلاء، ١/٧٢.

(٣) المعرّب، ص١٠٤؛ وانظر: غرائب اللغة العربية، ص٢١٩.

(٤) البخلاء، ٢/ ٥٢.

(٥) انظر: اللقاني، ص١١٣.

(٦) البخلاء، ٢١٢.

أشار المستشرق فرنكل (Frankel) إلى أصلها الآرامي..» [1].

٤٠- جيسوان: * «فمررنا بناطور على نهر الأُبُلّة، ونحن تعبون. فجلسنا إليه، فلم يلبث أن جاءنا بطبق عليه رطب سكّر وجَيْسُوان أسود..» [2]. جاء في شرح المحققين: الجيسوانة: نخلة عظيمة الجذع تؤكل بسرها خضراء وحمراء. فإذا أرطبت فسدت. وأصلها من فارس.

٤١- جردقان: * «كان في غداة كلّ جمعة يحمل معه منديلاً فيه جردقان، وقطع لحم سكباج.. وصُرّة فيها .. أُشنان..»[3]. يقول حسن ظاظا: «جردق: وهو رغيف الخبز، ونطقه الفارسيّ (كرده)». وكذلك يذهب نخلة اليسوعي: «جردق، جردقة: رغيف، فارسيته: (كرده)» [4].

٤٢- الحب: * أورد الجاحظ شعراً لأبي الشمقمق فيه:

وإذا العنكبوت تغزل في دفّي وحُبّي والكوز والقِرْقارَةِ[5]

والحب: الجرّة الضخمة. فارسي معرب أصله (خنب)[6].

٤٣- خاتون: * «ولولا علمي بضيق صدرك؛ ولولا أكون سببًا لتلف نفسك، لعلّمتك الساعة الشيء الذي بلغ بقارون، وبه تبنّكت خاتون..» [7]. وجاء في شرح

---

(١) من معجم الجاحظ، ص ٥٥.

(٢) البخلاء، ٢/١٥٥.

(٣) البخلاء، ١/ ٥٦.

(٤) الساميون ولغاتهم؛ وغرائب اللغة العربية، ص٢٢٢.

(٥) البخلاء، ٢/١٣٨.

(٦) معجم الجاحظ، ص٩١.

(٧) البخلاء، ١/ ٩٠.

المحققين: الخاتون: العظيمة من نساء الترك أو الرّوم.

٤٤- خيشة:* يقول الجاحظ: «خَيْشَتي أرض، وماء خيشتي من بئري، وبيتي أبرد ، ومؤنتي أخفّ وأنا أفضلهم أيضًا بفضل الحكمة وجودة الآلة.» (١). ويقول: «لو كانوا إذا جلسوا في الخيوش، واتّخذوا الحمامات في الدور، وأقاموا وظائف الثلج والريحان..» (٢). والخيش: يبدو أنّها نوع من الجواسيق يجلس فيه صيفًا. وقد تكون مأخوذة من الكلمة الفارسية (كاشان) أي بيت الصيف. لا بمعنى القماش الغليظ المتخلخل. لكنّ المعنى المراد في نصّ الجاحظ قد يكون: المروحة وهي شبه شراع للسفينة، تعلّق من سقف البيت، ويشدّ بها حبل يدار بها، وتبلّ بالماء وترشّ بماء الورد(٣).

٤٥- دار صيني: * «فدخلت عليه يومًا وإذا قدامه قطع دارصيني لا تسوى قيراطًا..»(٤). من الأفاويه.. شبيه بالقرفة. فارسيّ، تأويله بالفارسية: شجر الصين(٥).

٤٦- سرّنوى: * «أو ليست الفأر والجرذان هي التي تأكل كتب الله تعالى، وكتب العلم،.. وتقرض الثياب الثمينة وتطلب سرّنوى القطن وتفسد بذلك اللّحُف، والدواويج والجباب، والأقبية والخفاتين...» (٦).

---

(١) نفسه، ٢/٣-٤.

(٢) نفسه، ١٠٢، ٣٥٥.

(٣) انظر: اللقاني، ص٤٠٠.

(٤) البخلاء، ٢/ ٤٣.

(٥) ابن مراد : المصطلح الأعجمي، ٢/٣٦٨؛ وانظر: الأب نخلة، ص٢٢٦.

(٦) الحيوان، ٥/٣٢٢.

٤٧- سكباج: * «يختارون السِّكباج لأنّه أبقى على الأيّام، وأبعد من الفساد»[١]. جاء في شرح المحققين: السّكباج: لحم يطبخ بخلّ. معرّب. ويذكر الأب نخلة أنّ أصل الكلمة فارسيّ مكونة من (سركه: خلّ)، و(با: مرق) [٢] .

٤٨- صولجان: * «ومثل الطّبطاب والصّوالجة الكبار، ثم رمى المجثمة، والبُرْجاس، والطائر الخطاف. فنحن أحقّ بالأثرة وأولى بشرف المنزلة.» [٣]. يقول الأب نخلة: «صولجان: فارسيتها جوكان»[٤].

٤٩- طسّوج: * «كان غلام صالح بن عفان يطلب منه نِفْطًا لبيت الجمار بالليل. فكان يعطيه كلّ ليلة ثلاثة أفلس – والفلوسُ أربعةٌ طسُّوجٌ- ويقول: طسّوج يفضل وحبّة تنقص، وبينهما يرمي الرامي.» [٥]. ويقول القاموس المحيط: هو ربع دانق، معرّب.

٥٠- فالوذقا: * «كان لنا جار. وكان له عرس. فجعل طعامه كلّه فالوذقا..»[٦]. جاء في شرح المحققين: «الفالوذق والفالوذ: حلواء تعمل من لبّ الحنطة. فارسيّ معرّب»؛ وذكر الأب نخلة: «فالوذج: حلوى من دقيق وماء وعسل. فارسيته: فالوده: معصور»[٧].

(١) البخلاء، ١/ ٥٥.

(٢) غرائب اللغة العربية، ص٢٣٤.

(٣) البخلاء، ص٢٧٦.

(٤) غرائب اللغة العربية، ص٢٣٨.

(٥) البخلاء، ٢/ ٥١.

(٦) نفسه، ٢/ ٥٦.

(٧) غرائب اللغة العربية، ص٢٣٩.

٥١- نشوار: * «في شركه على السكان أن يكون له روث الدابة، وبعْر الشاة، ونِشْوار العَلوفة.. وألاّ يخرجوا كُساحة..» [١]. نشوار: ما أبقته الدابة من علفها. فارسيّ[٢].

٥-٢- ما ذكر الجاحظ أصوله الأعجميّة:

١- ابردس: *«والمجوسيّ يزعم أنّ الأرض أحد الأركان التي تنبني الأنواع الخمسة عليها بزعمهم: البرساس، والبرماس، وابردس، وكارس، واسرس..» [٣].

٢- الأزاد مردية: *«الشعوبية والآزاد مردية، المبغضون لآل النّبيّ ﷺ وأصحابه، ممن فتح الفتوح وقتل المجوس، وجاء بالإسلام، تزيد في خشونة عيشهم، وخشونة ملبسهم، وتنقص من نعيمهم، ورفاعة عيشهم. وهم أحسن الأمم حالاً مع الغيث، وأسوؤهم حالاً إذا خفّت السحاب..» [٤]. جاء في شرح المحقّقين: الآزد مردية: نسبة إلى آزاد مرد. وهم طائفة لها رأي الشعوبية، شديدة التعصب للفرس.

٣- اسرس: *«والمجوسيّ يزعم أنّ الأرض أحد الأركان التي تنبني الأنواع الخمسة عليها بزعمهم: البرساس، والبرماس، وابردس، وكارس، وحريرة آمن. وبعضهم يجعل العوالم ستّة، ويزيد اسرس، ولذلك لا يدفنون موتاهم..» [٥] .

٤- اشترموك: * «قال في النّعامة: إنّها لا طائر ولا بعير.. وسمّاها فارس:

(١) البخلاء، ١/١٤٥.

(٢) غرائب اللغة العربية، ص٢٤٧.

(٣) الحيوان، ٣/٥٣٩-٥٤٠.

(٤) نفسه، ٢/ ٢٠٢-٢٠٣.

(٥) نفسه، ٣/٥٣٩-٥٤٠.

(اشتروك) كأنّهم قالوا: هي طائر وبعير»[1]. ويذكر رفائيل نخلة مصطلحًا شبيهًا هو: اشتُرغاز، ويقول: هو نبات ترعاه الإبل مكوّن من : اشتر: (جمل)، و(كاز) عضّة[2].

٥- أشترنج: * «ألا ترى أنّ أهل المدينة لمَّا نزل فيهم ناس من الفرس من قديم الدّهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسمون.. الشطرنج الأشترنج، في غير ذلك من الأسماء»[3]. وهي أسماء فارسية.

٦- الباذروج: * «ويسمي أهل الكوفة الحَوْك الباذروج، والباذروج بالفارسية، والحوْك كلمة عربية»[4] .

٧- البالْ: * «..وكذلك أهل الكوفة فإنّهم يسمّون المِسحاة بالْ، وبالْ بالفارسية»[5].

٨- البانوان : * «لم يبق في الأرض مخطرانيّ... ولابانوان، ولا قرسيّ..» [6]. ويشرح الجاحظ (البانوان) بقوله: *«الذي يقف على الباب ويسُلُّ الغَلْقَ ويقول: بانوا.. وتفسير ذلك بالعربية: يا مولاي» [7]. ويذهب السامرائي إلى أنّ (بانوان)

---

(١) الحيوان، ٤/١٢٥.

(٢) غرائب اللغة العربية، ص٢١٦.

(٣) البيان، ١/ ١٩-٢٠.

(٤) نفسه، ١/ ١٩-٢٠.

(٥) نفسه، ١/١٩.

(٦) البخلاء، ١/ ٨٦ .

(٧) نفسه، ١/ ٩٧. الغلق : ما يغلق به الباب، وسلّ الغلق: انتزاعه. وبانوا: تنبيهًا لأهل المنزل.

كلمة فارسية معناها (يا مولاتي) من (بانو) الفارسية بمعنى (سيّدة) [1] .

٩- البرجاس: * «ولنا صنعة السّلاح من لبد وركاب ودرع ولنا ممّا جعلناه رياضة وتمرينًا وإرهاصًا للحرب، وتثقيفًا ودربة للمحاولة والمشاولة وللكرّ بعد الكرّ مثل: البوق والنَّزْو على الخيل صغارًا، ومثل الطّبطاب والصّوالجة الكبار، ثم رمي المجثمة، والبُرْجاس، والطائر الخطاف. فنحن أحقّ بالأثرة وأولى بشرف المنزلة»[2].

والبرجاس: غرض في الهواء على رأس رمح ونحوه، وهي من الفارسية. من برجيس وهو نجم المشتري. وقيل: من اليونانية (purgas) وعربيته: الهدف والغرض[3].

١٠- البرساس: * «والمجوسيّ يزعم أنّ الأرض أحد الأركان التي تنبني الأنواع الخمسة عليها بزعمهم: البرساس، والبرماس، وابردس، وكارس، وحريرة آمن. وبعضهم يجعل العوالم ستّة، ويزيد اسرس، ولذلك لا يدفنون موتاهم..» [4] .

١١- البرماس: *«والمجوسيّ يزعم أنّ الأرض أحد الأركان التي تنبني الأنواع الخمسة عليها بزعمهم: البرساس، والبرماس، وابردس، وكارس.. اسرس،..»[5] .

١٢- البزستوج: *«وأعجب من جميع قواطع الطير قواطع السمك الأشبور، والجران، والبزستوج، فإنّ هذه الأنواع تأتي دجلة البصرة، من أقصى البحار،

(١) السامرائي: من معجم الجاحظ، ص ٤٩.

(٢) نفسه: ص٢٧٦.

(٣) نفسه، ص٢٧٦؛ وانظر: غرائب اللغة العربية، ص٢١٨.

(٤) الحيوان، ٣/٥٣٩-٥٤٠.

(٥) نفسه، ٣/٥٣٩-٥٤٠.

تستعذب الماء في ذلك الإبّان.. البزستوج يقبل إلينا قاطعًا من بلاد الزنج»(١) .

١٣- الخربز: * «ألا ترى أنّ أهل المدينة لَّما نزل فيهم ناس من الفرس من قديم الدّهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسمون البطيخ الخربز»(٢). ويعلّق الجاحظ: «هي أسماء فارسية». ويقول الأب نخلة: «خربز: بطيخ أصفر اللون. فارسيته خربوزه»(٣).

١٤- الخيار: * «ويسمّون القثاء خيارًا، والخيار بالفارسية»(٤).

١٥- الرّزدق: *«ألا ترى أنّ أهل المدينة لَّما نزل فيهم ناس من الفرس من قديم الدّهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسمون السميط الرَّزدق». ويعلّق الجاحظ: وهي أسماء فارسية(٥) .

١٦- المزور: * «ألا ترى أنّ أهل المدينة لَّما نزل فيهم ناس من الفرس من قديم الدّهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك.. يسمون المَصوص المَزور». ويعلق الجاحظ: هي أسماء فارسية(٦).

١٧- أهرمن: * «وتزعم المجوس أنّ أهرمن، وهو إبليس، لما جلس في مجلسه أول الدهر ليقسم الشرّ.. كانت العظاة آخر من حضر..» (٧).

---

(١) الحيوان، ٣/٤٩٤.

(٢) البيان، ١/١٩.

(٣) غرائب اللغة العربية، ص٢٢٥.

(٤) البيان، ١/ ١٩-٢٠.

(٥) نفسه، ١/١٩؛ وانظر: غرائب اللغة العربية، ص٢٣٠.

(٦) نفسه، ١/ ١٩.

(٧) الحيوان، ٦/٥٦٠.

١٨- بارامان: * «والبوم عند أهل مرو، يتفاءل به، لأنّ اسمه بالفارسية «بارامان» يريد: تبقى، وبالعربية خلاف، والخلاف غير الوفاق»[١] .

١٩- بستندود: * «صار سببًا لطلب العصيدة والأروّة والبستندود»[٢]. ذكر المحقّقان: بستندود: هي فارسية تدل على ذلك النوع من الفطائر المحشوّة.

٢٠- بشكور: * «والإنسان رديء الإبصار بالليل، والذي لا يبصر منهم بالليل، تسميه الفرس: بشكور، وتأويله أنّه أعمى بالليل، وليس له في لغة العرب اسم، أكثر من أنّه يقال لمن لا يبصر بالليل هديد، ما سمعت إلا بهذا» [٣]. يذكر الأب نخلة هذه الكلمة بتقديم الشين (شبكور)، ويقول: هو بالفارسية الذي لا يرى في الليل، مكونة من (شب: ليل)، و(كور: أعمى)[٤].

٢١- بلغم: * «كتسمية الطبيب للبحح المصحوب بالمخاط باللفظ اليوناني الدخيل: بلغم»[٥].

٢٢- تاردادو: * «وأنّ الذي يُسمى بالفارسية «تاردادو» كالسوس والقوادح والأرضة..»[٦].

٢٣- الجهارسوك: * «وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها مربّعة،

(١) الحيوان، ٥٧٣/٣.

(٢) البخلاء، ٦٣/١.

(٣) الحيوان، ٣/ ٦٠٣.

(٤) غرائب اللغة العربية، ص٢٣٦.

(٥) البيان، ٤/٢.

(٦) الحيوان، ٥٤٠/٣.

ويسميها أهل الكوفة الجِهارسوك، والجهارسوك بالفارسية»[١] ..

٢٤- روزسهر هار: * «وهم (المجوس) يسمّون يوم القيامة «روزسهر هار» كأنّه يوم تقوم الجِيَف..»[٢] .

٢٥- شتركا وبلنك: * «والزرافة تكون في أرض النوبة فقط، وهي تسمى بالفارسية (شتركا وبلنك)، كأنّه يعني بقرة لاكان وهو البقر، واشتر: الجمل، وبلنك هو الضبع. فزعموا أنّ الزرافة ولد النّمر من الجمل»[٣].

٢٦- كارس: *«والمجوسيّ يزعم أنّ الأرض أحد الأركان التي تنبني الأنواع الخمسة عليها بزعمهم: البرساس، والبرماس، وابردس، وكارس.. اسرس،..»[٤].

٢٧- كاومش: * «والبخت هي ضأن الإبل، منها الجمازات، والجواميس هي ضأن البقر، يقال للجاموس بالفارسية: كاوماش»[٥].

٢٨- وازار: * «ويسمّون السوق والسويقة «وازار»، والوازار بالفارسية»[٦].

٢٩- وَيْذي: * «ويسمون المجذوم وَيْذي بالفارسية»[٧].

---

(١) البيان، ١/ ٢٠.

(٢) نفسه، ٣/٥٣٩- ٥٤٠.

(٣) الحيوان، ٧/٦٧٠.

(٤) نفسه، ٣/٥٣٩- ٥٤٠.

(٥) نفسه، ٥/٣٤٢.

(٦) البيان، ١/ ٢٠.

(٧) نفسه، ١/ ٢٠.

٦- خ اتمـ . ـة:

تميّز العصر العباسي بالإبداع والجدّة والتحديث. وكان الجاحظ واحدًا من عناصر هذا الإبداع ولا شكّ، بل مصدرًا من أهمّ مصادره. فالجاحظ قد تمثّل على نحو نادر مكونات ثقافات عصره فصوّرها دون تعصّب واعتبرها كلاًّ متكاملاً في تنوّعها فلم ينحز للعربي على الفارسيّ رغم مواقفه السياسية المعروفة من الشعوبية. فقد استعمل لغة خاصة لم تفرّط في فصاحة العربية ولكنّها تبطن أثرًا مليئًا بمظاهر التطور والحيوية. وتفسير ذلك عاديّ عند الجاحظ وقد عبّر عنه بوجوب جعل النصّ معبّرًا بصدق عن المتكلم.. وهو لا يخفي أنّ هذا المتكلم هو بين فارسيّ وعربيّ متمدّن وروميّ وتركيّ وهنديّ وربّما عربيّ بدويّ..

ولذلك سلّم الجاحظ بأنّ التأثيرات اللغوية الأجنبية حقيقة لا بدّ منها، فلم يشأ أن يخلق نصًّا وهميًّا لمتكلّم غير موجود. ولذلك يلاحظ القارئ عددًا كبيرًا من المفردات الفارسية خاصة ولا يتحرّج الجاحظ من استعمالها مع وجود بدائل عربية لها ولكنّها ليست في مستوى انتشار اللفظ الفارسي بين المتكلمين.. أما في المستوى العلمي فتطغى الألفاظ اليونانية ليكشف مدى إسهام هذه اللغة في إثراء عربية التأليف في لغة العلوم خاصة.

وهذا دليل على تحوّل المستوى الأعجميّ إلى طاقة منتجة في اللغة العربية. فقد سهّل تطويع العربية سواء في نطاق مجالها الداخلي المتمثّل في طاقتها التوليدية أو في نطاق التوليد على المنوال الأعجمي لوجود المناهج النظرية مسبقًا. وبذلك يمكن أن نقول: إنّ أهمية الأعجميّ لا تكمن إذن في خلق العلامة بل في التأقلم معها. وبسبب قدرة الرّصيد اللغويّ للغة ما على التأقلم ومجاراة الأوضاع اللسانية

والاجتماعية في تحوّلها السريع، فإنّ الأعجميَّ يصبح مصدرًا ممكنًا لسدّ حاجات هذا التغيير خاصة في مستوى المعجم.

ونحن نلاحظ في القديم وحتى في الحديث تشدّد نظرة العلماء العرب إليه، فلم ينظروا إليه نظرة لسانية كونية، بينما تثبت أعمال الجاحظ استحالة خلوّ لغة حيّة منه. فلم نره يقيس حاضر العربية بالمواقف الفصاحية المتشدّدة، بل إنّه عالج الظاهرة في نطاق الواقعية اللغوية، فلا مجال لإنكار الواقع؛ ولا مناص حينئذ من درس الأعجميّ باعتباره جزءًا من مكوّنات رصيد العربية في الماضي والحاضر، لفهم عوامله وظواهرها وتعريف التغييرات التي يحدثها وأثر ذلك في تطوّر اللغات.

* * *

الخاتمة العامة

لا نقصد بتقديم هذه القوائم إحصاء ما ولّده الجاحظ، أو كان شاهدًا على توليد عصره له، فهذا فوق هذا الجهد. لكنّنا نرمي إلى إثارة انتباه الباحثين والقرّاء إلى أهمية خطاب الجاحظ على اختلاف مستوياته ومناسباته وظروفه في الالتزام بلغة حيّة مستمدّة من واقع المتكلمين، سواء أكانوا في أسواقهم وبساتينهم ومتاجرهم، أم كانوا في منتدياتهم الفكرية وبحوثهم العلمية، فلغة الجاحظ أعطت لكلّ مقام مقاله المعبّر عنه. وهو ما بدا لنا خطوة مهمّة للبحث في أسس المعجم العربي التاريخي في مرحلة متقدمة تجنّد الجاحظ لوصفها والالتزام بخصائصها. فقد تعدّ مؤلفاته من هذه الزاوية وثائق تاريخية في التأريخ لمرحلة مهمّة من مراحلها. خاصة أنّ بين أيدينا وثائق لرجل شرّع للتطور اللغوي، أو على الأقل عمد إلى واقعية لغوية نادرة، ولكنّها حقيقيّة من حيث التعبير عن حاجات المجتمع وما يميّز لغتهم من مستويات لغوية متّصلة بطبيعة المتكلمين وبيئاتهم وانتماءاتهم الاجتماعية والثقافية وحتى العرقية.

على أنّ البحث في المستويات اللغوية يفضي بالضرورة إلى البحث في خصائص التّطوّر اللغوي. وفي العربية ظلّ هذا المبدأ مقترنًا في القديم وفي الحديث بمفهومين أساسيين، لم يتحكّما فحسب في مسألة تطوّر العربية، بل كيّفا الدّرس اللغوي عامة وهما: مفهوما الفصاحة واللّحن. لذلك سعينا من خلال البحث في المستويات اللغوية عند الجاحظ إلى إثبات قضيّة التطور اللغوي انطلاقًا من أسس مادية، وأخرى نظريّة كشفها الجاحظ وكرّسها فيما كتب. فعلى رغم الاستقرار الظّاهر في مستوى النّموذج، يجد المتتبّع لكتابات الجاحظ تأثرًا واضحًا بقضايا عصره وانتقال كلّ ذلك

إلى اللغة العربية في شكل تقاطع فيه الحاضر مع الماضي والاستعمال مع المنوال.

وكان من نتائج ذلك نشاط تحديثي توليدي ظهر عند الجاحظ في مستوى الدال والمدلول معًا، وهو ما يجعل قابلية الوحدات المعجمية للاتّساع واستيعاب ما لا حدود له من الأشياء والمفاهيم من أهمّ الخصائص التي تميّز الوحدة المعجمية. ذلك أنّ عدد الوحدات المعجمية مهما اتّسع منتهٍ، وهو شرط استعمالها بينما تجارب الإنسان في الكون غير منتهية. وهو ما يستدعي تجديدًا لغويًّا مستمرًّا لخلق توازٍ بين ثنائية التغيّر التاريخي من ناحية، وتكامل الجهاز اللغوي من خلال مختلف الأنظمة الصغرى (الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية)، من ناحية ثانية.

وفي حين ظلّ الدّرس اللغوي التقليدي قائمًا على إجادة القواعد قصد حماية النّموذج الفصاحي، اعتبر الجاحظ التشدّد اللغوي «عائقًا» يحدّ من نزعة اللغة الطبيعية إلى التطوّر. فقد كشفت هذه الدراسة فصلاً واعيًا لدى الجاحظ بين النّظرة الآنية التي لا ترى في اللّغة إلاّ حالة واحدة ثابتة؛ والنّظرة الزّمانية التي تتيح الوقوف على حقيقة التّحوّل اللّغوي في الزّمان، فأظهرت هذه النظرة عنده إحساسًا بأهمية التطور اللغوي لجعل اللغة قابلة للاستمرار وقول ما لم يقل بعد، بما أنّها متواصلة في الزّمن. وقد ذكر من خلال أمثلة كثيرة نماذج من تبدّل العربية الفصيحة بحكم الحاجة وتغيّر الزمان، وبلغ به الأمر أن تحدّث عن تبدّل صورتها الماضية من مرحلة إلى أخرى، وسوّغ لذلك بعوامل داخلية وخارجية. وهو ما يفسّر كيف أنّ مبدأ التّغيّر يقوم

على مبدأ الاستمرارية[1].

ومع أنّ تطوّر العربية قديمًا وحديثًا، تطوّر شامل ومهمّ، فقد لاحظنا أنّ دراسة الجاحظ ترجع في الغالب إلى اجتهادات فردية لا تقوم على جهاز نظري متكامل يعتبر «المستويات اللغوية» مظهرًا حيويًّا من مظاهر تولّد ألفاظ جديدة اعتمادًا على أسس نظرية وقواعد في توليد الدوال والمدلولات الجديدة.

إنّ مفهوم اللغة عند الجاحظ مفهوم قائم على تنوّع المستويات اللغوية، وهو ما يحدّ من صرامة الانغلاق اللغوي، وبذلك يتحوّل التّحليل المعجميّ من اعتماد مفهوم الفصاحة واللّحن، أو الصحة والخطأ، إلى مفهوم الممكن اللغوي وغير الممكن اللغوي، وذلك في شكل مبادئ تحدّد آلية التوليد من خلال شروط الوحدات المعجمية الممكنة صوتيًّا وصرفيًّا وتركيبيًّا ودلاليًّا. وليس في شكل قوائم تنتظر الإثبات لفظة لفظة.

وقد يكون هذا التّصوّر حلاًّ لأزمة التّطوّر اللغوي في العربية حاضرًا ومستقبلاً ويقلّل من اعتباطية ثنائية «فصيح / ملحون». ويؤول إلى إحداث تطابق بين نموّ اللغة ونموّ المعجم. وهو المظهر الحقيقي لأزمة العربية المعاصرة.

---

(١) انظر: دي سوسير: دروس، ص١٢٠. ذلك أنّ بنية اللغة ليست أبداً نظامًا مغلقًا بسبب انفتاحها على تطوّر العالم والفكر والتحوّلات الاجتماعية وهو ما يسمّيه (دي سوسير) بالمقابلة بين الفكر الصاعد والقوّة الآسرة، حتى بات من مهامّ اللسانيات اليوم وضع نظرية للتّطوّر اللغوي من خلال تحديد طبيعة التّنظيم المعجمي بغية فهم حقيقة التطوّر فيه ووضع قواعد ومبادئ منهجية له، لتصل بالوصف المعجمي إلى مستوى الأعمال اللّسانية التي تملك قوانين خاصة بها تدرس مظاهره من خلالها، ويكفّ عن كونه مجرّد مرآة لحالة الرّصيد اللغوي في مرحلة ما.

لكنّ ذلك لا يتأتّى إلاّ بالخروج من النّظام الآني للّغة لتناول التّاريخ؛ وفي ذلك تحديد مضاعف لا ينبغي لنا فيه أن نقصي العوامل الداخلية والخارجية للمتكلّمين، بما أنّ الكلمة هي في النّهاية نتيجة لضغط التاريخ على النّظام. أي إنّ الحدث التاريخي هو الذي يحيي المقدرة الإبداعية الكامنة في النّموذج. ويبدو حينئذ كلا الضربين من العوامل الخارجية والداخلية ضروريًّا. ولكن أيّ واحد منهما ليس كافيًا. بل إنّ تقاطعهما هو الذي يخلق الكلمة الجديدة.

لهذه العوامل بدت مؤلفات الجاحظ مصدرًا قادرًا على تقديم وصف تطبيقي لنماذج من تطور العربية .. فحاولنا أن تكون دراستنا معالجة تطبيقية لما يمكن أن تكون عليه دراسة لغوية معاصرة في تطوّر الدلالة. وقد حرصنا على عدم فصل المفردات عن واقعها وسياقها حتى نحافظ على واقعيتها وتوظيفها الحيويّ توظيفًا يجنّبنا الإسقاط والقراءة الخاصة.. وقد استعنّا في ذلك ببعض المفاهيم اللسانية في مجال الدرس الدلالي خاصة منها التوجّه الاجتماعي والتاريخي، بحيث لم ينصب تحليلنا على كشف مظاهر التطور الدلالي فحسب ولكن شمل جزءًا من قواعده التي يمكن التعويل عليها في دراسة نموّ اللغات الحية.

وقد اعتمدنا على نصوص تمثّل إحدى مراحل التطوّر الفكري والثقافي العربي ربّما افتقدته العربية منذ حينه، ونقصد به أعمال الجاحظ التي نعمت بحرية ثقافية وفكرية وحتى دينية وأخلاقية جعلت من الممكن أن تنعكس كثير من مظاهر الجدّة والتطور في كتابات الرجل فكرًا وإنشاءً ولغةً.. نعم فاللغة من أشدّ نتائج الحرية بروزًا وانعكاسًا على جميع مظاهر الحياة.

ولا شكّ أنّ لثقافة أبي عثمان الواسعة التي أحاطت بأغلب ألوان المعرفة الذائعة

في عصره ما ميّز نظرته العلمية الناقدة بما استقام لها من أسس معرفية قائمة على تغليب العقل ونبذ التكرار والنقل، ومن هذه المجالات اللغة.. فقد أفاد من تجارب الأمم، وخبر آداب الشعوب المحيطة وفلسفتها وغاص بعقله العميق في منازعها ومناهجها فوقف على خصائص اللغات عامة. فلم ينظر إلى العربية نظرة أحادي اللغة، بل عالجها علاج المتمكن من أكثر من لغة العارف بحقائق التطور ..

من هنا يمكن أن نفهم مواقفه اللغوية. فكان اتّساعه في العربية يفوق اتّساع غيره من اللغويين حتى قيل: «فقد استبطن من أسرارها ما يقلّ استبطان مثله على غيره، وعرف طوائف من الألفاظ تصلح في الأدب، وأخرى تصلح في الزراعة، وغيرها للصناعات وأعمال الحياة، وغيرها للمسائل الدينية؛ عدا ما خُصّ بمعرفته من الألفاظ الصالحة لكلّ شأن، وكان عارفًا بما يختار ويطرح من كلّ شيء.»[1].

وقد أفضى بنا البحث في آراء الجاحظ اللغوية وقيمة آثاره في وضع رصيد معجم العربية التاريخي، إلى البحث في خصائص التّطوّر اللغوي عامة وفي العربية خاصة. فقد ظلّ هذا المبحث مقترنًا في القديم وفي الحديث بثنائية الفصاحة واللّحن. لذلك لم نهمل في عملنا البعد النّظريّ لمفهوم الوحدة المعجمية القائمة أساسًا على مبدأ التّطوّر من ناحية، وضرورة الاستقرار في مستوى النّموذج، من ناحية أخرى. إلى جانب الاهتمام بالمعالجة اللغوية التاريخية لنماذج من معجم الجاحظ قصد معاينة مدى تأثّرها بتقاطع التّاريخ مع المنوال، وصلة كلّ ذلك بقواعد التّوليد اللغوي

(١) أبو عثمان الجاحظ، ص١٠٠.

بمظهريْه الشّكليّ والدّلالي(١). فإنّ في الرّبط بين مظاهر التّطوّر إبرازًا لأهمية النّشاط التوليدي في حركة نموّ اللغة في مستوى الدّالّ والمدلول معًا، يجعل قابلية الوحدات المعجمية للاتّساع واستيعاب ما لا حدود له من الأشياء والمفاهيم من أهمّ الخصائص التي تميّز الوحدة المعجمية. ذلك أنّ عدد الوحدات المعجمية مهما اتّسع منتهٍ، وهو شرط استعمالها بينما تجارب الإنسان في الكون غير منتهية. وهو ما يستدعي تجديدًا لغويًّا مستمرًّا لخلق تواز بين ثنائية التغيّر التاريخي من ناحية، وتكامل الجهاز اللغوي من خلال مختلف الأنظمة الصغرى(الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية)، من ناحية ثانية.

ومع أنّ تطوّر العربية قديمًا وحديثًا، تطوّر شامل ومهمّ، فإنّ دراسته ترجع في الغالب إلى اجتهادات فردية لا تقوم على جهاز نظري متكامل يعتبر «التوليد اللغويّ» مبحثًا لغويًّا يختصّ بقواعد تولّد الألفاظ الجديدة في المعجم، ويخضع لأسس نظرية وقواعد في توليد الدوال والمدلولات الجديدة. وإليه يرجعون استمرار اللغة في الزّمان، وتطوّرها المطّرد.

لكنّ ذلك لا يتأتّى إلاّ بالخروج من النّظام الآني للّغة لتناول التّاريخ، وفي ذلك تحديد مضاعف لا ينبغي لنا فيه أن نقصي العوامل الداخلية والخارجية للمتكلّمين، بما أنّ الكلمة هي في النّهاية نتيجة لضغط التاريخ على النّظام. أي إنّ

(١) المقصود بالتوليد الشكليّ: ظهور دوالّ جديدة في اللغة عن طريق التوليد الصوتي (ومن قواعده: الإقحام، والتّباين، والتّماثل، والإبدال، والقلب المكانيّ)؛ والتّوليد الصّرفي (ومن قواعده: الاشتقاق، والنّحت، والتّركيب). أما التوليد الدّلالي: فيتمثّل في ظهور مدلولات جديدة دون دوالّ. وتعتمد العربية في ذلك على قاعدتين هما: المجاز والتّرجمة الحرفيّة.

الحدث التاريخي هو الذي يحيي المقدرة الإبداعية الكامنة في النّموذج. ويبدو حينئذ كلا الضربين من العوامل الخارجية والداخلية ضروريًّا. ولكن أيّ واحد منهما ليس كافيًا. بل إنّ تقاطعهما هو الذي يخلق الكلمة الجديدة.

فإذا نظرنا في العوامل الدّاخلية للتّطوّر اللغوي أدركنا إمكان ضبطها في اتّجاهين:

أ- الأول متأتّ من الحاجة إلى القياس الذي يميل إلى أقلمة مثالية للنّحو مع المنطق، بحذف ما هو غير طبيعيّ في اللغة اعتمادًا على قانون المجهود الأدنى الذي يتجنّب ملء الذّاكرة بمادة زائدة عن الحاجة(١). وهو في ظاهره تأويل جديد يعطى لعلامة أو لمركّب، حسب نموذج لعلامة أخرى أو لمركب آخر سبقت سيطرته في الوعي اللغوي نتيجة خلوّ اللغة المستعملة من ذلك التأويل الجديد، أو بسبب الجهل أو نسيان التّأويل الصحيح إلخ.. على أنّ القياس بنوعيه: الشكلي أو الدّلالي لا يتناول فقط الألفاظ بل هناك "انحرافات" كثيرة في التركيب تفسّر بتقاطع شكلين(٢).

لكن في جميع اللغات هناك أشكال تستعصي عن القياس ولهذا تسمّى شاذّة، وتظلّ خارج القياس. ويعود بقاؤها ثابتة على شذوذها لتواتر استعمالها الذي يحافظ على بقائها في الذاكرة ولا يسمح بتبديلها. فهي تفرض نفسها بخصوصياتها الفردية دون أن تكون قادرة هي نفسها على أن تكون نماذج أو تصلح نقطة انطلاق لعمل قياسي. فالمتكلّم الذي يتقن العربية عندما يقول (امرأة مرضع) وليس (مرضعة)، فذلك راجع حتمًا إلى أنّه تلقّى معلومات عن مبادئ تصريف أغلب المشتقات

(١) Vendryes: Le langage, p. 179.

(٢) Frei: la grammaire des fautes, p. 49.

وحفظ مجموعة من المقاييس والقواعد ولا يستطيع إلاّ أن يعيدها.. غير أنّ تأنيث الاستعمال اليوم لبنية (مرضعة) ليس فيها ما هو غير طبيعيّ فهي مقيسة على (مسلمة) و(مطربة).. لكنّ وجه الخطأ فيها هو عدم قياسية تأنيثها في مثل: (طالق) و(ناشز) و(حائض)... لأنّها جميعًا من خصائص الأنثى ولا يحتاج التّصنيف الفكري إلى تأنيثها لعدم وجود تقابل في هذه الصّفات بين الجنسين. والمشكل يطرح عندما نرى بنية (مرضعة) تحدث شذوذًا بالمقارنة مع البنى الصحيحة، ومع ذلك فهي تسير نحو التّقييس كما هو الحال في العربية الحديثة.

إذن هناك صراع بين الشّذوذ والقياس أو بين البنية والدّلالة. والغريزة القياسية تحاول امتصاص الشّذوذ الصرفي بإرجاعه إلى القاعدة الأكثر انتشارًا كإفراد كلمات لا تستعمل في بنيتها الفصيحة إلاّ مثنّاة مثل (مقصّ، حذاء، خفّ..). هذه الحوادث اللغوية لا تستحقّ أن تُخطّأ أو تُدان بل نعتبر أنّ لها عمومًا أسبابًا أوجدتها فهي استجابة لتوجّه عضوي في النّظام: وهو الحاجة إلى تحديد الاعتباطية بتبرير المجهول بالمعلوم. لكن هذا الاتّجاه إلى التّقييس لا يحصل بالضرورة بحذف كلّ ما هو غير منتظم. فتسوية شذوذ (امرأة مرضع) في مستوى البنية يخلق بدوره شذوذًا في مستوى النّحو كما بيّنّا. وهو ما يجعل اللغات لا تصل أبدًا إلى مستوى التوازن الخالي من كلّ شذوذ. على أنّ ما هو غير منتظم في اللغة يمكن أن يولّد ما هو منتظم بشكل مفارق، وهو المبدأ الأساسيّ الذي بدونه لا يمكن أن تُدرك اللغات ولا تصلح لقول ما لم يُقلْ من قبل.

ب- والثاني متأتّ من الحاجة إلى التعبيرية (le besoin d'expressivité)، فعندما نعالج اللغة من وجهة النّظر التطوّرية نلاحظ أنّ الاستعمال اللغوي يكشف

عن مرور متواصل للعلامة من علامة ذات قيمة تعبيرية إلى علامة مبتذلة. وهو ما يمكن تسميته بقانون البلى (l'usure) أي: بقدر ما تستعمل العلامة باستمرار، فإنّ الانطباع المرتبط بشكلها وبمعناها يفتر (وهذا ما يحوّلها إلى الابتذال). هذا التّطوّر يقابله من وجهة نظر وظائفية، مرور في اتّجاه معاكس، فكلّما بليت العلامة فإنّ التعبيرية تبحث لها عن تجديد دلالي وشكليّ"[1]. وتقوم أحيانًا بدور التورية. فالأطباء مثلاً تخلّوا عن كلمة «عملية جراحية» لأنّها تخيف المريض، وعوّضوها بكلمة «تدخّل»، وهي بجدّتها واتّساع معناها لا تثير قلق المريض. كما نلاحظ أنّ الخطاب السياسي كثيرًا ما يلجأ إلى تعويض الكلمات ذات الدلالات المرفوضة بعبارات جديدة: مثل تعويض «المناطق المحرومة» بـ «مناطق الظّل»... وهنا التورية ليست إلاّ شكلاً لطيفًا وثقافيًّا لما يعرف بالكلمات الممنوعة أيضًا.

وإذن فإنّ التّوليد هو مرور من المنهج التقليدي إلى التعبيرية الخالصة. وحسب (دي سوسير) فإنّ اللغة مؤسّسة على نظام تقابل المعروف والمخالف، والحاجة إلى التعبيرية تميل دائمًا إلى تعويض المقابلات العادية بمقابلات جديدة محمّلة بما هو غير متوقّع تثير انتباه السّامع وتحرّك فيه حدًّا أدنى من الانتباه. هذه المقابلات الجديدة التي يحدثها جوهر «التعبيرية» يمكن أن تمتدّ إلى شكل العلامة ودلالتها. وبالجملة فالأحداث التي تؤسّس اللغة البليغة يمكن اعتبارها مجموعة من التّغييرات (déformations) القوية والواعية التي يحدثها المتكلم دون أن يشعر بأنه يخرق نظام اللغة.

---

(١) Ibid, p. 233.

أمّا النّظر في العوامل الخارجية لهذا التّطوّر فيقوم على اعتبار اللغة مؤسّسة منصهرة في المجتمع وخاضعة لقانون نموّه. ومن هنا فإنّ تحوّل البنى الاجتماعية يتجسّد عن طريق تغيّر العوامل التي من خلالها يتطوّر الكلام. وأوّل هذه العوامل الإنسان نفسه، فإنّ دور المتكلّم ليس من السّهل تقدير تأثيره في تطوّر اللغة. فهو عنصر من خارج اللغة واستعماله لها هو حتمًا تطوير لها. وإذا ما عرفنا أنّ المجتمع يصنع لغته بالطريقة التي تتحدّد بها حاجاته اللغوية، تبيّنا أهمية العامل الاجتماعي في تغيير المعجم لأنّه يضاعف الأسباب والعوامل التي تؤثّر في الكلمات. فالعلاقات المهنية والاجتماعية ومختلف الأدوات الاقتصادية والثقافية.. تشارك جميعًا في تحويل المعجم برفض الكلمات القديمة أو بتحوير دلالتها وتدعو إلى توليد أخرى جديدة. كما أنّ البلى الذي يصيب المفردات راجع في الغالب إلى تأثير الوسط الاجتماعي الذي تستعمل فيه.

ولذا يمكن أن نبحث في نطاق المظهر الاجتماعي عن قضية تجدّد المفردات. فتحقيق تقدّم في ميدان الصناعة يترجم عنه باستعمال آلات أو أدوات جديدة ومفاهيم حديثة تقابلها اللغة بتوليد كلمات جديدة مناسبة. وتحوير أدوات العمل ينعكس بطبيعة الحال في المعجم. وهو ما يؤدّي إلى استنتاج تواز إبداعيّ في مستوى الاختراع وفي مستوى اللغة يسمح بوضع رابط بين سبب ونتيجة (cause et effet) أي بين شكلي الإبداع: الاختراع العلمي والتقني، والخلق الكلامي(١). ذلك أنّ تقدّم المعارف وتطوّر علوم الطبيعة والإنسان وتنوّعها هي بالضرورة ينابيع لحركة

(١) Guilbert: La créativité lexicale, p. 81.

وتغيّر لغويّ عن طريق تسمية الأشياء والمفاهيم الجديدة.

ويمكن أن نضيف إلى هذا العامل الخارجيّ الاقتراض بضربيه: الضروري والبذخيّ كما رأينا. وهو في الحالين من ثمار العلاقات الخارجية التي تؤدّي ضرورة إلى التّداخل اللغوي.

على أنّ ما يوضع في الغالب موضع تساؤل في الدّرس اللغوي العربي إلى عهد قريب في قضية التّطوّر اللغوي أي التوليد هو مفهوم الإبداع اللغوي بحسب قواعد النّظام وسبل تنظيمه والاستفادة منه في تطوير العربية. وهو ما لا يزال ينـزّل منـزلة اللحن ويختلط فيه المجهود التوليدي الطبيعي اللازم لحياة اللغة والتعبير عن واقع متكلميها بخرق قوانين الفصاحة وتدمير خصائص العربية.

وقد كشفت هذه الدراسة عن لغة الجاحظ ومعجمه وموقفه من التطور اللغوي، أنّ ذلك لم يكن إلا عامل قوّة واستمرارية وقدرة على مواجهة التطور وجديد العلوم، وهذه مؤلفات الجاحظ أعظم شاهد على ما نقول.

* * *

المصادر

الجاحظ أبو عثمان:

- الحيوان ج١، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الحلبي، القاهرة، ١٩٤٥. الأجزاء من ٢ إلى ٧ تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط٢، ١٩٧٨.
- البخلاء، تحقيق: أحمد العوامري وعلي الجارم، دار الكتب العلمية، بيروت، جزآن، ٢٠٠١؛ وتحقيق: طه الحاجري، ط. دار المعارف بمصر.
- البيان والتبيين: تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٩٤٨.
- رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام محمد هارون، جزآن، القاهرة، ١٩٦٥.

المراجع

- آل ياسين محمد حسين: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية ق٣، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٠.
- ابن جنّي: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط٢، المكتبة العلمية، القاهرة، ١٩٥٦.
- ابن حسين (هلال): منزلة اللفظ الأعجمي في المعجم العربي الحديث، مجلة المعجمية، ١٠-١١/١٩٩٥.
- ابن خلدون: المقدمة، دار الجيل، بيروت، (د.ت).
- ابن فارس: - معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٣٦٦هـ.
  - الصاحبي، تحقيق: أحمد الصقر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٧٧.
- ابن مراد (إبراهيم): - المعجم العلمي العربي المختصّ، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣.
  - مسائل في المعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧.

– مقدمة لنظرية المعجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨.
– المصطلح الأعجمي في كتب الطبّ والصيدلة العربية، ج٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥.
– ابن منظور (جمال الدّين محمد بن مكرم): لسان العرب، دار صادر، ١٩٩٠.
– أنيس إبراهيم: – في اللهجات العربية، ط٢، القاهرة، ١٩٥٢.
– من أسرار اللغة، ط٧، القاهرة، ١٩٨٥.
– البكّوش، (الطيب):– إشكاليات اندماج الدّخيل في المعجم، مجلّة المعجمية، ٣(١٩٨٧)، ص٤١-٦٠.
– العلاقات بين الألسن ومستوياتها في التراث العربي، مجلة الحوليات، تونس، ١٩٩٥/٣٦.
– ثعلب (أبو العباس): كتاب الفصيح، تحقيق عاطف مدكور، دار المعارف، بيروت، القاهرة، ١٩٨٤.
– الجواليقي (أبو منصور): المعرّب، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط٢، القاهرة، ١٩٦٩.
– الجوهري (أبو نصر): تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، ١٩٨٤.
– الحاجري (طه): الجاحظ: حياته وآثاره، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٢.
– حجازي (محمود فهمي): علم اللغة العربية، دار غريب، (د. ت.).
– الحلواني (محمد خير): أصول النّحو العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٣.
– الحمزاوي (محمد رشاد): – المعجم العربي إشكالات ومقاربات، بيت الحكمة، ١٩٩١.
– العربية والحداثة، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦.
– الخفاجي (محمد عبد المنعم): أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣.

- الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق إبراهيم السامرائي ومهدي مخزومي، مؤسّسة الأعلمي للطباعة، بيروت، ١٩٨٨(٨أجزاء).

- الخوارزمي (أبو عبد الله محمد): مفاتيح العلوم، ط١، القاهرة، ١٣٢٤هـ.

- الدّاية (فائز): علم الدلالة العربيّ، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥.

- رفائيل (نخلة اليسوعي): غرائب اللغة العربية، بيروت، ط٤، ١٩٨٦.

- السامرائي (إبراهيم): من معجم الجاحظ، بغداد، ١٩٨٢.

- السعران (محمود): علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٢.

- سيبويه، (أبو بشر عمرو بن عثمان): الكتاب، تحقيق عبد السّلام محمد هارون، (خمسة أجزاء)، دار سحنون للنّشر والتوزيع، تونس، طبعة خاصة،١٩٩٠.

- سوسير (فردنان): دروس في الألسنية العامة، ترجمة: صالح القرمادي وآخرون، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٥.

- السيوطي (جلال الدين): المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد علي البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٨٧ جزآن.

- عبد العزيز (محمد حسن): التعريب في القديم والحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠.

- عبد ربه (فوزي السيد): المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٣.

- عمر (أحمد مختار): - الدلالات الاجتماعية والنفسية لألفاظ الألوان في اللغة العربية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة اللسانيات عدد٦، ١٩٨٥.

  - البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتاب، ط٦، ١٩٨٨.

- فك (يوهان): العربية، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨٠.

- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.

- الكراعين (أحمد نعيم): علم الدلالة بين النظرية والتطبيق، بيروت، ١٩٩٣.

- اللقاني (رشيدة عبد الحميد): ألفاظ الحياة الاجتماعية في كتابات الجاحظ، دراسة في التطور الدلالي للعربية، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٩١.

- المبارك (محمّد): فقه اللغة وخصائص العربية، ط٤، بيروت، ١٩٧٠.

- مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، دار أمواج، بيروت، ١٩٨٧.

- المغربي (عبد القادر): الاشتقاق والتعريب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٤٧.

- ياقوت : معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١.

- يعقوب (إميل): - فقه اللغة العربية وخصائصها، بيروت، ١٩٨٢.

- معجم الخطأ والصواب في اللغة، ط٢، دار العلم للملايين، ١٩٨٦.

* * *

BACCOUCHE (Taieb): L'emprunt en Arabe moderne, Beit-Alhikma,1994. [L'emprunt].

DUBOIS (J. et C).: Introduction à la lexicographie le dictionnaire, Librairie Larousse, Paris, 1971.

FREI (Henri): La grammaire des fautes, Paris, 1929. [La grammaire des fautes].

GUILBERT (Louis) :La créativité lexicale,Larousse, Paris, 1975. [La créativité lexicale].

LYONS,(John):-Linguistique générale, Introduction à la Linguistique théorique, Trad. fr. par F. Dubois- Charlier et D. Robinson, Larousse, Paris, 1970. [Linguistique générale].

MILNER (Jean-Claude): Introduction à une science du langage, Edition du Seuil, Paris,1986.

MONTEIL(Vincent) :L'Arabe moderne, Paris 1960.[L'Arabe moderne].

MOUNIN (Georges): Dictionnaire de la linguistique, Presses Universitaires de France, Paris, 1974.

PELLAS (Charles): Lahnal-Amma , Encyclopedie de L'Islam V. 609-614 Introduction à l'Arabe moderne, Paris 1961.

PICOCHE (Jacqueline): précies de lexicologie française, létude et lenseignement du vocabulaire, Edition NAHAN-UNIVERSITE, Paris, 1977.

SALMINEN (Ainos Niclas): la lexicologie, Armand Colin, Paris, 1997.

VENDRYES (Joseph) : LE Langage introduction linguistique à l'histoire, Albain Michel, Paris 1968.

فهرس الموضوعات

*المقدّمة ٣

*التمهيد ١١

١- التطوّر اللغوي: ١٧

١-١-العوامل الخارجيّة ٢٠

١-٢-العوامل الداخليّة ٢٣

١-٢-١-المعالجة الشّكليّة ٢٤

١-٢-٢-المعالجة الدلالية ٢٩

١-٢-٢-١-التّرادف ٣٣

١-٢-٢-٢-الحقول الدلالية ٣٥

١-٢-٢-٣-الاشتراك الدلالي ٤٤

٢-العربية ومستوياتها اللغوية: ٥٢

(الفصيح، المولّد، العامي، المقترض)

***الفصل الأول: الفصيح** ٦١

١-الفصيح والمستويات اللغوية ٦١

٢-مفهوم الفصيح عند الجاحظ ٦٣

٢-١-مطابقة المقال للمقام ٦٣

٢-٢-تجنّب التوعّر ٦٥

٢-٢-١-التّعقيد	
٢-٢-٢-الغريب	٦٥
٢-٢-٣-التّصنّع	٦٦
٢-٢-٤-اللحن	٦٨
٣-شرح الفصيح في مؤلَّفات الجاحظ:	٧٠
٣-١-الجاحظ المعجميّ	٧١
٣-١-١-وحدات معجميّة بسيطة	٧٥
٣-١-٢-وحدات معجميّة مركّبة	٧٦
٣-١-٢-١-أمثال	١٢٢
٣-١-٢-٢-متلازمات	١٢٣
٣-١-٢-٣-تواردات لفظيّة	١٢٨
٣-١-٢-٤-عبارات خصوصية	١٣٠
٣-١-٢-٥- استعمالات خاصة	١٣٢
٤-خاتمة الفصل الأول	١٣٦
***الفصل الثاني: المولَّد**	١٣٨
١-مفهوم التوليد عند الجاحظ	١٤٣
٢-أثر الحدث الإسلامي في تطوير العربية	١٤٣
٢-١-موت ألفاظ	١٥٠
	١٥٠

٢-٢-تولُّد ألفاظٍ بقواعد التوليد في العربية

٢-٣-ظهور مادة حديثة ١٥١

٣-المولَّد في عصر الجاحظ ١٥٣

٣-١-مجالاته ١٥٥

٣-١-١-في العلوم ١٥٦

٣-١-٢-في الاجتماع ١٥٧

٣-١-٣-في الفكر ١٥٨

٣-١-٤-في المذاهب ١٥٩

٣-١-٥-في الحيوان ١٦٠

٣-١-٦-في اللغة ١٦١

٣-١-٧-في المجون ١٦١

٤-معالجة لنماذج من المولّدات في عصر الجاحظ ١٦٢

٤-١-التوليد في ألفاظ اللغة العامة ١٦٤

٤-١-١-التوليد الشكلي ١٦٤

٤-١-٢-التوليد الدلالي ١٦٤

٤-٢-التوليد في مصطلحات العلوم والفنون ١٨٥

٤-٢-١-التوليد الشكليّ ١٨٩

٤-٢-٢-التوليد الدلالي ١٨٩

٤-٣-التوليد في مصطلحات اللهو والمجون ١٩٨

٤-٣-١-التوليد الشكليّ ٢١٣

٤-٣-٢-التوليد الدلالي ٢١٣

٥-خاتمة الفصل الثاني ٢١٨

***الفصل الثالث: العاميّ** ٢٢٣

١-العاميّ واللحن عند الجاحظ ٢٢٩

٢-العاميّ ووظائف اللغة الاجتماعيّة ٢٢٩

٣-معالجة نماذج من العاميّ في مؤلّفات الجاحظ ٢٣٤

٣-١-ما شرحه الجاحظ ٢٤٠

٣-٢-ما لم يشرحه الجاحظ وبحثنا عن دلالته في مصادر أخرى ٢٤٠

٤-خاتمة الفصل الثالث ٢٥٢

***الفصل الرابع: الاقتراض** ٢٦١

١-الحاجة إلى الاقتراض ٢٦٧

٢-مكانة الاقتراض في الدراسات الحديثة ٢٦٧

٣-الاقتراض في الدرس اللغوي العربي القديم ٢٧٠

٤-الاقتراض في مؤلفات الجاحظ ٢٧٢

٤-١-المعالجة النّظريّة ٢٧٧

٤-٢-المعالجة التطبيقيّة ٢٧٩

٥-معالجة نماذج من الأعجميّ في مؤلّفات الجاحظ ٢٨٢

٥-١- ما استعمله الجاحظ من الأعجمي دون تحديد أصوله ٢٨٥
٥-٢-ما ذكر الجاحظ أصوله الأعجميّة

٦-خاتمة الفصل الرابع ٢٨٥

***الخاتمة العامة** ٣٠٢

***مصادر البحث** ٣٠٨

***مراجع البحث** ٣١٠

***فهرس الموضوعات** ٣٢١

٣٢١

٣٢٦

الحبيب النّصراوي

-المعهد العالي للغات بتونس، ١٤، شارع ابن ماجة ١٠٠٣ حي الخضراء، تونس،

-١٠ نهج ٦٩٨٠ن حيّ الانطلاقة ١٠٦٤، تونس،

-الهاتف: ١٢٤ ٩٢١ ٧١ - ١٨١ ٩٣٥ ٩٨

البريد الإلكتروني: Nassraoui.habib@wanadoo.tn